



خمسة آلاف سنة من

تاريخ الصين

المجلد الأول

خمسة آلاف سنة من
تاريخ الصين

المجلد الأول

خمسة آلاف سنة من
تاريخ الصين

المجلد الأول

تحرير
نبيل السردوك

ترجمة
شركة المأمون للترجمة

荣寰





يتضمن هذا الكتاب ترجمة الاصل الصيني

Five Thousand Years of Chinese Nation (Volume 1)

Written by Han Xing’e, Guo Chunfeng

Translated by شركة المأمون للترجمة

Original Title: 中华上下五千年（全3册）/ ISBN: 978-7-210-08139-5

الطبعة الأولى: تشرين الثاني/نوفمبر 2019 م – 1441 هـ

ردمك 978-614-02-3585-4





عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 – 785108 – 785107 (1-961+)
ص.ب: 13-5574 شوران – بيروت 2050-1102 – لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) – البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي

التنضيد وفرز الألوان: أبـجد غرافيكس، بيروت – هاتف 785107 (1–961+)

الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت – هاتف 786233 (1–961+)

المحتويات

1
قيام بانغو بفصل السماء عن الأرض

هل سبق لك أن تساءلت ما هو التاريخ؟

هل هو ما ذكر في السجلات عن الحقب التاريخية الماضية؟ أم الآثار المعروضة في المتاحف؟ بالطبع يمكننا اعتبار كل ما تقدّم جزء من التاريخ. ولكن يجب أن نفهم أن السجلات التاريخية والتحف الأثرية هي سجلات تمّت بلورتها بمرور الوقت. هناك العديد من الناس الذين عاشوا على الأرض تحت قدميك، قد يكون بينهم أصحاب الحماس واللامبالاة، والانفتاح والانغماس، والحكمة والجهل وقد دخل بكاؤهم وابتسامهم إلى سجلات التاريخ، ولم تبق إلاّ بعض من آثارهم وهو ما ذكره التاريخ أو تتحدث عنه الأطلال الأثرية التي نستطيع من خلالها السفر عبر الزمن وأخذ لمحة عن تلك الأيام الغابرة التي شكّلت القصص الخاصة بالصين، دعونا نبدأ من الآن لاستعراض تلك الأيام القديمة.

الوقت يجري كما تجري مياه الأنهار وما من شيء يمكنه أن يعيده إلى الوراء. في الحقيقة، إننا لا نعرف الوقت الذي بدأ فيه الناس استعراض التاريخ، في ذلك الوقت، لا نعرف كيف كانت الأرض تحت أقدامهم. هل كانت هناك فيضانات مخيفة وحيوانات عملاقة؟ وهل كانت هناك نباتات وأشجار شامخة وجبال وأنهار هادرة؟

وبما أن لا معلومات عن ذلك الزمن فلا بد أن يطلق الناس العنان لمخيلتهم.

تخيلوا أن العالم كان متداخلا ومتشابكاً في بدايته مثل بيض الدجاج، وفيه عملاق يدعى «بانغو»، الذي استيقظ يوماً ما بعد النوم لمدة 18 ألف عام بهدوء في عالم خالٍ من الصوت والحركة واللون والرائحة، وبعد أن استيقظ فعل شيئاً واحداً فقط لقد استخدم فأسه العملاق وشقّ العالم.

هكذا يشقّ العالم الذي يجمع بين الصفاء والعكر إلى شطرين، حيث صعد الصفاء ونزل العكر، أما بانغو فقد نما ونشأ وكان فوق رأسه الصفاء وتحت قدميه العكر. وبعد مرور 18 ألف عام، ارتفع الصفاء باستمرار وتحول تدريجياً إلى السماء، وانخفض العكر وتحول تدريجياً إلى الأرض، حيث وقف بانغو بين السماء والأرض. وفي وقت لاحق سقط بانغو ربما بسبب التعب والإرهاق، وتحوّلت عيناه إلى الشمس والقمر، وتحوّل جسده إلى الجبال والأنهار والأشجار، حيث تشكل العالم.

يبدو أن الناس الذين تخيّلوا بانغو لا يزالون يشعرون بقدرة بانغو عندما نظروا إلى الجبال والأنهار والأشجار والحيوانات المحيطة بهم، ويبدو الأمر يوحي أن «الإنسان» قد خرج من صفوف الطيور والوحوش وخرج من الجهل، وبدأ في السيطرة وخلق هذا العالم الواسع على ما يبدو.

هذا هو خيالهم حول مصدر العالم. وفي هذا الوقت، بني المسرح العالمي، ولكن من أين جاء الإنسان؟ لا يزال إطلاق العنان للخيال خير جواب، حيث قد سقط بانغو وتحول إلى عالم واسع يستقبل ساكنين جدد وهم البشر.

الذين عندما وقفوا إلى ضفة النهر، نظروا إلى وجوههم وأجسامهم، فهل كل هذه الأشياء مخلوقة؟

حسناً من خلقها؟

نووا، إلهة جسدها أفعى ولها وجه إنسان، استخدمت الطين لصياغة آلاف البشر عندما كانت تشعر بالوحدة والضجر. في الحقيقة، إننا نعرف أن كل ما تقدم لا يمت إلى الحقيقة بصلة حول تشكيل العالم وأصل الإنسان. أما الحقيقة فهي ما سيتوصل إليه العلماء بعد التحليل الدقيق والمفصل والاستنتاج، ويمكننا أن ننظر إلى الآثار التي اكتشفها العلماء لمعرفة أصل الإنسان.

إنسان يوانمو: اكتشفت آثاره في قرية شانغ نابانغ ببلدة يوانمو بمقاطعة يوننان، ويعود تاريخه إلى 1.7 مليون سنة.

إنسان لانتين: اكتشفت آثاره في قرية قونغ جولينغ ببلدة لانتين بمقاطعة شنشي، ويعود تاريخه إلى 800 ألف سنة.

إنسان بكين: تم اكتشاف آثاره في بلدة جو كوتيان ببكين ويعود تاريخه إلى 500 ألف سنة.

إنسان شاندينغدونغ: تم اكتشاف آثاره في بكين، ويتراوح تاريخه بين عشرة وعشرين ألف سنة.

وبالطبع، هناك إنسان هوشيان وإنسان جيننيوشان وإنسان دالي وإنسان تونغزي وإنسان مابي وإنسان شوجيايو وإنسان دينغتسون وإنسان ليوجيانغ وما إلى ذلك، واستنتج العلماء من خلال هذه الاكتشافات الأثرية أن الإنسان تطور من القردة ببطء حتى أصبح على شاكلتنا.

لا أظن أن أحداً سيستسيغ ما ذكر آنفاً، لكنه حقيقة.

خلال هذه الفترة الطويلة من الزمن، كان أي تقدم في البشرية له أهمية كبيرة، من البدء باستخدام العصا الخشبية للمطاردة، والانتقال إلى العيش في الكهوف، إلى صنع الأدوات الحجرية، واستخدام النار لطهي الغذاء، وصولاً إلى ستر الأجساد بجلود الحيوانات، قبل الشروع في تدجينها، وشيئاً فشيئاً سار ركب الحضارة التي بنته الإنسانية مدماكاً تلو آخر.

2
سلف الأمة الصينية

ما لم تعش في البرية من قبل، فلن تكون قادراً على تقدير مصاعب الحياة بمفردك. تخيّل ما ستشعر به من حزن وأنت تعيش بمفردك في كهف فارغ في الليل الممطر، بل تخيل مقدار الرهبة التي ستشعر بها وأنت تجلس بمفردك في البرية إلى جانب النار وتصغي إلى أصوات الوحوش والكواسر. قلة من الناس يمكنهم العيش لوحدهم خاصة في الأزمنة القديمة عندما كانت مواد المعيشة نادرة للغاية، لذا كان الناس بحاجة أكبر إلى أن يكونوا أكثر ارتباطاً، حيث اصطادوا الحيوانات، وقطفوا الفواكه والخضروات، وقاتلوا وحاربوا في مجموعات، وتصدّوا معاً للحرارة والبرودة القاسيتين والعواصف والأمطار الهاطلة والجوع والمرض. وعندما تجمّعوا مع بعضهم البعض ظهرت القبائل.

من القردة إلى الإنسان، عاش أسلاف الإنسان المعاصر في قبائل وقعت تقريباً جميعها في البداية على ضفاف النهر، حيث حدد أسلافنا حدود الأنشطة الخاصة بهم، إما بالجبال أو بالأنهار، وعاشوا في المنطقة المحددة لهم بهدوء. ومع ذلك، إن تطلعاتهم إلى العالم الغريب وسعيهم وراء المواد الغنية جعلتهم يتطلعون دائماً إلى توسيع نطاق الأنشطة خطوة بخطوة. ومع زيادة أنشطتهم، ظهر التداخل بين القبائل.

لقد أدّى التداخل إلى التقارب، وأدى التقارب إلى الاحتكاك. لقد فتح التاريخ صفحة جديدة في عملية التقارب والاحتكاك بين القبائل، ومنذ حوالي أربعة آلاف سنة تشكّلت ثلاث قبائل تدريجياً، وأقامت إحداها بالقرب من نهر جيشوي في شمال الغرب برئاسة الزعيم هوانغدي، والأخرى أقامت بالقرب من نهر جيانغشوي في شمال الغرب برئاسة الزعيم ياندي، والأخيرة أقامت في الجنوب برئاسة الزعيم تشيو.

واندلعت بينهم المعركتان الأكثر شهرة في التاريخ القديم المبكر.

حصلت الأولى بين هوانغدي وياندي، ووفقاً للأسطورة، كان تشيو شرساً للغاية وله 81 أخاً يملك كل واحد منهم رأساً نحاسياً وأربع عيون وثمانية أذرع، ويحب أكل الرمل والحجارة، ويقدر على صنع كافة الأسلحة مثل السيوف والأقواس، وغزا هؤلاء القبيلتين الأخريين بين حين وآخر. وأخيراً جنّد هوانغدي الغاضب القبيلتين الأخريين لمحاربة تشيو.

حصلت المعركة في منطقة جولو، وكانت هذه المعركة فظيعة وشرسة للغاية، حيث قاد هوانغدي ستة أنواع من الوحوش المستأنسة أي الدب وبي وباي وشو وتشو والنمر، أما تشيو فقد استدعى الضباب. وأمر هوانغدي المحاصر في الضباب مساعده لصنع «العربات المرشدة» للإشارة إلى الجهة، وقاد جنوده للخروج من الضباب لمواصلة القتال مع تشيو، ونجح في القبض عليه وقتله.

أما المعركة الثانية فحصلت بين هوانغدي وياندي، حيث نجح الأول من جديد.

يجب القول إن نجاح هوانغدي في هاتين المعركتين عزّز من مكانته القيادية بين القبائل، وعندما كان هناك قبائل تخرج عن طوعه كان يهاجمها مهما كانت المسافة، ولم تشكل السهول والجبال والأنهار عائقاً أمام هوانغدي . ولكن هل اختفت تلك القبائل الخاسرة؟ لا، لقد اتحدت بهدوء في قبائل جديدة بطرق مختلفة، مثل اتحاد الجداول في البحر واتحاد التربة الناعمة المتراكمة في الجبال. لقد اتحدت قبيلة تشيو وقبيلة ياندي بالإضافة إلى قبائل أخرى بهدوء في قبيلة هوانغدي بعد هزيمتهما، وفي النهاية تشكل من اتحاد هذه القبائل أمة عظيمة.

حتى الآن، لا يزال الصينيون يدعون أنهم «أحفاد يانهوانغ» (أحفاد ياندي وهوانغدي)، فبالرغم من تغلب الأخير على الأول، لا يمكن الإغفال عن نفوذ الأول. وبالطبع ظل هوانغدي كفائز محترماً لدى الناس. واليوم تمّ بناء «ضريح هوانغدي» على جبل تشياوشان في محافظة هوانغلينغ بمقاطعة شنشي، تخليداً لذكرى هذا السلف القديم للأمة الصينية.

3
زيارة الزعيم ياو للحكماء

بعد هوانغدي، كان أشهر زعماء القبائل الثلاثة هم ياو وشون ويو.

لنبدأ من ياو أولاً، ذاق الناس رغد العيش خلال فترة حكمه، ولكن مع مرور الوقت وبعد مضيّ سبعين سنة على حكمه ومع تقدمه بالسن فكّر باختيار رجل حكيم ليخلفه، لذلك دعا زعماء القبائل لمناقشة الأمر.

نظر ياو إلى الزعماء وسأل ببطء: من يستطيع أن يخلفني؟

قال فانغتشي أحد زعماء القبائل بصوت عالٍ ابنك الأكبر دانتشو رجل حكيم وذكي، ويمكنه وراثة موقعك.

هزّ ياو رأسه ونفى ذلك، قائلاً إنه وُلد عنيداً وشرساً ولا يصلح.

بالرغم من أن دانتشو هو الإبن الأكبر لياو، إلاّ أن الأخير أيقن أنه لا يصلح لأن الحُكم يتطلب الحكمة وهي غير متوفرة بولده، وفي حال التعاطف مع ابنه وتسليمه السلطة، فإنه سيستجيب لعاطفته الأبوية ولكنه سيلحق الأذى بمصير رعاياه، لذلك أعطى الأولوية لمصلحة الناس وإن عنى ذلك عدم تسليم السلطة لابنه.

واقترح الزعيم قواندو أن قونغقونغ يستطيع توحيد الناس وتحقيق الإنجازات ويمكنه أن يكون خير خليفة لياو. غير أن ياو قال إن قونغقونغ يكذب أحياناً ولا يسير على الصراط المستقيم، فهو يظهر التواضع إلاّ أنه يضمر الغطرسة، وبالتالي لا يصلح هو الآخر.

أولى ياو حرصاً واهتماماً شديدين لاختيار خلفه ولم يرضَ بكل توصيات زعماء القبائل، وواصل البحث عن الخلف بنفسه. ويقال إنه سمع يوماً ما أن هناك حكيماً يدعى شويو يعتزل في

جبل تشيشان، فعقد العزم على زيارته بالرغم مكانه البعيد.

ما إن رأى لياو الحكيم شويو حتى وجد فيه ضالته فقد جمع بين الكفاءة والاحترام والأخلاق، وأيقن أنه سيتمكن من الحكم وقيادة الناس فرجاه أن يخلفه. إلاّ أن شويو رفض قائلاً: «أنت حاكم جيد، ومن سيخلفك سيسعى وراء نيل السمعة الحسنة، والسمعة تابعة للكيان، وأنا لا أسعى وراء شيء تابع، لذا، لا أستطيع القبول لأن السلطة لا فائدة ترجى منها».

عندما لم يوافق شويو على قبول السلطة، غادر ياو على مضض. أما شويو فقصد نهراً صافياً لينظّف أذنيه، فهو لم يرد أن يبقى ما سمعه في أذنيه من أذى دنيوي مقلقاً لسلام قلبه الداخلي. في ذلك الوقت، ظهر ناسك يدعى «تشاوفو» يقود بقرته الصفراء وسأله عن سبب تنظيفه لأذنين.

فأجاب شويو بصدق.

عندها قال تشاوفو «إن كنت مختبئاً في الوادي العميق، فمن يستطيع رؤيتك، ومن يستطيع معرفة حكمتك، فأنت مجرد طالب للشرف والسمعة، ولا تنظف أذنيك في النهر لأنك ستوسّخ المياه وعندها أين ستجد بقرتي مياها نظيفة؟». وغادر.

يتبيّن من كلام شويو وتشافو أنهما يسعيان وراء السعادة والنزاهة وليس وراء السلطة والإنجازات الدنيوية.

بعد رفض شويو، اضطر ياو إلى مواصلة البحث عن خليفه، فأوصى زعماء القبائل له برجل حكيم آخر وهو شون، ولكن من هو شون؟ وأي نوع من الأشخاص هو؟ وهل يمكنه وراثة موقع ياو؟

4

بر الزعيم شون بالوالدين

لقد عاش شون في ظل ظروف صعبة، وغني عن القول إنه كان روحياً وليس مادياً.

لقد سبّب له والده وزوجة أبيه وشقيقه الأصغر ألماً روحياً. فبعد أن توفّيت أمه تزوج والده الأعمى الذي يدعى غوسو، وأنجبت زوجة أبيه شقيقه الأصغر شيانغ، ولم يمنحه والده وزوجته وأخوه المحبة بل عاملوه بطريقة سيئة.

ولكن كيف يتصرّف المرء إن لم يحظَ بحب أهله؟

عدم حب أهله له آلمه، فقد انهالوا عليه بالكلام الجارح فقد كانت زوجة أبيه تسخر منه وأخوه يتغطرس عليه، أما أبوه فقد كان منحازاً إليهما، في ظل هذه الظروف الصعبة، بذل شون مزيداً من الجهود لكسر الجليد بابتساماته وقلبه المخلص، حيث تعامل مع والده ببر ومع زوجة أبيه بحماس ومع شقيقه الأصغر بمحبة.

بخلاف أهله أحبّ الآخرون التعامل معه، حيث يقال أنه زرع الحبوب على سفح جبل ليشان، واصطاد الأسماك في نهر ليزه، وصنع الأواني الفخارية على ضفاف النهر الأصفر، وكان الناس يلتحقون به حيثما حلّ، فقد كانت القرية تتشكّل عادة خلال عام وتتشكّل البلدة خلال ثلاث سنوات، وأبدى كثير من الناس رغبة بالعيش بالقرب منه، وتعاملوا مع بعضهم البعض باحترام وتواضع دون أي نزاع تحت تأثيره.

هذا هو شون المرشح المشترك من جميع زعماء القبائل. كان ياو حذراً وقرر مواصلة اختبار شون، وأمر أن تتزوجه ابنتاه أهوانغ ونفيغينغ لمراقبة قدرته على حكم العائلة، وطلب من

أولاده التسعة التعاون معه لاختبار كفاءته في أداء المهام، فنال احترامهم بأقواله وأفعاله المناسبة والمحترمة، وكان ياو مسروراً جداً وأمر بناء مستودع حبوب له ومنحه الأبقار والأغنام والملابس.

كل ذلك جعل شقيقه الأصغر شيانغ يحسده للغاية، وحتى جعله مجنوناً واقترح على والديه قتل شون، بعدما يحصل الوالدان على مستودع الحبوب، وسيتزوج هو أهوانغ ونفيغينغ، ونال موافقة والديه على اقتراحه.

ولكن كيف يمكن قتل شون؟

سنحت الفرصة عندما بدأ المستودع بالتداعي، فطلب شقيقه منه الصعود إلى الأعلى لترميمه، ثم أزال السلّم الخشبي وأضرم النار بالمستودع لإحراقه من دون شفقة. غير أن الرجل الذكي طار مثل الطائرة عن سطح المستودع وفي يديه قبعتان كبيرتان.

ثم طلب منه حفر البئر، وسدّ مدخل البئر بصخور كبيرة بعد نزوله، وظنّ شيانغ أن شون قد مات، فذهب إلى غرفته شامخاً وعزف على عوده، غير مدرك أن شون نجا من مكيدته وحفر فتحة في عمق البئر، ورأى أن شيانغ يعزف على عوده بعد الرجوع إلى البيت، ثم تقدّم إلى الأمام وسلم عليه.

دُهش شيانغ للغاية وهرب من غرفة شون محرجاً.

لقد نجا شون من عدد غير محدود من المكائد، واضطر أخوه ووالداه إلى التسليم بواقع الحال، وبذلك حافظ شون على الوئام العائلي من خلال صبره وحكمته. يرى ياو، إن حكم البلاد يفترض بالحاكم العمل على التوفيق بين المتناقضين والمختلفين، وبما أن شون نجح في هذا العمل على نطاق عائلته، فمن المؤكد أن يستطيع القيام بالأمر عينه على مستوى البلد.

في النهاية، كان شون خليفة ياو بعد أن وافت المنية الأخير.

شون لم يُخيب أمل ياو، فقد بدأ شون باصطياد الحيوانات والوحوش في كل الأماكن، وتحسين وتعديل الطقوس والتقليل من العقوبات، وحقّق إنجازات عديدة وأتى بالسلام والنظام لكل البلاد، وبطبيعة الحال، فإن أكثر ما يستحق الثناء هو تعيينه للسيد يو للسيطرة على الفيضانات ونجاح الأخير في مهمته.

5
سيطرة يو على الفيضانات

يجب أن نبدأ من الزعيم ياو عند الحديث عن الفيضانات.

فقد حصلت فيضانات كبيرة للغاية أثناء حكمه، وهذا ما ترك أثراً سيئاً في نفوس الناس، فالمياه أغرقت الأراضي الزراعية التي استصلحها المزارعون بجهود كبيرة، وأغرقت الأغنام والأبقار التي ربّوها بجهود كبيرة، وأغرقت البنى التي بنوها بجهود كبيرة، واضطر كثير من الناس إلى مغادرة منازلهم.

كان الزعيم ياو قلقاً للغاية واستدعى زعماء القبائل للمناقشة، فمن يمكنه السيطرة على الفيضان؟

قرر الجميع بعث غون وتكليفه بهذه المهمة.

ولكن ياو لم يكن راضياً على هذا الاختيار، واعتقد أنه يحب العصيان للأوامر وإفساد العائلة، ومن الصعب عليه تحمل المسؤوليات، ولكن لم يتمكّن زعماء القبائل من ترشيح رجل أجدر وأحكم منه للسيطرة على الفيضانات، فقبل غون المهمة، ولكن مهمته باءت بالفشل في النهاية بعد تسع سنوات، لأنه استعمل الطريقة التصادمية والمقاومة، حيث بنى سدوداً عديدة في محاولة التصدي للفيضانات، ولكن مياه الفيضانات أصبحت أكثر اضطراباً لاحقاً.

لقد دمرت الفيضانات السدود التي بُنيت بجهد كبير، واستمرت في التخريب، ولم يعد الناس يشعرون بالطمأنينة.

بعد وصول شون إلى سدّة الحكم، تجوّل في مختلف الأماكن لتفقّد نتائج السيطرة على الفيضانات واكتشف أن غون غير قادر على أداء المهمة، فشرّده إلى جبل يوشان، ولكن من سيتولّى

أمر الفيضانات الآن؟

استمزج شون آراء زعماء القبائل، الذين رشحوا يو ابن غون، ورأوا أنه أفضل من والده من حيث الكفاءة والطبيعة بكثير، وهو متواضع ومهذّب وجاد. وكان شون قادراً على تعيين الأصلح، ولم يجاهل ويحتقر يو لأن الأخير ابن غون، ووافق على تسليمه المسؤولية.

لكن يو لم يكره شون بسبب تشريد الأخير لوالده، بل ظلّ يشعر بالحزن لعدم نجاح والده في السيطرة على الفيضانات، وقد أتيحت له الفرصة أخيراً للتعويض عن ذلك، فقبل بحزم المسؤولية الثقيلة للسيطرة على الفيضانات.

لم يكن قد مرّ على زواج يو إلاّ فترة قصيرة، لكنه لم يتردّد في توديع زوجته الجميلة توشان، وشرع في رحلة السيطرة على الفيضانات مع مساعديه بويي وهودي.

واستغرقت هذه الرحلة 13 سنة.

مرّ يو على الطرق البرية على العربة وبالأنهار بالباخرة وعلى الطرق الطينية بالحمّالة وبالجبال بالعصا، وعاش في الخلاء وتذوّق الريح، وانتشرت خطواته في كل جبل وتل ونهر في الأراضي الوسطى للبلاد. وكان في يده اليسرى حبل القياس ويده اليمنى أداة التقييم، وقاس طوال الرحلة، حيث فكّر مراراً في أسباب فشل والده في السيطرة على الفيضانات، وقرّر التخلّي عن طريقة والده وفتح المجرى للمياه وتوجيهها، وأصبحت الفيضانات المستعرة مطيعة وتدفّقت إلى البحر شرقاً.

وعاش يو حياة بسيطة في منزل متواضع، ولم يركّز على المأكل ولا الملبس، لكنه ضحّى بتضحيات كثيرة لعبادة الآلهة، واستخدم الكثير من الموارد لبناء الخنادق والقنوات، وكرّس نفسه في السيطرة على الفيضانات. ويقال إنه مرّ ببيته ثلاث مرات ولم يدخل إليه في عملية السيطرة على الفيضانات، حتى سمع بكاء ولده الصغير مرّة وتساءل لماذا هو يبكي؟ هل هو سقط من على السرير؟ أو هل هو مشتاق لوالده؟ كان يو حقاً يريد الدخول إلى البيت، ولكن قرّر أخيراً المغادرة ومواصلة رحلته بدموعه في عينيه.

نجح يو في السيطرة على الفيضانات بعد ثلاث عشرة سنة، حيث قام بفتح تسعة ممرّات مائية وبناء تسعة سدود للأنهار والبحيرات وقياس تسعة جبال، وقسّم الصين إلى تسع مناطق وفقاً للظروف الجغرافية للجبال والأنهار، وهي جيتشو وتشينغتشو وشوتشو وتشانغتشو ويانغتشو وليانغتشو ويوتشو ويونغتشو وجينغتشو.

ومن أجل ذكرى إنجازات يو في السيطرة على الفيضانات، بنى الناس معابد له وسمّوه «إله يو»، والجدير بالذكر أن الصين تعرف أيضاً باسم «بلاد يو»، بمعنى أنها منطقة حيث سبق ليو السيطرة على الفيضانات.

بسبب إنجازات يو في السيطرة على الفيضانات، قرّر شون تسليم العرش ليو عندما أصبح كبيراً في السن.

اختار ياو الحكيم شون لتسليم العرش له، واختار شون الحكيم يو لتسليم العرش له. وفي تاريخ الصين، تسمى طريقة تعين أصحاب الكفاءة لتسليم العرش «تشان رانغ».

كانت الصين تسمى البلاد المنصفة، ووصفت الكونفوشيوسية أن البلاد المنصفة جميلة ومستحبة، حيث أن البلاد حكمت بشكل عادل واختار الناس أصحاب الكفاءة لتولي منصب الحاكم، وهم عاشوا في وئام على أساس الصدق والثقة المتبادلة، حيث يمكن للمسنين عيش حياة سعيدة ويمكن للشباب تفعيل وإظهار مواهبه، ويمكن للأطفال الصغار النمو بسلاسة.

ولكن لم تستمر هذه الطريقة لتسليم العرش لمدة طويلة، وهي مثل الصاعقة التي تختفي فور الظهور، حيث سلّم يو العرش لابنه تشي وأقام سلالة شيا الحاكمة، وتحولت «البلاد المنصفة» إلى «البلاد العائلية».

6
حكم هويي

كان اختيار أصحاب الكفاءة والقدرة لتولّي منصب الحاكم في فترة البلاد المنصفة طريقة يمكن أن تضمن الأخلاق الحميدة والقدرة الكافية لكل حاكم في الحكم بشكل منظم، ولكن في فترة البلاد العائلية، كيف ضمان الأخلاق الحميدة للحكام؟ وقد يكون بعضهم مجتهدين وبعضهم كسالى وبعضهم متواضعين وبعضهم الآخر متغطرسين، حيث ينال الحكماء ثقة الشعب، ويفقد الكسالى ثقته.

يفوز القوي بالعالم، حيث ويحاول رجل الكفاءة القوي والطموح استبدال الحاكم الكسول وتسلّم عرشه، مما هزّ الحكم وتداولت السلطة.

دعونا نستعرض تداول واهتزاز سلالة شيا التي أنشأها تشي ابن يو حوالي عام 2070 قبل الميلاد، وتسلّم تايكانغ ابن تشي العرش بعد وفاته، وكان تايكانغ غير مهتم بالحكم، بل يحب الاصطياد التجوّل في الخلاء كثيراً، وما استطاع الوفاء بمسؤولياته كحاكم، مما أثار بالتأكيد استياء الشعب وبالأحرى محاولات الانقلاب من قبل أصحاب الأجندة الخاصة، بمن فيهم رامي الأسهم المشهور هويي.

هناك العديد من القصص الأسطورية حول هويي، وفيها قصتان أكثرها شهرة.

وإحداهما قصة إسقاط الشموس بالأسهم. وكما نعلم الآن أن الشمس نجم والأرض كوكب، وتدور الأرض حول الشمس. ولكن في العصور القديمة، كان الناس يعتقدون أن هناك عشر شموس تسكن بشجرة فوسانغ في بحر الصين الشرقي البعيدة، وتصعد الشموس العشر بالتناوب، وتظهر شمس واحدة فقط في السماء كل يوم، بينما تبقى التسع الباقية على الشجرة، ولكن في يوم من الأيام أصبحت الشموس العشر غير مطمئنة وصعدت إلى السماء وبثّت أشعتها بشكل عشوائي.

يمكن تخيّل مشهد وجود الشموس العشر في السماء.

تخطر في بالنا الحرارة، حيث تصدّعت الأرض وتموت النبات تجفّ الأنهار تحت الشموس الحارقة، ولم يحصل الناس على أي حبوب وطلبوا من هويي إسقاط الشموس، فأخرج هويي أسهمه وأطلقها إلى السماء، وهو ماهر وأسقط شمسة كلما أطلق سهامه. وفي النهاية بقيت في السماء شمسة واحدة فقط، وأصبح الطقس معتدلاً وكان الناس سعداء للغاية.

والقصة الثانية تتعلّق بآلهة القمر تشانغأه، ووفقاً للأسطورة، صعد هويي إلى قمة جبل كونلون بعد رحلة شاقة ونال لنفسه ولزوجته آلهة القمر تشانغأه دواء ديمومة الحياة من آلهة شيوانغمو، ولكن لم يكن في حسبانه أن زوجته خانته وابتلعت الدواء بوحدها، ثم طارت إلى قصر القمر للاستمتاع بديمومة الحياة والعزلة، ونظر هويي إلى القمر وتنهد لفترة طويلة حتى الوفاة.

بالطبع كان هويي الذي تسلم العرش من الحاكم تايكانغ ليس الذي ورد من الأسطورة، ولكن هو يجيد الرماية فهو يسمى هويي.

كان هويي يعيش في المجرى السفلي للنهر الأصفر، هو زعيم قبيلة يوتشيونغ، وأرسل الناس لمراقبة الحاكم تايكانغ ليلاً ونهاراً، ووجد الفرصة يوماً من الأيام عندما ذهب تايكانغ للاصطياد في الضفة الجنوبية لنهر لوشوي، وبقي في الخارج لأكثر من مائة يوم، فأرسل هويي بمجرد معرفة هذا الخبر الناس للذهاب إلى الضفة الشمالية للنهر لمنع رجوع الحاكم تايكانغ، وهو انطلق إلى العاصمة وساعد جونغكانغ شقيق تايكانغ على الوصول إلى سدة الحكم، وبالطبع كان جونغكانغ ليس سوى دمية له، حيث أمسك بكافة السلطة، وشهدت سلالة شيا للمرة الأولى عدم الاستقرار.

إذن فنرى أن الحكم مثل شجرة تنمو وحتى تثمر تحت الرعاية الدقيقة، وتتراجع وحتى تموت في حال الإهمال المستمر فضلاً عن الهز والقطع من قبل الناس حتى ولو كانت الشجرة عملاقة، ومن المؤكد أنها ستسقط أمام الرياح والأمطار يوماً من الأيام.

بالطبع كانت شجرة سلالة شيا ما زالت قوية الجذور ولم تسقط بسبب قطع هويي، وهو كان قادراً في بداية حكمه على إدارة شؤون الدولة بجدية، ولكن أصبح متساهلاً تدريجياً مع مرور الوقت، وبدأ الانغماس في التسلية والاصطياد على غرار الحاكم تايكانغ.

يمكن توقع نتائجه، وكان تايكانغ ينغمس في التسلية وراقبه هويي بجانبه، وعندما انغمس هويي في التسلية، فمن كان يراقبه بجانبه؟ وهذا الشخص يسمى «هانجو».

كان هانجو كخادم هويي والموثوق به قتل هويي عندما رجع الأخير تعباناً بعد الاصطياد، ثم حل هانجو محله، وهو أكثر قسوة من هويي، حيث أن الأخير اتخذ الحاكم جونغكانغ كدمية وخضع أمام سلالة شيا شكلياً، غير أن هانجو قتل جونغكانغ ثم ابنه شيانغ، حيث رأى أن سلالة شيا لن تنهار إلاّ بعد قتل الحاكم وأبنائه، من شأنه يمكنه تأسيس سلالة جديدة خاصة به.

ولكن كان ابن شيانغ قد نجا بشكل غير متوقع.

وهرب هذا الشاب إلى مكان بعيد ونشأ في صمت وراكم قوته في صمت، ورجع في النهاية بأعضاء القبيلة للانتقام وقتل هانجو، وأحيا سلالة شيا التي كانت على حافة الانهيار من جديد، وتسمى هذه الفترة من التاريخ «نهضة شاوكانغ»، أما الانهيار الكامل لسلالة شيا فحصل في عهد حكم شياجي.

7
محاربة شانغتانغ لشياجي

مع مرور السنين وبحلول القرن السادس عشر قبل الميلاد، كان قد تعاقد على سلالة شيا 14 حاكماً آخرهم شياجي.

حيث أشرفت سلالة شيا التي امتدّ تاريخها لأكثر من 400 عام على السقوط كغروب الشمس، وكان من ساهم في ذلك هو شياجي وهو حاكم طاغ، حيث عاش الشعب في مشقة بالغة تحت حكمه. وكان شياجي يحب بناء القصور الفاخرة وتناول الأطباق اللذيذة، وكان كل متعته قائمة على معاناة الشعب.

لذلك كثر عدم الرضا والاحتجاج.

وفي ذلك الوقت، لعن الشعب بالكراهية: عندما تهلك الشمس، سأموت معها، وتشار الشمس هنا إلى شياجي، مما يدل على أن الشعب يفضل الموت على التعايش مع شياجي، ولكن الأخير الذي انغمس في المتعة لم يسمع أصوات الشعب قط، وكان هناك وزير مخلص باسم «قوان لونغبانغ» وهو لا يريد سقوط السلالة التي امتد تاريخها لأكثر من أربعمائة سنة بسبب شياجي المتغطرس، فعرّفه عن معاناة الشعب وأمل منه عدم الانغماس في المتعة طوال الوقت، وإلاّ أنه سوف يفقد ثقة الشعب والسلطة.

غير أن الحاكم الطاغي لم يتمكّن من تحمل كلام الولاء، وأمر بقتل غوان لونغبانغ.

وأصبح العالم هادئاً بعد ذلك، وتراجع جميع الوزراء الآخرين ولم يجرؤوا على تقديم النصائح، وأصبح شياجي مسروراً جداً وواصل عيش الحياة الفاخرة، حينما سمع أن هناك شخص بكى في العاصمة لذكرى غوان لونغبانغ في العاصمة.

كان هذا الشخص هو تشنغتانغ، زعيم إحدى القبائل في المجرى الأسفل للنهر الأصفر، وهو رجل يجمع بين الأخلاق والكفاءة، وكان يودّ أن يقود القبيلة لتحقيق الإنجازات، لكنه في حاجة إلى مساعدة الحكماء من أجل تحقيق ذلك، حيث بحث عن الحكماء لمساعدته لكنه لم ينجح في ذلك. وفي يوم من الأيام عرف أن يين من قبيلة شنشي وهو رجل حكيم، فتحرك لزيارته ودعاه إلى العمل مع نفسه في قبيلة شانغ، ولكن رفض يين ذلك.

لم يكن تشنغتانغ محبطاً بل ذهب لزيارة يين خمس مرات على التوالي. وفي النهاية تأثر يين بمثابرته ووعد بمساعدته. وكان تشنغتانغ يحب ترشيح يين رجل الكفء والحكيم إلى الحاكم شياجي، لكن الأخير انغمس في المتعة ولم يكن مهتماً بحكم البلاد.

فأبقى تشنغتانغ يين بجانبه للعمل معه، حيث أصبح الرجلان حاكماً مشهوراً ووزيراً مشهوراً لاحقاً في تاريخ الصين.

كان تشنغتانغ حزيناً جداً وقتل شياجي غوان لونغبانغ الوافي، فأرسل مساعديه إلى العاصمة لتقديم تعازيه لعائلة هذا الرجل الوافي، والتي أصبحت لاحقاً التعازي لمصير سلالة شيا، ولم يكن في حسبانه أن فعله أثار استياء شياجي.

وأمر شياجي بإلقاء القبض على شانغتانغ (أي تشنغتانغ) ونقله إلى العاصمة وحبسه في سجن شياتي، ولم يطلق سلاحه إلاّ بعد عدة سنوات. ويقال إن شانغتانغ رأى رجلاً كان يفتح شبكته لصيد الطيور في البرية في طريق رجوعه إلى قبيلته قال «تعالي في شبكتي، يا الطيور في كل العالم». ولم يستطع شانغتانغ تحمل قتل أي طائرة فنصح الرجل بحل ثلاثة جوانب للشبكة وقال، يا الطيور طيروا إلى اليسار أم اليمين، إلاّ سوف تقع في فخ الشبكة.

بعد سماع تلك القصة، أثنى أمراء القبيلة بتشنغتانغ وقالوا إنه بلغ مستوى ذروة الأخلاق الحميدة والمحبة وحتى استفادت منه الطيور والحيوانات.

رجع تشنغتانغ إلى قبيلته، حينما قد خيبت سلالة شيا أمله، فقرّر معاقبة شياجي، وشن هجوماً عليه بعد عدة سنوات من التحضير، وكانت سلالة شيا فاسدة في عهد حكم شياجي مثل شجرة عملاقة جوفاء داخلياً على وشك السقوط، وكان تشنغتانغ الريح التي أسقطت تلك الشجرة العملاقة.

وقاد جيشه للتقدم نحو العاصمة مثل الريح، ودارت معركة بين الجانبين في بلدة مينغتياو.

فشل جيش شياجي في تلك المعركة القاسية، وهرب شياجي إلى نانتشاو حيث توفي هناك. ويقال إنه قبل موته، كان أكثر شيء ندم عليه شياجي هو أنه لم يقتل تشنغتانغ عندما كان في سجن شياتاي. وإن شياجي رجل لا يعرف مراجعة النفس، وهناك دائماً أشخاص في العالم يلومون ظروفهم السيئة على الآخرين، ولا يفكرون أبداً في أخطاء أنفسهم. وعلى أية حال، قد سقطت سلالة شيا بعد أكثر من أربعمائة عام من الازدهار، أما تشنغتانغ فوقف على أنقاض السلالة القديمة وعمل جاهداً على إقامة مملكة جديدة خاصة به وهي مملكة شانغ.

وتقدم التاريخ بخطوة إلى الأمام.

8
نقل بانغن للعاصمة

في خريف عام 1899، كان وانغ يرونغ مدير الخدمات في الأكاديمية الملكية مريضاً.

وذهبت عائلته إلى متجر الأدوية لشراء الدواء، ووجد وانغ يرونغ من بين الأدوية التي تم شراؤها دواءً يدعى «عظام التنين» وعليه الكثير من المقاطع الصينية القديمة المتشابكة، فما معناها؟ وهو كان يتساءل نفسه ومتحمساً في قلبه، ولم يكن في حسبانه أن دواء «عظام التنين» سيفتح بوابة للناس لمعرفة مملكة شانغ.

نعم، مملكة شانغ التي أنشأها تشنغتانغ.

اكتشف الناس أن دواء «عظام التنين» هو في الواقع درع السلحفاة أو العظم الكتفي للبقر، وتم اكتشاف هذه الأشياء في قرية شياوتون بمدينة آنيانغ بمقاطعة خنان، حيث موقع إحدى العواصم لمملكة شانغ.

ويجب علينا أن نبدأ من تاريخ نقل العاصمة في مملكة شانغ.

في حوالي عام 1600 قبل الميلاد، أسس تشنغتانغ مملكة شانغ، وامتد تاريخ المملكة لأكثر من 500 سنة حتى عام 1046 قبل الميلاد، خلال تلك الفترة نقلت عاصمة مملكة شانغ عدة مرات بأسباب عديدة مثل الفوضى الناجمة عن التنافس على العرش، أو النقل الاضطراري بسبب الفيضانات في النهر الأصفر، وقد نقلت العاصمة خمس مرات قبل وصول بانغن إلى سدة الحكم.

اضطر بانغن إلى نقل العاصمة من جديد بعد وصوله إلى سدة الحكم، لأن كانت مملكة شانغ فاسدة قليلاً. وكان تشنغتانغ قاد الجيش وغلّب على شياجي الذي انغمس في المتعة وأهمل معاناة الشعب، ولم يكن في حسبانه أن أبناءه وأحفاده سوف يسلوكون نفس الطريق. ويبدو هذا أمراً لا مفر

منه، حيث أن أي سلطة مركزية لا تتمكن من مقاومة الإغراء، وتتآكل المثابرة ببطء مع مرور الوقت.

قرر بانغن نقل العاصمة من أجل تغيير الوضع، قرر نقلها من شمال النهر الأصفر إلى جنوبه حيث المنزل القديم لتشنغتانغ، ولكن تعرض لمعارضة العديد من النبلاء والناس الذين كانوا لا يحبّون تغيير الوضع ويخشون من فقدان الحياة الهادئة والسعيدة. ولكن لم يتردد بانغن أمام الصعوبات وأقنعهم بصبر: سوف أقودكم للبحث عن حياة أفضل، والسماء ستعاقبكم إذا لم تتبعوني.

حذر بانغن الناس أيضاً بعد ذلك: أنا ثابت في قراري، وأولئك الذين لا يطيعون سيعاقَبون بشدة.

وأخيراً نقلت العاصمة إلى مدينة يين أي قرية شياوقانغ بمدينة آنيانغ بمقاطعة خنان في الوقت الحاضر، ولكن لم يتوقف استياء الناس وهم لم يتعوّدوا من البيئة الجديدة واستخدموا الفرصة لإثارة الفوضى، التي انتهت أمام الموقف الصارم لبانغن.

تحوّلت مدينة يين إلى مدينة حديثة مزدهرة تحت جهود بانغن بعد عدة سنوات، حيث شهدت مملكة شانغ تقدمات كبيرة في المجالات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية بشكل ملحوظ، ولم تنقل العاصمة من جديد في أكثر من 270 سنة بعد ذلك، ولذلك تدعى مملكة شانغ أيضاً باسم سلالة يينشانغ أو سلالة يين.

وتم استخراج دواء «عظام التنين» الذي اكتشفه وانغ يرونغ المريض في هذا المكان، حيث قد أصبحت مملكة شانغ ركاماً من الأنقاض واختفت في النهر الطويل للتاريخ. وكانت هذه الأنقاض مرتبطة بمملكة شانغ فهي تسمى أيضاً باسم «أنقاض يين»، حيث اكتشف الناس منها آثاراً ما تسمى بـ «نص العظام».

يمكننا تخيّل ازدهار مملكة شانغ في نص العظم، ويكمن فيه تاريخها.

منذ آلاف السنين، كان أهالي مملكة شانغ المؤمنون بالإله يحبّون استنجاد السماء قبل أداء المهام، مثل هل يمكنك القتال مع قبيلة أخرى؟ وهل هو مناسب إعلان الحرب عند شروق الشمس؟ وهل ستكون هناك رياح قوية؟ وكان الناس يحبون الكهانة في كل الأمور الكبيرة والصغيرة، وإن

عملية الكهانة جليلة ونبيلة حيث قاموا بفتح ثقوب في دروع السلاحف أو العظام الكتفية للوحوش، وتدخينها ببطء على النار الصغيرة.

ثم ظهرت على القوقعة والعظام خطوط سحرية مختلفة، حيث استنتج الناس منها إرادة الإله حول الحرب أم لا والانطلاق أم لا والرياح أم من عدمها، ثم نشقوا نتائج الكهانة على الدروع والعظام والحفاظ عليها بحذر وانتباه.

قد اختفى أهالي مملكة شانغ والسور القديم وأصوات القتال بعد آلاف السنين، ولكن بقيت الدروع والعظام عبر التاريخ، حيث يمكن للناس استعراض التاريخ الباهر لمملكة شانغ في الماضي.

بالإضافة إلى نص العظام، يمكن معرفة المملكة عبر الأواني البرونزية.

قد تراها في المتاحف الصينية، وهي أوان دقيقة الشكل وجميلة الزخارف على رأسها وعاء سيموو البرونزي المشهور، الذي يبلغ ارتفاعه 133 سنتيمتراً وطوله 166 سنتيمتراً ووزنه 875 كيلوغراماً، وهو رمز الأواني البرونزية في مملكة شانغ، وكيف صنع هذا الوعاء الضخم؟ وكم عاملاً شارك في صنعها؟ وهناك كذلك وعاء سيانغ البرونزي وهو دقيق للغاية ولامع وجميل الشكل، وما هي الأفكار التي تكمن وراء صنعه، كما هناك وعاء وجوه الإنسان البرونزي وعليه أربعة وجوه إنسانية وماذا هي تمثل؟

9

الحاكم القاسي جو

كان هناك رجل عجوز وولد صغير يعبران النهر قبل آلاف السنين.

ولا يختلف الشتاء في ذلك الوقت كثيراً عما هو اليوم، بل يشاركان في نفس البرودة والهدوء والثلوج المتساقطة، وكان النهر الذي يعبره الرجل العجوز والولد الصغير اسمه تشيشوي بجانب عاصمة مملكة شانغ مدينة تشاوغه، والمياه فيه باردة جداً وهما يعبرانه حافي الأقدام. ولا يبدو أن الرجل العجوز يخاف من البرد وهو مشى بسرعة، أما الولد فهو خاف من البرد ولف ملابسه بشدة وسار بحذر في الماء البارد.

أثار ذلك العبور العادي للنهر نزاعاً صغيراً بين شخصين جلسا على العتبة المرتفعة البعيدة، وقال أحدهما إن العجوز قوي الجسم وهو لا يخاف من البرد، أما الولد فهو ضعيف بالطبيعة الخلقية ولذلك هو يشعر بالبرد الشديد، والآخر رأى أن كلام الأول ليس له أي أساس على الإطلاق.

كان سوف ينتهي النزاع لو أن الشخصين عاديين، لكنهما ليسا كذلك. ومن أجل تحقيق النتيجة، فعلا أمراً قاسياً للغاية، وأمرا حراسهم بالقبض على العجوز والولد وقطع أرجالهما وعظامهما لإجراء التحقق، وأرقت دمهما على الفور.

لا يعرف ما إذا كان هذان الشخصان على صواب أم خطأ، لكن التاريخ قد تذكر ذلك الأمر وتذكر وحشيتهما. وعلينا أن نبدأ من الحاكم جو لمملكة شانغ.

ربما تبدأ أي سلالة مع الحاكم الحكيم وتنتهي في يدي الحاكم الطاغي.

كما هو الحال في مملكة شانغ، وهي تأسست بقيادة الحاكم تشنغتانغ، وامتدت لأكثر من 500 سنة وتعاقب عليها 17 حاكما حتى الحاكم جو في عام 1075 قبل الميلاد، وهو أحد الشخصين من

القصة المذكورة أعلاه، والآخر هو زوجته المدلّلة داجي. وفي التاريخ الصيني، قد أصبح جو وشياجي الممثلين للملوك الطاغين، وعلى غرار شياجي، انغمس جو في رغباته الخاصة والمتعة والقتل، وأدى إلى انهيار مملكة شانغ في نهاية المطاف.

على الطريق المؤدي إلى الانهيار، قد فعل جو شيئين رئيسيين.

أولهما هو التسلية.

قام جو بتجنيد الناس وتحويل العاصمة تشاوغه إلى مدينة ضخمة للتسلية في غضون عدة سنوات.

وأمر جو ببناء عتبة في قصره المهذب وه كانت مصنوعة من الأحجار الكريمة ويبلغ ارتفاعه حوالي 333 متراً، وصعد إلى العتبة مع زوجاته لمشاهدة المناظر في الأعياد.

في يونغتشياو، أنشأ جو مستودعا لتخزين المجوهرات والمواد الغذائية التي تم استحواذها في جميع أنحاء البلاد.

كما أمر جو ببناء حدائق في شاتشو وكانت فيها زهور ونباتات غريبة، فضلاً عن الحيوانات النادرة لاصطيادها في أيام الفراغ. ولم يكن ذلك كافياً، وربما كان الشيء الأكثر إبداعاً للحاكم جو هو بناء بركة الخمر وغابة اللحوم، حيث أمر بحفر بركة وملئها بالخمر، وأمر بتعليق اللحوم على أشجار الغابة بجانب البركة، لتناول الخمر واللحوم في نفس الوقت.

دلّل جو نفسه في المتعة والبذخ والتبذير على حساب رفاهية عامة الشعب. ويرتبط استقرار الحكم الطويل الأجل إلى حدّ كبير بقلوب الناس، ولا يمكن أخذ ثروات كثيرة من الشعب من أجل الحفاظ على الحكم الطويل الأمد، والحاكم مثل جو الذي استحوذ ثورات كل البلاد من أجل الرغبات الشخصية من المؤكد أنه سوف يقود البلاد إلى الانهيار. وأينما كان استغلال، كان هناك مقاومة، فبدأ الشعب مقاومة جو.

أمام الاحتجاجات الاجتماعية المستمرة، اضطر جو إلى فعل الأمر الثاني وهو القمع.

خلق جو عقوبة باسم عقاب المدفعية، حيث يجب على الناس غير المطيعين السير على الأسطوانة النحاسية فوق النار، وهم سوف يموتون بعد عدة خطوات. يقال كانت زوجته المدلّلة داجي مسرورة ومتحمسة في تلك اللحظات القاسية. وكان جو أو العديد من الحكام مثله قد يظنون أن الشعب لن يجرؤ على الاحتجاج أمام هذا العقاب، ولكن لم يكن في حسبانهم أنه كلما ازداد العقاب كلما انتهى الحكم بشكل أسرع.

وحذر بعض الوزراء الموالين أمام جو.

كان أولهم هو ويزي حيث كرر ملاحظاته أمام الحاكم جو آملا منه عدم الانحراف عن الطريق الصحيح والتخلي عن التصرفات القمعية، ولكن لم يأخذ جو في عين الاعتبار النصائح، وغادر ويزي متنهدا وهرب بابتسامة مرة، حيث لا يتحمل مشاهدة انهيار المملكة. ثم واصل الوزير بيغان تقديم النصائح بعد ويزي.

إن بيغان عم الحاكم وقال إنه كوزير سوف يستميت لتقديم النصائح، لكن نتيجته كانت محزنة للغاية، وقال جو أمام نصائح بيغان: سمعت أن قلب الحكيم يتكون من سبعة أجزاء فأريد أن أرى كم جزءا في قلب أنت الرجل الحكيم؟ ثم أمر بقتل عمه وفتح صدره وإخراج قلبه.

ومات بيغان بعد ذلك.

وكان آخر من قدم النصائح هو جيزي وكان مصيره أفضل بقليل من بيغان، حيث حُكم بالسجن فقط، حينما تم إقصاء الوزراء الثلاثة الأكثر إخلاصاً في مملكة شانغ، ولم يسمع جو أي نصيحة بعد ذلك، ولكن سمع صوت صعود مملكة تشو، وصوت قدوم جيش الأمير وو لمملكة تشو نحو عاصمة تشاوغه، وصوت القتال في المعارك.

كانت مملكة تشو هي التي أنهت حكم مملكة شانغ، ويجب ذكر شخص محتجز من قبل جو عند الحديث عن مملكة تشو.

10
اصطياد جيانغشانغ للأسماك بدون طعم الصيد

نعلم أن النزاعات لا مفر منه بين الناس.

وقد يكون النزاع صغيراً جداً، مثلاً الزراعة خارج حدود الحقول رغم مساحة صغيرة تتسع نباتات قليلة، وعلى سبيل مثال آخر بناء الحائط خارج حدود البيت ووضع مزيد من الأغراض في الزاوية، وتؤدي هذه التصرفات التي لم تأخذ بعين الاعتبار مشاعر أهل القرية والجيران إلى النزاع تلو الآخر.

قد يتشاجر ويلوم أصحاب النزاع، ولكن معظمهم يفضلون الوساطة من قبل أصحاب الصيت الذائع والإنصاف والمصداقية القوية، بمن فيهم أمير من أمراء عهد حكم جو لمملكة شانغ.

وهو الأمير جيتشانغ حاكم دويلة تشو، ويقال كان هناك نزاع بين رجل من دويلة يو ورجل من دويلة روي وتشاجرا دون التوصل إلى حل للنزاع فلجآ إلى الأمير جيتشانغ، وأصبحا هادئين فور دخولهما حدود دويلة تشو، وأصبحت خلافاتهما سخيفة ومملة أمام ما قد رأوا.

رأى الرجلان مشهد الدعم المتبادل بين الناس على الحقول في دويلة جو، وعدم التنافس والتشاجر على الطريق، وكان شعب دويلة تشو يحترم المسنين ويحبون الأطفال على أساس المودّة والمحبّة تحت قيادة الأمير جيتشانغ، مما جعل الرجلين يخجلان، ولم يكن في حسبانهما أن هناك التنازل والتواضع بين الناس، وهل هما حقاً بحاجة إلى حل نهائي لنزاعهما؟ تراجع الرجلان بهدوء بعد ذلك.

ذاع صيت الأمير جيتشانغ شيئاً فشيئاً بين جميع الدويلات، حيث لجأ إليه العديد من الحكماء رغم المسافة البعيدة، وازدادت قوة دويلة تشو باستمرار في وقت تراجعت مملكة شانغ تحت قيادة

الحاكم جو.

وأصبح جو قلقاً قليلاً.

خدع جو أقوى الأمراء الثلاثة وهم جيوهو وأوهو وجيتشانغ لجذبهم إلى عاصمة تشاوغه، وقتل الأميرين الأولين بأعذار مختلفة، ثم احتجز الأمير جيتشانغ وألقاه في السجن، ويقال إنه كان يكفر في الهبوط والصعود في حياته وتناوب الشمس والقمر عندما كان في السجن، وطوّر مخططات فوشي الثماني إلى المخططات الأربع والستين المتكونة من 384 فرعاً.

كان الابن الأكبر للأمير جيتشانغ لا يتحمل آلام والده فأتى إلى عاصمة تشاوغه بالكنوز والتحف، آملا رؤية والده، ولم يكن في حسبان أحد أن الحاكم جو الطاغي قتل الرجل وسحقه وأعطى بقاياه إلى الأمير جيتشانغ للأكل.

ماذا يمكن للأمير جيتشانغ أن يفعل وهو عرف أن ابنه الأكبر قد قتل؟ وليس له أي خيار إلاّ أكل بقاياه ومواصلة دراسة المخططات الثماني، وجعل هدوؤه الحاكم جو مطمئنا بشكل تام، وإطلاق سراحه بعد فترة وجيزة عندما أتى مسؤولو دويلة تشو بمزيد من التحف والكنوز.

حُتم أن خروج الأمير جيتشانغ أمر يؤدي إلى انهيار مملكة شانغ.

شرع الأمير جيتشانغ في وضع سلسلة من الإصلاحات فور رجوعه إلى دويلة تشو، حيث قام بتنمية الزراعة وتربية الأبقار والأغنام وحظر النبلاء من الصيد وتدمير المحاصيل، وبالطبع كان أهم شيء هو العثور على رجل حكيم لمساعدته، ولم يكن يعرف أن الحكيم الذي بحث عنه بجهود كبرى كان يصطاد الأسماك على شاطئ نهر ويشوي.

إن الحكيم الذي كان سيراه الأمير جيتشانغ اسمه جيانغشانغ أو زيا.

وهو كان بالفعل في الثمانين من عمره وأشيب الشعر في ذلك الوقت، والأكثر ما يعجبه هو صيد الأسماك بجانب النهر ويشي بهدوء، حيث كانت فروع الصفصاف تطفو على الماء وتتألق المياه مع أشعة الشمس الناعمة والدافئة. وفي الواقع، كان جيانغشانغ لا يريد الصيد أصلاً، وكانت السنانير مستقيمة وما كان عليها أي طعام للأسماك.

لم يجد جيانغشانغ أي فرصة لإظهار وتفعيل موهبته وكفاءته طوال حياته التي جمعت بين الصعود والهبوط، حيث سبق له العمل كتاجر في عاصمة تشاوغه. وفي السنوات الأولى، كان يأمل المساهمة في بناء مملكة شانغ، لكنه أصيب بخيبة أمل من وحشية الحاكم جو، فغادر العاصمة في سن الثمانين وجاء إلى دويلة تشو، آملاً العثور على حاكم حكيم لتحقيق طموحاته خلال الزمن القصير المتبقي في حياته، وهل كان الأمير جيتشانغ سيكون من يقدره؟ كان جيانغشانغ في الانتظار.

حان الوقت أخيراً.

قرر الأمير جيتشانغ الصيد يوماً من الأيام، وعرف من المخططات الثماني قبل السفر أن فريسته لن تكون التنين ولا الدب أو النمر، بل مساعد حكيم ووال، ثم انطلق بأمل ورأى جيانغشانغ الذي كان يصطاد الأسماك شمال نهر ويشوي، وما استغربه أن سنانير الصيد لهذا الرجل العجوز كانت فوق سطح المياه بمتر، وماذا هو يفعل؟ ثم تقدم إلى الأمام للدردشة معه.

واكتشف أنه رجل عليم وثاقب الرؤية، وهو مسرور جداً.

وقال الأمير جيتشانغ: قال سلفي تايغونغ في السابق إنه سوف يأتي رجل حكيم إلى دويلة تشو ويجعلها مزدهرة، فهذا الرجل هو أنت، وهو قد تطلع لك لفترة طويلة، وبهذا السبب أطلق الناس على جيانغشانغ لقب تطلع تايغونغ. وبعد ذلك، دعا الأمير جيتشانغ جيانغشانغ إلى الرجوع معه إلى دويلة تشو بالعربة.

كان جيانغشانغ وهو يحترم كالأستاذ الكبير ساعد الأمير جيتشانغ على تطوير الإنتاج وإعادة تنظيم الجيش وقهر العدو واستحواذ الأراضي، وأصبحت دويلة تشو متطورة في وقت قصير. وفي وقت لاحق، قام الأمير جيتشانغ بقيادة الجيش لقهر دويلة شومي القوية ودويلة تشوغ الأكبر مساحة في مملكة شانغ، حيث أسس العاصمة فونغيي. وفي غضون بضع سنوات فقط، شغلت مساحة دويلة تشو ثلثي كل البلاد، وأصبح نجاح الدويلة لإسقاط مملكة شانغ متوقعاً.

غير أن الأمير جيتشانغ فارق عن الحياة قبل تحقيق الهدف، وهو سلّم المهمة إلى ابنه جيفا قبل وفاته وطلب منه تحقيق هدف إسقاط مملكة شانغ.

11
محاربة الأمير وو للحاكم جو

سقطت مملكة شانغ في حريق كبير.

وكان من أشعل النار هو حاكمها جو، حيث اضطر إلى فعل ذلك بسبب الأمير وو من دويلة تشو، أي ابن الأمير جيتشانغ جيفا، وهو تسلّم عرش والده ومنح والده لقب الحاكم وين، وعيّن جيانغشانغ كمدرسه وعيّن أخاه الأصغر غونغدان كرئيس الوزراء، وقام بنشاط بإعادة تنظيم شؤونه الداخلية وتعزيز القوة العسكرية استعداداً لمحاربة الحاكم جو.

قبل الحملة العسكرية رأى الأمير وو ضرورة معرفة مواقف الدويلات الأخرى.

ثم دعا مختلف الأمراء إلى الاجتماع في مدينة جينمنغ لمناقشة هذا الأمر الكبير. وفي طريقه إلى المدينة في العام التالي، كان هناك سمكة بيضاء قفزت إلى داخل باخرته عندما كان يعبر النهر. وبعد ترابط جنوده على ضفة النهر، سقطت مجموعة من النيران من السماء على سطح مسكنه في ضوضاء عالية وتحولت النيران إلى غراب أحمر. فماذا يعني كل هذا؟

عندما وصل الأمير وو إلى مدينة جينمنغ، كان هناك 800 حاكم لمختلف الدويلات ينتظرونه للاجتماع منه.

وكان الجميع يستعد للانضمام إليه لمحاربة الحاكم جو، لكنه رأى أن الوقت لم يحن بعد وقرر عدم شن الهجوم.

في حوالي القرن الحادي عشر قبل الميلاد، عرف الأمير وو أن الحاكم جو يزداد وحشية حيث قتل أو طرد الوزراء الموالين وبلغ ذروة الوحشية، وحان الوقت للقتال.

لذلك أعلن الأمير وو للأمراء أن مملكة شانغ طاغية وعنيفة للغاية ولا يمكنها إلاّ إرسال قوات لمحاربتها.

وفي عام 1046 قبل الميلاد، قاد الأمير وو ثلاثمائة عربة وثلاثة آلاف جندي وأربعة وخمسة آلاف جندي مدرع وتقدم نحو الشرق. ولكن في يوم الانطلاق، أوقفه رجلان مسنان في الطريق وقالا: هل الرجل رجل بار ولم يدفن جسد والده بعد الموت؟ وهل الأمير أمير موال وهو سيقتل حاكمه؟ حاول حراس الأمير وو قتل الرجلين بمجرد سمع هذا الكلام، لكن جيانغشانغ منع ذلك قائلاً إن الرجلين صالحان ويكفي طردهما دون القتل.

عبر الأمير وو النهر الأصفر ووصل إلى مدينة جينمنغ.

واجتمع مرة أخرى مع مختلف الأمراء حيث أعلن رسمياً الجرائم التي ارتكبها الحاكم جو وطلب من الجميع محاربته. ثم انطلق الجيش المشترك من المدينة نحو عاصمة تشاوغه تحت قيادة الأمير وو، ووصل إلى مكان يبعد عن العاصمة بحوالي 35 كيلومتراً فجر يوم من الأيام في فبراير.

كان الحاكم جو خائفاً جداً عند معرفة أن الأمير وو قد قاد 800 دويلة للتقدم نحو عاصمة تشاوقه، واستيقظ من تلك الأغنية والرقص والمآدب، واستدعى على الفور جميع المسؤولين لمناقشة كيفية مواجهة الهجومات، ولكن قد قتل جميع الوزراء الموالين، ولم يبق إلاّ أصحاب الإغراء والعجز.

ومن أجل توسيع جيشه، اضطر الحاكم جو إلى تجنيد عدد كبير من السجناء لينضموا إلى جيشه البالغ عدد جنوده 700 ألف في النهاية، وقادهم بنفسه للخوض في القتال، وكان لم يتجاوز عدد جنود الأمير وو 60 ألف، لكن كلهم مليء بالطاقة والهمة والجدية.

هكذا دشّنت معركة هويه الشهيرة في التاريخ.

طلب الأمير وو من جيانغشانغ قيادة 100 محارب باسل لمواجهة الحاكم جو بالعربات، وكان جنوده يقاتلون بشجاعة، في حين أن جيش الحاكم جو المتشتت لم يكافح ولم يكن لديه همة وجدية، بل تطلع نجاح جنود الأمير بسرعة، وقادهم بالتالي في التقدم نحو العاصمة للقتال مع الحاكم جو، ولماذا يجب القتال من أجله وهو تعامل معهم بوحشية؟

أدرك الحاكم جو أن النجاح قد فاته بالفعل وهرب من العاصمة.

أمر جيانغشانغ الجيش بالتقدم المستمر حتى العاصمة تشاوغه، ورجع الحاكم جو إلى العاصمة ووجد أنه كان هناك بضع مئات فقط من الأتباع المتبقين، وعرف أن أيامه الأخيرة قد جاءت وأن مملكة شانغ تشارف على النهاية. غير أنه كحاكم عليه أن يموت بكرامة فارتدى ملابسه الفاخرة وصعد إلى المنصة المذهبة وأضرم النار في نفسه.

سقطت مملكة شانغ القديمة في جو يسوده الحزن في النيران الملتهبة، وبدأت مملكة جديدة في الوقوف.

كان الناس في العاصمة تشاوغه متحمسين ومسرورين جداً بمجرد معرفة إضرام الحاكم جو النار على نفسه، وهتفوا وشكروا الأمير وو على إنقاذهم من السيطرة الاستبدادية للحاكم وو.

وهكذا أسقط الأمير وو مملكة شانغ.

تم تنظيف الفناء القديم والخطوة التالية هي الترحيب بالضيف الجديد، وقام الحاكم وو ببناء مدينة جديدة تدعى قاوجينغ تبعد عن العاصمة القديمة 12.5 كيلومتر في الضفة الشرقية لنهر بانغشوي، وهي الآن مدينة شيآن في مقاطعة شانشي، ونقل الحاكم وو العاصمة إلى المدينة الجديدة لتدشين التاريخ لمملكة تشو.

من أجل ترسيخ أساس الحكم، خصص الحاكم وو الأراضي التي استحوذها في المعارك إلى الأقارب والمسؤولين.

وعيّن الشقيق الأصغر للحاكم وو دان أمير دويلة لو، وعين شقيقه الآخر قونغبي أمير دويلة يان، وعين جيانغشانغ الذي أدى دوراً رئيسياً في محاربة الحاكم جو أمير دويلة تشي. وبعد مرور عامين، توفي الحاكم وو وتسلم الحاكم تشنغ العرش وواصل في تخصيص الأراضي بين حوالي 70 من الأقارب والمسؤولين.

كان هذا النوع من تخصيص الأراضي يسمى «الإقطاعية» في التاريخ الصيني، وانتشرت في مملكة تشو دويلات في كل أنحار البلاد وعاصمتها المشتركة هي مدينة قاوجينغ، وحاكم المملكة

الزعيم المشترك لجميعها، وكان الأمراء يحكمون الدويلات الخاصة بهم ويجب عليهم الامتثال لأوامر حاكم مملكة تشو وتقديم الجزية إليه بانتظام.

12

مساعدة جوقونغ على الحكم

من غير الصحيح القول إن مملكة شانغ قد سقطت بعد ذلك.

ورغم إضرام الحاكم جو النار على نفسه على المنصة الذهبية، كان لديه ابن يسمى ووقن، ومن أجل تهدئة فلول مملكة شانغ، عين الحاكم وو ووقن أمير دويلة يين ومدينتها الحاضرة تشاوغه، وعين ثلاثة من أشقائه جيشيان وجيدو وديتشو أمراء الدويلات المحيطة بمدينة تشاوغه لمراقبة ووغن. وكان الأمراء الثلاثة يشرفون على دويلات قوان وتساي وخه، فسمّاهم ابن الحاكم وو الحاكم تشنغ عم قوان وعم تساي وعم خه. وكان فلول مملكة شانغ على وشك إعادة السلطة بعد ذلك.

فماذا حصل بالفعل؟

توفيّ الحاكم وو في عام 1043 قبل الميلاد، وتسلّم العرش ابنه جيسونغ أي الحاكم تشنغ الذي كان في 13 من عمره. وطلب الحاكم وو قبل وفاته من شقيقه الأصغر دان المعروف باسم الأستاذ جوقونغ مساعدة ابنه على الحكم. وسلّم الأخير حكم دويلة لو إلى ابنه، وهو بقي بجانب الحاكم تشنغ لإدارة الشؤون السياسية بكل ما كان في وسعه.

حذّر جوقونغ ابنه قبل مغادرة الأخير إلى دويلة لو، قائلاً إنني ابن الحاكم وين والشقيق الأصغر للحاكم وو وعم الحاكم تشنغ، ولديّ منصب سامي، ولكن من أجل العثور على الحكماء، عليّ إدارة الشؤون الطارئة حتى ولو كنت أغسل شعري، وفي بعض الأحيان عليّ اللقاء مع الحكماء إذا زاروني حتى ولو كنت أتناول الطعام ولم أبتلعه بعد، ومع ذلك ما زلت أخشى أن تفوتني الفرصة للعثور على الحكماء، وبعد وصولك إلى دويلة لو، لا يمكن لك إهمال الآخرين على الإطلاق بسبب أنك أمير الدويلة.

كرّس جوقونغ نفسه في خدمة البلاد قلباً وقالباً، ولكن من لا يتفهمه.

حيث حسده شقيقاه الصغيران قوان وتساي، وقال الرجلان إنه يريد استحواذ العرش نفسه بكل ما فعله، ونشرا الإشاعات في كل الأماكن، مما أثار تساؤلات الناس، بمن فيهم الأمير بي الموثوق به للغاية من قبل جوقونغ.

رغم الحزن الشديد في قبل جوقونغ، قرر مواصلة إدارة الشؤون السياسية كالمعتاد، وقرر في نفس الوقت زيارة الأمير بي، قال بعد لقائه إن مساعدتي للحاكم تشنغ على الحكم قلباً وقالباً ليس بسبب الأجندة والطموحات الخاصة، بل بسبب أمنيتي لإنجاز بناء مملكة تشو كمملكة قوية، من فضلك لا تصدّق الإشاعات على الإطلاق.

أثّر هذا الكلام الصادق والمخلص الأمير بي وأزال سوء التفاهم بينهما، ولكن لم يهدأ الأمر بعد، حيث تعاون قوان وتساي مع ووقن أمير دويلة يين وبعض النبلاء القدامى لمملكة شانغ فضلاً عن بعض القبائل الشرقية في التحضير للتمرد على مملكة تشو.

في ظل هذا الوضع، طلب جوقونغ من جيانغشانغ محاربة القبائل الشرقية، وهو نفسه قاد الجيش الكبير للتصدّي للقوات المتمرّدة تحت قيادة ووقن، ونجح في ذلك وقتل الأخير بعد ثلاث سنوات من الحرب الشرسة. وكان قوان يعرف أن فرصته قد فاتته فقتل نفسه.

رغم الجهود البشرية والمادية الكبرى لمحاربة المتمردين، ترسّخ حكم مملكة تشو كثيراً، ورأى جوقونغ أن سبب تمرد ووقن هو عجز قوان وتساي وخه في الالتزام بمسؤولياتهم، فأمر بطرد تساي وإقصاء خه من منصبه، عيّن ويزيكاي أمير دويلة يين ومدينتها الحاضرة سونغ.

ألقى جوقونغ القبض على عدد من النبلاء القدامى لمملكة شانغ أثناء تقدمه نحو الشرق، ومن أجل منع إعادة تمردهم والسيطرة على الأراضي التي تمّ استحواذها من مملكة شانغ، قرّر جوقونغ بناء عاصمة جديدة وهي مدينة لويي، أي مدينة لويانغ بمقاطعة خنان في الوقت الحاضر. وبعد إنجاز بناء العاصمة الجديدة، أمر جوقونغ بتهجير السكان القدامى لمملكة شانغ وإعادة توطينهم هناك، وبعث حوالي 20 ألف جندي للترابط هناك من أجل مراقبة السكان. ومنذ تلك الفترة، لدى مملكة تشو عاصمتان أحدهما مدينة قاوجينغ في غرب البلاد والأخرى مدينة لويي في شرقها.

ازدادت مصداقية جوقونغ في قلوب الناس بعد القضاء على المتمردين يوماً بعد يوم، لكنه لم يمسك بالسلطة في يده وأعلن عندما بلغ الحاكم تشنغ 20 سنة في عمره أن الحاكم هو نفسه سيدير الحكم وستتم معاقبة غير المطيعين، ثم غادر جوقونغ عاصمة قاوجينغ وتحرك إلى عاصمة لويي.

توفيّ جوقونغ بعد وقت قصير منذ وصوله إلى عاصمة لويي.

13
أعمال الشغب في مملكة تشو

توفي الحاكم تشنغ في عام 1021 قبل الميلاد وتسلّم ابنه جاو الحاكم كانغ العرش.

استمر الحاكم الجديد في استخدام أساليب جده ووالده في حكم البلاد، ونتيجة لذلك، كانت البلاد مسالما وآمنا ولم تستخدم العقوبة لأكثر من 40 عاما، وعاش الشعب في وئام وأمان وسعادة، وبطبيعة الحال لم يرتكب أي جرائم. بلغت مملكة تشو ذروة الازدهار في عهد الحاكم تشنغ والحاكم كانغ، فتسمى فترة حكمهما حوكمة تشنغكانغ، غير أن الازدهار لم يدم طويلا، وبدأت المملكة أن تتراجع بعد ذلك.

من أجل الحفاظ على الحياة الباهظة، يقوم النبلاء باستغلال الشعب، وإذا تم استغلاله أكثر من اللازم، سوف يقاوم الشعب، ومن أجل قمعه، سوف يتبنى النبلاء العديد من العقوبات القاسية ضده. ويقال إنه عندما تم تمرير عرش المملكة إلى الحاكم مو، قام الحاكم بوضع 3 آلاف عقوبة جنائية، بما في ذلك الوشم على الجبين وقطع الأنف وقطع القدم. إن العقوبة تشبه إلى حد كبير أقفاص الصيد، وكلما ازدادت كثافتها وانتشارها، كلما ازدادت مقاومة الشعب. ولذلك، أصبح انعدام استخدام العقوبات لأكثر من 40 سنة في عهد الحاكمين تشنغ وكانغ صفحة في التاريخ.

كان الحاكم العاشر لمملكة تشو لي هو حاكم طاغ معروف، حيث قد فعل شيئين.

أولهما هو السعي وراء الثروة، فماذا سيفعل الحاكم ولديه السلطة في يديه ويحب مزيداً من الثروة؟ إن أبسط نهج هو استغلال الشعب، وكان الشعب حياته صعبة للغاية، حيث استيقظ مبكرا وينام متأخرا، وعمل بجد للزراعة والصيد والاصطياد وقطع الخشب وصنع الأواني الفخارية وبيعها في السوق، وكل ذلك من أجل الحياة. غير أن الحاكم لي أعلن الجبال والأنهار كانت جميعها مملوكة له.

كان يجب على الناس دفع مبلغ معين من المال إذا أرادوا الصيد في الغابة والبحيرة أو قطع الخشب، وإذا رغبوا في بيع الأسماك والخشب والمواشي والأواني الفخارية التي نالوها أو صنعوها بأنفسهم، عليهم كذلك دفع مبلغ معين من المال.

بهذه الطريقة سيطر الحاكم لي على الجبال والأنهار ومعاملات السوق لاستغلال ممتلكات الشعب باستمرار، وكانت تلك الطريقة مطروحة أصلاً من قبل الوزير المفضل لدى الحاكم، وصف هذه الطريقة بأنها «براءة اختراع»

في سعي الحاكم لي وراء الثروة، فكيف ينبغي للناس البقاء على قيد الحياة؟

نتيجة للحياة الصعبة، كثرت الأحقاد والشكاوى واللوم في قلب الشعب، حيث عبّر عن استيائه في الشارع والسوق وفي الدردشة، واجتمع وانتشر هذا الصوت باستمرار، ثم دخل إلى أذني الوزير خو.

كان الوزير خو رجلاً مستقيماً جداً، وتقدم إلى الحاكم لي وقال إن الشعب سوف يتصدى للمقاومة والاحتجاج في حال استمرار الأوامر والسياسات الحالية.

غير أن الحاكم لي تجاهل هذا الصوت وقال إن الشعب هو أسهل من للتعامل معه.

كان الحاكم لي يجلس في عرشه العالي وينحني للنظر في شعبه ويرى أنه محتقر مثل النمل، غير أن مناقشة الشعب المحتقر أزعجته على كل الأحوال. لذلك فعل الشيء الثاني وأصدر مرسوماً يحظر على الناس التعليق على شؤون الدولة، وفي الوقت نفسه أمر بمراقبتهم ليلاً ونهاراً، وقتل المخالفين لهذا المرسوم على الفور.

كانت هذه حملة القمع فعالة في البداية، حيث اختفت مناقشة الناس بعد قتل بعض المخالفين، ولم يعد هناك أي شخص يجرؤ على المناقشة في الشارع والسوق، وما عدا صوت الطيور والرياح، كانت البلاد هادئة جداً، حيث عندما التقى رجلان على الطريق، نظر ببساطة إلى بعضهما البعض، ثم واصل في المشي بدون أي توقف.

اختفى الصوت، ولكن أين المشاعر الساخطة؟ بالتأكيد تتراكم ببطء في صمت وسوف تنفجر في يوم من الأيام وتسقط كل الأشياء. وكان الحاكم لي راضياً من فعالية المرسوم، واستدعى على

وجه التحديد الأمير خو بفخر، قائلاً «ترى إن مرسومي فعال ولم يجرؤ أحد على التحدث كما يشاء.»

كيف لم يعرف الأمير خو التيار الذي كان يكمن وراء صمت الشعب، وقال للحاكم لي مع القلق إن المرسوم غير مقبول، شأنه شأن بناء سد في حال وجود الفيضانات، وإذا فاضت على السد فستغرق الكثير من الناس، فكيف يمكنك منع الناس من المناقشة بطريقة الوقاية من الفيضانات؟ ويجب تمرير المجرى وتوجيه المياه إذا أردنا السيطرة على الفيضانات، كما هو الحال في حكم الناس، ويجب الاستجابة باستمرار لآراء الناس والسماح لهم بالتعبير عن آرائهم، والآن قد حجبت أفواه الناس، الأمر الذي سيسبب مشاكل بالتأكيد.

عندما استمع الحاكم لي إلى كلام الأمير خو، لم يكن راضياً فطرده بعيدا.

منذ ذلك الحين ازداد طغيان الحاكم لي. وبعد ثلاث سنوات أي في عام 841 قبل الميلاد، اتحد المدنيون في الحضر والعبيد في الريف للقيام بأعمال شغب واسعة النطاق، وهرعت الحشود الغاضبة إلى القصر الملكي مستعدةً لقتل الحاكم لي، غير أن الأخير قد هرب إلى جيدي أي محافظة خو بمقاطعة شانشي الآن. ولم يجده الناس في القصر، وعندما علموا أن ابنه كان مختبئا في منزل الأمير خو، هرعوا إلى مقر الأخير وطلبوا منه تسليم ابن الحاكم.

بعد تكرار التفكير، سلم الأمير خو الموالي للمملكة ابنه بالدموع من أجل إنقاذ ابن الحاكم.

ما كان العمل وإن الحاكم لي هرب وابنه اختبأ وليس للبلاد حاكم؟ قرر الوزراء بعد التشاور إدارة الأمير خو وجوقونغ لصلاحيات الحاكم وحكم البلاد بشكل مؤقت.

هذه هي الإدارة الجمهورية الشهيرة جداً في التاريخ.

في السنة الرابعة عشرة من الإدارة الجمهورية، توفي الحاكم لي ولم تعد له أي فرصة للتمتع بثروته عبر استغلال الشعب. وساعد الأمير خو وجوقونغ ابن الحاكم لي الحاكم شوان على تسلم العرش. وبذل الحاكم شوان قصارى الجهود من أجل إنقاذ مملكة تشو الساقطة. وفي عام 1843، تم اكتشف وعاء برونزي يسمى وعاء ماوقونغ في مدينة تشيشان بمقاطعة شنشي، وهو كان منقوشا بما يقرب من 500 كلمة وصفت حرص الحاكم شوان على النهوض بمملكة تشو، وشوقه لازدهار

المملكة في عهد الحاكم وو، وأمله لمواصلة حكم المملكة. ولكن بعد أعمال الشغب في عهد الحاكم لي، بدأت مملكة تشو على وشك الانهيار.

وكان من يساهم في سقوط المملكة هو الحاكم يو الذي تلاعب مع الأمراء بدخان الإنذار.

14
التلاعب بالأمراء بدخان الإنذار

سقطت مملكة شانغ في نار مستعرة، كما هو الحال مع مملكة تشو.

على الرغم من أن الحاكم شوان حاول إنقاذ مملكة تشو وإعادتها في طريق الازدهار، لكنه فشل في ذلك، وتوفي في عام 782 قبل الميلاد، وتسلم عرشه الحاكم يو وهو حاكم أحمق وطاغ معروف في تاريخ الصين، وأنهى حكم مملكة تشو في دخان الإنذار بعد 10 سنوات من وصوله إلى سدة الحكم.

ولماذا سقطت المملكة في دخان الإنذار؟

كان السبب أن المملكة شيدت أكثر من 20 برجا للإنذار في جبل ليشان بالقرب من عاصمة قاوجينغ أي المنطقة في الجزء الجنوبي الشرقي من مدينة لينتيونغ بمقاطعة شنشي الآن، وذلك من أجل منع الاعتداء من قبل قبيلة تشوانرونغ القوية، وكانت الأبراج طويلة ومرتفعة للغاية وهناك واحد كل بضعة كيلومترات.

كان هناك فضلات الذئاب أو الحطب في الأبراج، ويجب على الجنود المترقّبين فيها إشعالها فوراً إذا وجدوا اعتداء القبيلة، على إشعال فضلات الذئاب في النهار لكي يطير الدخان، وإشعال الحطب في الليل لكي تتصاعد النار، والجنود في البرج الثاني سوف يشعلون فضلات الذئاب أو الحطب بمجرد رؤية الدخان أو النار من البرج الأول، هكذا تنتقل الإشارات بين الأبراج لكي يعرف الأمراء أن العاصمة في خطر وهي بحاجة إلى المساعدة.

ولماذا أمر الحاكم يو بإطلاق دخان الإنذار؟ يجب أن نبدأ الحديث من حسناء جميلة لا نظيرة لها.

انغمس الحاكم يو في الخمر والمتعة بعد وصوله إلى سدة الحكم وأهمل شؤون الدولة، مما أثار استياء العديد من الوزراء، بمن فيهم الوزير الموالي باوشيانغ ونصح الحاكم بأن يأخذ الشؤون الوطنية كأولوية.

أصبح الحاكم يو غاضباً جداً واحتجز الوزير وتركه في السجن، وكانت عائلة الوزير قلقة للغاية وتوصلت إلى حل لإنقاذه، حيث اشترت امرأة جميلة جداً بأموال باهظة وسمتها باوسي وعلّمتها كيفية الرقص والغناء، وقدمتها إلى الحاكم يو.

كان الحاكم يو مسروراً للغاية بمجرد رؤية باوسي وأطلق سراح الوزير على الفورِ.

وانجذب الحاكم يو بعمق بجمال باوسي منذ النظرة الأولى، لكن الأخيرة لم تبتسم قط منذ دخولها إلى القصر الملكي، مما يجعل الحاكم يثق بأنها سوف تكون أجمل من الزهرة الزاهية لو ابتسمت.

لهذا السبب شعر الحاكم بالضيق الشديد، وأصدر أمرا يقول إنه إذا كان بإمكان أي شخص أن تجعل باوسي تبتسم، فسيتم مكافأته بأموال كثيرة. وتحت المكافأة، دائما هناك محارب، مثل الوزير «قوشيفو» المتملق الذي بذل قصارى جهده للتوصل إلى تكتيك وعرضه على الحاكم.

فما كان هو التكتيك؟ أي إطلاق دخان الإنذار المذكور أعلاه، حيث حاول قوشيفو استخدام هذه الطريقة لخداع الأمراء والفوز بابتسامة باوسي عندما هي ترى حالة الذعر والقلق للأمراء. وكان الحاكم يو الأحمق قدّر ذلك التكتيك تقديرا عالياً، وقرر تنفيذه.

بعد وقت قصير، زار الحاكم يو مع باوسي جبل ليشان، وأمر بإشعال الحطب وطرق الطبول في الليلة، واستعلت النار على الفور وتتصاعد نحو السماء في صوت الطبل الهائل، وهرع الأمراء من مختلف الأماكن على العربات المحاربة، ولكن لم يجدوا عناصر قبيلة تشوانرونغ بعد وصولهم، بل وجدوا الحاكم وباوسي، وعرفوا أنهم قد خدعوا فرجعوا غاضبين.

ابتسمت باوسي ورأت أن الأمراء جاؤوا قلقين وغادروا غاضبين، مما جعل الحاكم يو سعيداً جداً، وأمر بإطلاق الدخان والنار عدة مرات بعد ذلك، وفقدت الأبراج فعاليتها تدريجياً، ولم يكن الأمراء يؤمنون بها.

حصل قوشيفو على المكافأة بسبب تلك الابتسامة. وفي وقت لاحق، أنجبت باوسي للحاكم ولدا يدعى بوفو، مما ازداد حب الحاكم لها، واستعد لطرد زوجته الإمبراطورة شن وابنهما ييجو، وأعطى منصب الإمبراطورة لباوسي ومنصب الحاكم القادم لبوفو.

كان والد الإمبراطورة أمير دويلة شن غاضباً جداً بعد معرفة الخبر، وتعاون مع قبيلة تشوانرونغ لشن الهجوم على عاصمة قاوجينغ في عام 771 قبل الميلاد، واستعجل الحاكم يو في الأمر بإطلاق دخان الإنذار، ولكن لم يأت الأمراء الذين قد فقدوا ثقتهم بالحاكم يو.

نجحت القبيلة في استحلال العاصمة بسهولة وقتلت الحاكم يو وابنه بوفو واحتجزت باوسي ونهبت العديد من الكنوز، وعند معرفة الأمراء لحقيقة الأمر، قد غادر جنود القبيلة مع غنيمتهم.

قد قُتل الحاكم يو فلا يمكن حكم البلاد دون حاكم، وتشاور الأمراء وقرروا تسليم العرش إلى ابن الإمبراطورة الحاكم بينغ. وبعد وصوله إلى سدة الحكم، هاجمت قبيلة تشوانرونغ العاصمة عدة مرات، ولم يتمكن الحاكم الضعيف من المقاومة واضطر إلى الانتقال إلى العاصمة الأخرى مدينة لويي في عام 770 قبل الميلاد. وكانت عاصمة قاوجينغ في غرب البلاد، فتسمى المملكة مملكة تشو الغربية قبل نقل العاصمة، أما عاصمة لويي فهي في شرق البلاد، وتسمى المملكة مملكة تشو الشرقية بعد نقل العاصمة.

بدأت فترة حكم مملكة تشو الشرقية من عام 770 قبل الميلاد إلى عام 256 قبل الميلاد، وتتكون تلك الفترة من مرحلتين أي فترة الربيع والخريف وفترة الدويلات المتحاربة. وفي فترة الربيع والخريف، على الرغم من أن حاكم مملكة تشو ما زال الحاكم المشترك للبلاد، في الواقع لم تعد المملكة المتدهورة متمكنة من السيطرة على الدويلات بعد نقل العاصمة.

تصاعدت الدويلات مع تراجع مملكة تشو، وتحارب بعضها مع البعض للهيمنة على الأخرى، وأصبحت بعضها قوية تدريجياً بعد احتلال الدويلات الصغيرة. وفي فترة الربيع والخريف، ظهر خمسة أمراء مشهورين في البلاد والمعروفين باسم «أمراء الربيع والخريف الخمسة»، وكان أولهم أمير هوان لدويلة تشي.

15
الصداقة بين باوشويا وقوان جونغ

بالحديث عن أمير هوان لدويلة تشي، لا بد من ذكر قوان جونغ.

كان قوان جونغ معروفاً أيضاً باسم قوان ييوو وزيرا مشهوراً، حيث احترمه جو قهليانغ المعروف لدى الصينيين وقال إن نفسه مثل قوان وله، ويشار قوان هنا إلى وقوان جونغ، أما مزيد من التفاصيل عنه، فسيتم ذكرها في قصة أخرى.

برز أمير هوان لدويلة تشي من بين العديد من الأمراء ليصبح أول أمير مهيمن في فترة الربيع والخريف بفضل مساعدة جوان جونغ، حيث دعم الرجلان بعضهما البعض. ولكن في البداية، كان غوان جونغ على وشك قتل الأمير هوان بالسهام، فماذا حدث بينهما؟

دعونا نواصل القصة.

كانت دويلة تشي تقع في منطقة شاندونغ الساحلية وهي غنية بالموارد، لكن الموارد الغنية لم تكف لجعل دويلة تشي مهيمنة على الأخرى، بل هي أصبحت قوية في نزاع حول العرش، مما غيّر مصيرها بشكل تام. وكانت دويلة تشي محكومة تحت الأمير شيانغ الأحمق والطاغي، وهو قتل من قبل الآخرين بعد وقت قصير من وصوله إلى سدة الحكم. ليس له أي نجل، بل له شقيقان أحدهما جيو وهو كان في دويلة لو أي منطقة تشوفو بمقاطعة شاندونغ الآن، والآخر شياوباي في دويلة جو أي محافظة جو بمقاطعة شاندونغ الآن، وكان أستاذ الأول قوان جونغ وأستاذ الأخير باو شويا.

وكان الأستاذان صديقين عزيزين حيث عرف كل منهما الآخر بشكل جيد.

وتسمى العلاقات بينهما «الصداقة بين قوان وباو»، ويقال إن قوان مارس التجارة مع باو وأخذ ربحا أكثر منه كل سنة، ورأى بعض الناس عدم المساواة بالنسبة إلى باو، لكنه قال إن قوان لا

يحب الأموال بل هو فقير. كما أن باو لم يتهم قوان الذي تعاون معه ولم ينجح في مهامه. وكان قوان يُطرد من مناصبه الإدارية ثلاث مرات بسبب الأداء الفاشل، وقال الناس إنه رجل فاشل، ولكن فسّر باو أن قوان ليس رجلا فاشلا بل هو لم يجد فرصة بعد لإظهار كفاءته. وهرب قوان من جبهة المعركة ثلاث مرات عندما كان جندياً، وسخر الناس منه وقالوا إنه رجل جبان، ولكن رأى باو عكس ذلك وقال إن قوان بحاجة إلى رعاية والدته في المنزل.

تسامح باو مع قوان على هذا النحو وهو عرف أن قوان صاحب الكفاءة وسوف يتفتح يوماً من الأيام مثل زهرة زاهية.

ما إن علم جيو وشياوباي أن الأمير شيانغ قد قتل، حتى سارعا في الرجوع إلى دويلة تشي لتسلم العرش، ولكن لا يوجد سوى عرش واحد فمن وصل أولا يتسلمه.

فهرع الرجلان إلى عاصمة دويلة تشي.

وفي ذلك الوقت قاد الأمير جوان لدويلة لو بنفسه الجيش لمرافقة جيو في طريق العودة، كان قوان لا يزال خائفا من التخلف فخطرت في باله وسيلة وهو قاد فريقا من الجنود للتقدم إلى الطريق الذي يربط بين دويلة جو ودويلة تشي لاعتراض شياوباي، وعندما رآه في الطريق، أطلق سهاما عليه.

صرخ شياوباي بشكل حزين ونزفت دماؤه وسقط في العربة.

ظن قوان أنه قد مات فأخبر جيو، واطمئن جيو وتقدم إلى عاصمة دويلة تشي ببطء تحت حراسة الجيش الوطني. ولكن سرعان ما سيجد أنه قد انخدع.

في الواقع كان السهام فقط ضرب الخطافات التي ارتداها شياوباي، ومن أجل تشويش قوان ادعى أن يموت وسارع في التقدم نحو دويلة تشي، حيث حصل على دعم الوزير قاوشي وتسلم العرش وأصبح أمير هوان.

أمر الأمير هوان بإرسال القوات على الفور لمحاربة دويلة لو، وبعد فوزه في المحاربة، طلب من الأمير جوان قتل جيو، وإرجاع غوان الذي أطلق السهام عليه إلى دويلة تشي في عربة

الأسرى. كانت دويلة لو الضعيفة لم تكن قادرة على المقاومة فخضعت أمام مطالب دويلة تشي وقتلت جيو وأرسلت قوان إلى دويلة تشي.

كان الأمير هوان يريد الانتقام وقتل قوان، ولكن قال باو شويا إنه محظوظ لمرافقته ومساعدته على الوصول إلى سدة الحكم لدويلة تشي، لكنه غير قادر على جعل الأمير أكثر شرفا من ذلك، وإذا أراد الأمير حكم كل البلاد فلا يمكن تحقيق ذلك إلاّ بمساعدة قوان، ودائما تزدهر الدويلة التي هو موجود فيها.

ونتيجة لذلك تخلّى الأمير هوان عن الانتقام وعيّن قوان كرئيس الوزراء وسلّمه سلطة إدارة الدولة.

لم يخيّب قوان أمل الأمير هوان، وهو استفاد من الموقع الجغرافي الممتاز لدويلة تشي وقام باكتشاف الموارد وعمل الملح من مياه البحر، وتشجيع الناس على صيد الأسماك في البحر وبيعها إلى بلدان أخرى. تدريجياً، أصبحت دويلة تشي أكثر ازدهارا.

كان قوان يعلم أن الأمير هوان يريد السيطرة على جميع الأمراء، ومن أجل تحقيق هذا الطموح، وضع سياسة متمثلة في احترام العائلة الملكية لمملكة تشو ومقاومة العدوان الخارجي، وقال للأمير هوان إن دويلة سونغ شهدت اضطرابات قبل مدة وجيزة ولم يمض وقت طويل على وصول الأمير الجديد إلى سدّة الحكم، فيمكنك التقدم بنصيحة إلى حاكم المملكة وتطلب منه إعلان حلك لمحل أمير دويلة سونغ، لذلك يمكنك جمع وقيادة الأمراء.

فعل الأمير هوان كما قال قوان وأمر الحاكم شي لمملكة تشو آنذاك بمحاربة دويلة سونغ بقيادة الأمير هوان. وفي عام 681 قبل الميلاد، دعا الأمير هوان جميع الأمراء للاجتماع في مدينة بيشينغ أي شمال محافظة دونغأه بمقاطعة شاندونغ الآن.

وتم انتخاب الأمير هوان رئيساً لجميع الأمراء في هذا الاجتماع، وهو بدأ في السير على طريق الهيمنة منذ ذلك الحين.

16
هيمنة الأمير هوان

كانت سياسة احترام العائلة الملكية لمملكة تشو ومقاومة العدوان الخارجي لأمير هوان تلقى بالاعتراف من العديد من الدويلات.

واعترفت تلك الدويلات بالمكانة القائدة لدويلة تشي تدريجياً، وعندما كانت في خطر تطلب مساعدة الأمير هوان دائما. وفي عام 663 قبل الميلاد، كان الأمير هوان يناقش مع قوان حول كيفية التعامل مع دويلة تشيو التي تزداد قوتها يوماً بعد يوم، زاره رسول دويلة يان الواقعة في شمال البلاد للاستنجاد، لأن دويلة يان تعرضت لعدوان القبيلة العرقية شانرونغ.

قرر الأمير هوان قيادة الجنود نفسه لمساعدة دويلة يان.

وجد الأمير هوان بعد وصوله إلى دويلة يان أن القبيلة قد هرعت بعدد من المواد الغذائية والممتلكات وبعض رعايا دويلة يان، فقرر مطاردتها لكن جنوده نصبوا كمينا للعدو ودخلوا واد مظلم بالرمال الصفراء، حيث لا يمكن تحديد الاتجاه حتى في النهار. وكان الجميع في ذعر وخطرت في بال قوان الحكيم فكرة وربما إن الحصان المسن يستطيع معرفة اتجاه الطريق، ولم يكن في حسبان الجميع أن الحصان المسن يعرف الطريق بشكل حقيقي وقاد الجميع للخروج من الوادي. وأخيرا نجح الأمير هوان في مساعدة دويلة يان على تحقيق الانتصار على القبيلة واسترجاع أراضيها، وكان أمير دويلة يان ممتنا جداً له.

بعد ذلك بفترة وجيزة، تعرضت دويلة شينغ لمضايقات قبيلة دي العرقية، وساعدها الأمير هوان على مطاردة القبيلة وبناء سور المقاومة، كما ساعد الأمير هوان دويلة وي الضعيفة على مطاردة قبيلة دي بعد ذلك.

ونتيجة لذلك ازدادت مصداقية الأمير هوان باستمرار، ومع ذلك هو غير مسرور لأن دويلة تشيو كانت تنافسه في كل المجالات، مما يقلقه كثيراً. وكانت دويلة تشيو تقع في المنطقة النائية في جنوب البلاد، حيث رأتها المنطقة الوسطى منطقة حدودية وخارجية، أما أمير دويلة تشيو فهو قام بفتح الأراضي ومحاربة القبائل المحيطة، وحتى تجاهل وجود حاكم مملكة تشو وأعلن نفسه حاكم البلاد.

في عام 565 قبل الميلاد، اتّحد الأمير هوان بصفته رئيساً للأمراء مع دويلات سونغ ولو وتشن ووي وجنغ وتساو وشو لمحاربة دويلة تشيو. وبعث أمير دويلة تشيو بعد معرفة الخبر رسوله للقاء بالأمير هوان، حيث قال إنه ليس هناك نزاع بين الدويلتين، فلماذا تقود القوات لمهاجمتنا؟

اتهم قوان الرسول قائلاً إن سلف دويلة تشي جيانغ تايقونغ سبق أن يأمر أن دويلة تشي عليها محاربة الدويلة التي لا تخضع أمام حاكم مملكة تشو. وفي السابق قدمت دويلة تشيو جزية باوماو سنوياً إلى المملكة، ولماذا قد توقّفت عن ذلك الآن؟

إن باوماو نوع من العشب كان يستخدم لتصفية النبيذ وهو غير موجود إلاّ في دويلة تشيو، وعرف الرسول أنه على خطأ واعتذر قائلاً إن ما فعلناه خطأ وسوف تقدم دويلتنا الجزية في الوقت المحدد في المستقبل.

عاد الرسول إلى دويلة تشيو وشرح الوضع للأمير. وبعد ذلك بفترة وجيزة أرسل الأمير رئيس الوزراء تشوان لزيارة الأمير هوان. ودعا الأخير تشوان لتفقد قواته من أجل إظهار قوته، وكانت العروض العسكرية عالية المستوى ومرتبة للغاية، حيث قال الأمير هوان بفخر: من الذي لا يخاف أمام مثل هذا الجيش القوي؟

قال تشوان دون تواضع إنه أهم شيء هو نيل المصداقية بالأخلاق، حيث لم يمكن حل المشاكل بالقوة وحدها. وعلى الرغم من أننا لسنا أقوياء، لكننا نأخذ مدينة فانغ كقلعة الدفاع والنهر هاشوي كخندق الدفاع، ونحن لسنا خائفين من أي شخص.

ورأى الأمير هوان أنه على حق، وعلاوة على ذلك، قد اعترفت دويلة تشيو بالخطأ ووعدت بتقديم الجزية، ولم يكن لديه أي سبب آخر لمهاجمتها، لذلك اتحد مع الدويلات الأخرى لإبرام الاتفاقية مع دويلة تشو.

بعد ذلك بوقت قصير، حصل نزاع في العائلة الحاكمة لمملكة تشو، وأدى الأمير هوان دور الوساطة وساعد الحاكم شيانغ على الوصول إلى سدة الحكم، وكان الحاكم ممتنا جداً وأرسل له هدية خصيصا، واغتنم الأمير هوان الفرصة لإقامة مأدبة على شرف الأمراء الآخرين في دويلة سونغ، وأبرم الجميع اتفاقية نصت على ضرورة منع مخاطر الفيضانات وبناء السدود، ومساعدة الدويلات المجاورة المتضررة من الكوارث، ويجب على الدويلات المبرمة التعامل مع بعضها البعض بمحبة وصداقة.

في ذلك الوقت كانت مملكة تشو ضعيفة وأكثر الدويلات قوة هي تشي وتشيو وتشين وجين. وكانت دويلة جين تعيش الفوضى بعد وفاة الأمير شيان. وكانت دويلة تشين بعيدة جداً ونادرا ما تتواصل مع دويلات المنطقة الوسطى. وكانت دويلة تشيو نائية وهي تعد الدويلة الخارجية. ولذلك كانت دويلة تشي هي الدويلة القوية الوحيدة في المنطقة الوسطى وأميرها هوان قادر على الحكم الرشيد، حيث خضعت الكثير من الدويلات الأخرى أمام دويلة تشي.

قد نظّم الأمير هوان العديد من الاجتماعات بين الأمراء، وهي معروفة في التاريخ باسم «الاتحاد مع الأمراء تسع مرات».

توفي قوان في عام 645 قبل الميلاد، وتراجعت هيمنة دويلة تشي تدريجياً دون مساعدة قوان. وبعد ذلك بعامين توفي الأمير هوان، ووقعت دويلة تشي في حالة من الفوضى بسبب التنافس حول العرش. ومنذ ذلك الحين لم تكن هيمنة دويلة تشي موجودة، وبدأت الدويلات الأخرى أن تتصاعد لأخذ زمام الهيمنة.

17
معركة هونغشوي

كان شتاء عام 638 قبل الميلاد بارداً بالنسبة إلى شعب دويلة سونغ.

كان أميرها شيانغ يريد الهيمنة على الدويلات الأخرى بعد الأمير هوان، ولكن كانت دويلة سونغ لم تكن قوية بما يكفي لدعم طموحه، ويمكن تخيل النتيجة حيث فشلت تماماً في فصل الشتاء من ذلك العام، وكان على الشعب تحمل كل العواقب المريرة للفشل.

يجب أن نبدأ القصة من الاضطرابات التي حصلت في دويلة تشي.

بعد وفاة الأمير هوان، تنافس أبناؤه الخمسة على العرش وتقاتلوا مع بعضهم البعض، وكان الوريث جاو الذي اعترف به الأمير هوان هرب إلى دويلة سونغ وأمل استنجادها للارتقاء إلى العرش. وكان الأمير هوان سبق له أن طلب من الأمير شيانغ لدويلة سونغ مراعاة ابنه جاو.

أدرك الأمير شيانغ أنه أمامه فرصة سانحة لإظهار قوته، فاستدعى الأمراء لمساعدة جاو على الرجوع إلى دويلة تشي والارتقاء إلى العرش ليصبح الأمير شياو. ولهذا السبب ارتفعت مكانة دويلة سونغ، وهي أصبحت من يقرر أمير دويلة تشي القوية، وهي أصبحت أقوى من الأخيرة.

صار الأمير شيانغ متغطرساً قليلاً وازداد طموحه باستمرار.

بعد فترة وجيزة دعا الأمير شيانغ الأمراء للاجتماع في محاولة لتكريس هيمنته، غير أن أمراء الدويلات الكبيرة لم يهتموا بدعوته ولم يشاركوا في الاجتماع على الإطلاق، حيث حضرته ثلاث دويلات فقط، مما أثار استياء الأمير شيانغ، لكن الأمر قد برهن على أن نداءه لم يكن كافياً.

إذن ما كان العمل؟

فكر الأمير شيانغ في اللجوء إلى الدويلات الكبيرة، ونصب نظرته إلى الجنوب، حيث دويلة تشيو التي كان الأمير هوان لم يتمكن من مهاجمتها، فهل يمكنه اللجوء إلى قوتها؟ رأى الأمير شيانغ أن الأمراء الآخرين سوف يخضعون أمامه إذا اتحد مع دويلة تشيو. وكان الأمير شيانغ أبلغ وزرائه عن فكرته، وأعرب الوزير مويي عن اعتراضه، وقال إن دويلة سونغ صغيرة ومن غير المناسب لها التنافس في الهيمنة.

لقد أغرق الأمير شيانغ نفسه في فكرة الهيمنة، وتطلع إلى رؤية الجمال لا حصر له عندما يكون على قمة الجبل، ولكن لم يفكر في خطر تسلقه وحتى السقوط من عليه، وفي ذلك الحين لم يتمكن من قبول أي نصيحة.

دعا الأمير شيانغ الأمير تشنغ لدويلة تشيو والأمير شياو لدويلة تشي إلى زيارة دويلة سونغ لعقد التحالف، حيث اجتمع في يوليو عام 639 قبل الميلاد في مدينة يودي بدويلة سونغ لانتخاب رئيس الحلفاء.

وفي يوم التحالف، ذهب الأمير شيانغ إلى مكان الاجتماع بفرح.

وقال الوزير مويي له أنه عليك الحضور بمزيد من الجنود، وأظن أن الأمير هواي لدويلة تشيو له أجندة خاصة ويجب تبني كل الحذر أمامه. ولكن رفض الأمير شيانغ قائلاً لا يمكنني فعل ذلك وسأعقد التحالف معه وكيف يمكنني إحضار الجنود؟»

تخلى الوزير مويي عن نصيحته أمام الأمير شيانغ العنيد. وبعد وصول الأخير إلى مدينة يودي، كما توقّع الوزير مويي وكيف يمكن دويلة تشيو القوية مساعدة دويلة سونغ الضعيفة، وإن أمير دويلة تشيو هو نفسه أراد الصعود إلى موقع رئيس التحالف، فكسر حلم الأمير شيانغ وحدث النزاع بينهما، فأمر الأمير تشنغ لدويلة تشيو جنوده باعتقال الأمير شيانغ على الفور.

وفي وقت لاحق تم إطلاق سراح الأمير شيانغ بمساعدة دويلة تشي ولو.

رجع الأمير شيانغ إلى دويلة سونغ غاضباً، وازداد غضبه حيث أن دويلة جنغ الضعيفة تجاهلته ووقفت مع دويلة تشيو، وظن أن دويلة تشيو قوية وهو لا يستطيع مقاومته، لكن دويلة جنغ ضعيفة ويمكن قهرها مباشرة، فقرر مهاجمتها.

كانت دويلة جنغ الضعيفة خائفة جداً بعد معرفة الخبر وتحولت على الفور إلى دويلة تشيو لطلب منها المساعدة، وكان نهج أمير دويلة تشيو حادا ومباشرا ولم ينقذ دويلة جنغ بل هاجم دويلة سونغ مباشرة، فهرع الأمير شيانغ إلى دويلته، والتقى بالأمير تشنغ في منطقة نهر هونغشوي.

وكان جيش سونغ في الضفة الجنوبية وجيش تشيو في الضفة الشمالية، وعندما بدأ جيش تشيو عبور النهر لمحاربة جيش سونغ، رأى الوزير مويي أن الوقت قد حان للفوز، لذلك اقترح على الأمير شيانغ لاستغلال الفرصة لشن الهجوم على جيش تشيو، غير أن الأمير شيانغ نفى ذلك وقال إن محاربة الأعداء في منتصف النهر شيء يجب على الجيش المخلص ألا أن يفعل.

تراجع الوزير في يأس، وكان جيش تشيو غير مرتب بعد عبور النهر، وقال الوزير للأمير شيانغ إن جيش تشيو غير مرتب، مما يشكل فرصة جيدة للهجوم.

نفى الأمير شيانغ ذلك من جديد بنفس السبب.

أصبح جيش تشيو مرتباً في وقت قصير، وتقدّم نحو جيش سونغ في صوت الطبول، غير أن الأخير كان عاجزا أمام هجوم الأعداء وفشل في النهاية. كما أصيب الأمير شيانغ بسهام في فخذه، واضطر إلى الهروب مع جيشه.

في ذلك اليوم الشتائي في عام 638 قبل الميلاد، فشلت دويلة سونغ في معركتها مع دويلة تشيو، مما أثار استياء شعب سونغ، وبدأ يشتكي من عجز الأمير شيانغ.

أبلغ الوزير مويي الأمير بصوت الشارع بصدق، لكن الأخير قال إن دويلة سونغ دويلة فاضلة ويحب تبني الحب حتى ولو كانت في المعركة، ويجب المحاربة حسب القواعد، فكيف يمكن الإساءة بالناس المصابين وكيف يمكن القبض على المسنين الكبار؟

نظر الوزير إلى الأمير العاجز وقال إن هدف المعركة هو التغلب على الأعداء وكيف التفكير دائما لصالحهم؟ إذا كنت لا تستطيع إيذاء شخص مصاب بجروح خطيرة ولا يمكنك أن تأخذ الرجل المسن، فلماذا لا تعترف بالفشل مباشرة؟ فلماذا المحاربة من أجل الهيمنة؟

أصبح الأمير شيانغ صامتا، لكنه لم يقبل خطأه، وتراجع الوزير في يأس. وبعد معركة هونغشوي، ازدادت جروح الأمير سوءا وتوفيّ في النهاية بعد عام. وبعد وفاة هذا الأمير الذي

يتطلع إلى الهيمنة ولكن فشل مرارا وتكرارا، ظهر أمير آخر متراوحا بين مختلف الدويلات.

18
تشونغأر في المنفى

كان ذلك الأمير هو تشونغأر.

عند ذكر تشونغأر، يخطر في بال الناس مصير تشرده وليس هيمنته، وهو ابن الأمير شيان لدويلة جين، وكان الأمير يحب زوجته المدللة ويريد تسليم العرش إلى ابنهما، فأمر بقتل ابنه الأكبر شنشنغ، حيث شعر تشونغأر بخطر بعد وفاة شقيقه الأكبر، ثم فر إلى الدويلات الأخرى للبحث عن ملجأ، وكانت له سمعة مرموقة للغاية فهناك مجموعة من الأشخاص الموهوبين الذين يرغبون في متابعته مثل هاماو وهويان وجاوشوي وشيانجن وجيزتوي.

عندما فر تشونغأر من دويلته، لم يكن يتوقع أنه سوف يبقى في الخارج لتسع عشرة سنة.

يمكن تصور المصاعب التي عرفها تشونغأر مع مرافقيه البالغ أكثر من عشرة في الطريق، وكان الجميع جالسين أو يسيرون مرهقين، وعلى الرغم من القلق الشديد، تبنى الجميع الأمل في صدرهم.

كان ينعم تشونغأر بلطف في رحلته، ولكن في معظم الأحيان تعرض للاتهامات والتساؤلات، غير أنه لم يتزعزع في ثقته، بل شجّع نفسه على الرغم من الأمل المحدود. ونفد طعامهم يوماً من الأيام، وطلبوا الغذاء من أحد المزارعين، وأمام كلماتهم المتواضعة قام مزارع بإلقاء عليهم قبضة من التربة وقال كلوا.

فما كان العمل؟ المغادرة أم الإهانة؟

في النهاية قرروا تحويل هذا العار إلى المجد، وقال هويان إن التربة عبارة عن الأرض التي سيحصل عليها تشونغأر ويجب قبولها، فركعوا على الأرض وصلّوا إلى السماء سعداء.

يمكن تحويل العار إلى القوة الدافعة لمواصلة التقدم، وماذا عن انتباه الآخرين إليهم؟ عندما وصلوا إلى دويلة تشي، تعامل معهم الأمير هوان من باب المجاملة وكافأهم بالجميلات والأطعمة اللذيذة والمساكن الكبيرة، وزوّج تشونغأر بامرأة جميلة وفاضلة، وبدأ تشونغأر يتمتع بالحياة الجديدة بعد المعاناة ولم يكن يرغب في التشرد، وقد حذره هويان وجاوشوي عدة مرات لكن تشونغأر لم يسمع إليهما.

توفي الأمير هوان في عام 643 قبل الميلاد وكان من غير الواقعي استخدام قوة دويلة تشي للارتقاء إلى العرش، فاحتجز هويان وجاوشوي تشونغأر سريا، وحثت زوجته على استعادة القوة والمعنوية، لكن تشونغأر قال إنه على الرجل التمتع بقدر الإمكان، فمن يمكنه أن يتوقع الأشياء في المستقبل؟ أنا فقط أريد أن أموت هنا، لا أريد أن أغادر.

قالت زوجته إنك ابن الأمير أصلاً وأنت متواجد هنا بسبب الحظ السيئ، ويجب عليك الرجوع إلى دويلة جين وتؤدي مهامك وترد الجميل على الذين يتبعونك، ويجب عليك عدم الانغماس في المتعة، وإذا كانت لم تعمل بجد، فمتى ستكون ناجحا؟ غير أن تشونغأر رفض ذلك، ثم احتجته زوجته ومتابعوه بعد افراطه بشرب الخمر، وغادر الجميع دويلة تشي على عربة الحيصان.

شرع تشونغأر في سلوك طريق المنفى من جديد.

بعد ذلك، كان هناك حوار بين هويان وجاوشوي يبعث على التفكير. وبعد استيقاظ تشونغأر من النوم، أصبح غاضباً للغاية ويريد قتلهما. وقال هويان إنه إذا قتلتني ويمكنك أن تنجز مهنتك، سوف أموت بدون ندم، وقد أثره هذا الكلام في نهاية المطاف، لكن تشونغأر قال غاضباً إنني سوف آكل لحمك إن لم تستطع مساعدتي على استرجاع السلطة.

أجاب هويان بذكاء وقال إن لحمي ليس لذيذا.

أعاد تشونغأر ومرافقوه ثقتهم في دويلة تشي، وهو أمر لا غنى عن الشجاعة فقط، بل أيضاً الحماس في تحقيق الهدف. ولحسن الحظ، نجحوا في النهاية إلاّ سيتركون نكتة حزينة في التاريخ تشينغ. ولكن كان في أعماق قلوبهم سؤال وهو هل يمكن لتشونغأر الذي قد كبر في سنه وتعرض للكثير من معاناة الحياة النجاح في النهاية؟ حيث أن المنفى ليس الهدف، بل إن الوصول إلى سدة الحكم وبناء الدويلة الهدف النهائي.

بدا تجوالهم مأساوياً بسبب قلوبهم الحارة.

ولحسن الحظ كان التاريخ لا يريد أن يجعل منفى تشونغأر لتسع عشرة سنة عديمة الجدوى ، ولكن يريد جعله زهرة مبهرة في البؤس، والسماح لتشونغأر بالتفتح. وأخيرا في عام 636 ق.م، عاد تشونغأر إلى دويلة جين بمساعدة الأمير مو لدويلة تشين وتولى الحكم وهو سمي الأمير وين.

كان تشونغأر على استعداد لمحو معاناة الماضي بالمجد، وكان مرافقوه أيضاً يستحقون النجاح.

من الجدير بالذكر أنه قد تمت مكافأة المرافقون الموالين، وهم أصبحوا وزراء بارزين لتشونغأر، وكان أحدهم جيزتوي وحده اختار المغادرة بهدوء، وهو رجع إلى بيته على جبل ميانشان لمباشرة الزراعة مع والدته في يوم من أيام الربيع. ولجأ إليه تشونغأر بعد معرفة الخبر ، لكن جيزتوي لم يرد أن يلتقي به.

أمر تشونغأر بإحراق الجبل من أجل إجبار جيزتوي على مقابلته، غير أن الأخير لم يغير قراره ومات في النار في النهاية، مما أصاب تشونغأر بجروح عاطفية، وأمر بدفن بقايا جيزتوي في جبل ميانشان وبناء معبد لذكراه، وأمر بحظر استخدام النار للطهي وتناول الطعام البارد في هذا اليوم لتقديم التعازي لجيزتوي.

هذا هو أصل يوم الطعام البارد.

19
انسحاب الجيش للأمير وين

وصل تشونغأر إلى سدة الحكم أخيرا وهو كان رجلا أشيب الشعر.

في ذلك الوقت كان تشونغأر يبلغ من العمر 62 عاما وهو أمير ذو خبرة ثرية عمل على إدارة الشؤون السياسية وتطور الإنتاج، ونتيجة لذلك ازدادت قوة دويلة جين باستمرار. وعلى الرغم من السن الكبير، إن الأمير وين طموح وتطلع إلى الهيمنة.

بالطبع، لم ينتظر لفترة طويلة لإتاحة الفرصة له.

وكانت هذه الفرصة مرتبطة بالعائلة الحاكمة لمملكة تشو.

حدث نزاع في العائلة الحاكمة المتراجعة، حيث أراد شقيق الحاكم شيانغ داي إقصاء الحاكم وتسلم العرش بالتعاون مع بعض الوزراء وحيش قبيلة دي، واضطر الحاكم شيانغ إلى الفرار إلى دويلة جنغ حيث أرسل رسله إلى مختلف الدويلات لطلب مساعدتها العسكرية للقضاء على شقيقه داي المتمرد.

ووصل رسوله إلى دويلة جين ذات يوم. وكما نعلم أن قوة العائلة الحاكمة في ذلك الوقت كانت ضعيفة للغاية، لذلك لم يرغب العديد من الأمراء في إرسال الجنود لإنقاذ الحاكم، بل أرسلوا التحية أو تقديم بعض الجزية.

إذن هل الأمير وين كان ينوي الإنقاذ أم لا؟

إن الأمير وين الطموح أدرك أن الفرصة السانحة قد جاءت، فكيف عدم إرسال القوات؟ وهو قاد الجنود للوصول إلى العاصمة لويي، وطرد عناصر قبيلة دي في وقت قصير، وقتل شقيق

الحاكم المتمرد داي في ساحة المعركة، لذلك تمكن الحاكم شيانغ من العودة إلى العاصمة، وبعد هذه المعركة توسعت قوة الأمير وين.

بعد فترة قصيرة من ذلك، اتحدت خمسة دويلات تشيو وتشن وتساي وجنغ وشو لمحاربة دويلة سونغ، وطلب أمير تشنغ لدويلة سونغ المساعدة من الأمير وين، وهو كان يريد الرفض، ولكن أشار وزراؤه إلى أن الأمر فرصة عظيمة لتحقيق الهيمنة، وهو لم يصب في مصلحة مساعدة الدويلات الضعيفة وتعزيز السمعة الذاتية فحسب، بل أيضاً في إحباط قوة دويلة تشيو.

رأي الأمير وين أن هذا الكلام صحيح، وهو علم أن أكبر عقبة أمامه لتحقيق الهيمنة هي دويلة تشيو.

ثم قاد الأمير وين جيشه الكبير للمشاركة في المعركة مرة أخرى، ولكن كان الأمير تشنغ لدويلة تشيو لا يريد مواجهته بشكل مباشر ثم أمر جنراله تشنغده بسحب الجنود، وكان جنراله تشنغده قائدا شرساً وشجاعا ولم يحب في الانسحاب وقال للأمير تشنغ إنه إذا لم نتمكن من الفوز، فعلينا التنافس معهم.

تخلى الأمير تشانغ عن الفكرة الأصلية سمح لتشنغده بمواجهة دويلة جين.

في ذلك الوقت قد استولى جيش دويلة جين على دويلتين صغيرتين مواليتين لدويلة تشيو وي وتساو، واحتجز أميريهما، وطلب الجنرال تشنغده من دويلة جين إطلاق سراحهما، لكنهما قد خضعا أمام إملاءات الأمير وين وأرسلا رسالة إلى دويلة تشيو لإعلان قطع العلاقات الدبلوماسية معها.

كان الجنرال تشنغده غاضباً جداً وأمر على الفور بشن الهجوم العنيف على جيش دويلة جين.

كان جنود جين مستعدين لمواجهة جنود تشيو، ولكن أمر الأمير وين بشكل غير متوقع بالتراجع بجنوده لخمسة وأربعين كيلومترا، حيث لم يفهم جنود جين نواياه وهناك العديد من المناقشات، وقال البعض كيف يمكن الانسحاب في المعركة؟

استعجل الوزير هويان في التفسير قائلاً إنه عندما فر الأمير وين إلى دويلة تشيو في المنفى في الماضي، تعامل معه أمير دويلة تشيو باحترام، حيث وعد الأمير وين وهو كان متأثراً جداً

بالتراجع بالجنود يوماً من الأيام في المستقبل في حال حدوث المعركة بين الدويلتين، فهو الآن يمارس وعده فقط، حيث لا يمكننا فقدان الثقة لنكون قادرين على الفوز.

بعد الاستماع إلى هذا الكلام، أصبح الجنود معجبين بالأمير وين باعتباره رجلا يلتزم بالوعد.

تراجع جنود دويلة جين إلى مدينة تشنغبو أي جنوب غرب مدينة جوان لمقاطعة شاندونغ الآن، حيث كان الجنود مستعدين للقتال. وأمام انسحاب الأعداء، كان جنود دويلة تشيو يريدون الانسحاب أيضاً، لكن الجنرال تشنغده أصر على القتال وأرسل إلى الأمير وين رسالة متغطرسة للمحاربة. وكان الأمير وين هادئاً جداً ورد باحترام برسالة قائلة إننا قد وفينا بوعودنا لرد الجميل للأمير تشنغ، واضطررنا إلى مواجهتكم في المعركة في حال إصراركم على القتال.

ثم بدأت المعركة الشرسة، وكان جيش دويلة جين قد نصب كمينا بالفعل وكان الجنرال تشنغده رجلا شجاعا دون التخطيط والحكمة، ورأى أنه سوف يفوز بالتأكيد فأمر بالمطاردة والملاحقة باستمرار، ولم يكن في حسبانه وتعرض جيشه لهجوم جنود الكمين في جيش جين في منتصف الطريق من الجانبين. وقُتل العديد من جنوده، وكان جيش جين يريد مطاردة الفلول، لكن الأمير وين منع ذلك.

كان الجنرال تشنغده الشامخ والمتغطرس لم يكن قادرا على تحمل الفشل والعار، فانتحر نفسه.

عاد جيش جين منتصرا وازدادت سمعة الأمير وين في كل الدويلات، حتى رأى الحاكم شيانغ أنه قد قدم مساهمات كبيرة، وإن تراجعه بالجنود كان أكثر إعجاباً لدى الناس، ثم زار الحاكم نفسه مدينةمدينة جيانتو لمكافأة جيش جين، واستغل الأمير وين هذه الفرصة لاستدعاء أمراء الدويلات الأخرى لعقد التحالف.

ومنذ ذلك الحين أصبح الأمير وين مهيمناً في المنطقة الوسطى.

20

هيمنة الأمير مو لدويلة تشين

نصب أمير في المنطقة الحدودية البعيدة نظرته الطموحة نحو المنطقة الوسطى أثناء هيمنة الأمير وين.

وهو الأمير مو لدويلة تشين.

لم يتمكن الأمير مو من إظهار قبضته عندما كان الأمير وين في قيد الحياة. وبعد فترة وجيزة من ذلك، توفي الأمير وين وتسلم العرش ابنه الأمير شيانغ، حيث حان وقت صعود الأمير مو، وهو قرر التقدم بجنوده نحو المنطقة الوسطى لتحقيق الهيمنة، وقرر اختيار دويلة جنغ كحجر الزاوية وقهرها بشكل مفاجأ.

في عام 627 قبل الميلاد، أرسل الأمير مو ثلاثة جنرالات أي منغ مينغشي وشي تشيشو وباي يبينغ للتقدم نحو دويلة جنغ. وكانت دويلة جين في حالة من الحزن لحداد الأمير الراحل وين، وقبل دفن جسد الأمير الراحل، بزر من النعش صوت الصراخ مثل البقر، فماذا حدث؟

أمر قائد الجنازة جميع الناس بالركوع أمام النعش قائلاً إن الصوت عبارة عن مرسوم الأمير الراحل الذي قال إن هناك جنود من غرب البلاد سوف يعبرون حدود دويلة جين، وإذا حاربناهم، سنفوز بالتأكيد.

أليس الجنود هم من دويلة تشين وهي تقع في الغرب؟ أبلغ الجنرال البارز شيانجن لدويلة جين فكرته إلى الأمير شيناغ، وكان الأمير سعيداً للغاية وأمر الجنرال بنصب الكمين في جبل شيشان لانتظار وصول جنود دويلة تشين.

لم يكن هجوم دويلة تشين سلساً لأن دويلة جنغ علم مؤامرتها مسبقا، وكان دفاعها قوياً. وكان جيش تشين لم تكن له حلول أخرى إلاّ قهر ونهب دويلة هوا في منتصف الطريق. وعندما رجع إلى دويلة تشين، تعرض لكمين ومحاصرة جيش جين، ومُني بالهزيمة الكارثية حيث مات العديد من الجنود، وتم القبض أيضاً على الجنرالات الثلاثة منغ مينغشي وشي تشيشو وباي يبينغ من قبل جيش جين.

في حين عاد الأمير شيانغ لدويلة دين منتصرا وعلى استعداد لقطع رؤوس الجنرالات الثلاثة للتضحية من أجل ذكرى الأسلاف، قالت والدته السيدة وينيينغ ابنة الأمير مو لدويلة تشين إن الدويلتين علاقاتهما جيدة أصلاً، فكيف يمكننا كسر الصداقة بيننا بسبب قتل الجنرالات الثلاثة؟ وبالإضافة إلى ذلك، سوف يقتلهم أمير دويلة تشين بنفسه بسبب هزيمتهم في المعركة، لذلك من الأفضل إطلاق سراحهم من أجل منع ذريعة القتل.

وافق الأمير شيانغ مع والدته وأطلق سراح الجنرالات الثلاثة.

لجأ الوزير شيانجن إلى الأمير شيانغ بعد معرفته للخبر على الفور قائلاً إن جيش جين ألقى القبض عليهم كأسرى بأقصى ما استطاع، وكيف يمكنك إطلاق سراحهم بشكل عشوائي؟ وهم سوف يكونون كارثة دويلتنا في المستقبل.

ندم الأمير شيانغ من قراره العشوائي وأرسل الوزير يانغ لمطاردة الجنرالات الثلاثة، أما الرجال الثلاثة فهم قد هرعوا بسرعة خوفا من ندم الأمير شيانغ، وقد صعدوا على متن قارب صغير قبل وصول الوزير يانغ، ثم صاح عليهم الوزير ارجعوا فأعد الأمير لكم عربات الخيول، ومن فضلكم القبول. وكان الجنرال منغ مينغشي يعرف أن كلام الوزير خدعة فرفض ذلك قائلاً إننا نشكر الأمير على عدم قتلنا فلا داعي للعربات، وسوف نرد على جميله بالتأكيد بعد ثلاث سنوات.

انجرف القارب بعيداً تدريجياً واضطر الوزير يانغ إلى الرجوع، وأبلغ الأمير شيانغ بكلام الجنرال منغ مينغشي، وكان الأمير نادماً للغاية ولكن قد فاتته الفرصة.

ولم يتوقع الجنرالات الثلاثة أن الأمير مو لم يعاقبهم بعد رجوعهم إلى دويلة تشين، بل هو رحّب بهم بنفسه أمام بوابة المدينة، وركعوا متأثرين أمامه، وقال الأمير بدموع في عينيه إن هذا هو خطئي وكيف يمكنني أن ألومكم ولم تنجحوا في المعركة؟

كان الثلاثة شاكرين جداً للأمير مو وقرروا ممارسة التمارين العسكرية بجهد للانتقام.

في عام 625 قبل الميلاد، طلب الجنرال منغ مينغشي من الأمير مو شن الهجوم على دويلة جين للانتقام عليها، ووافق الأمير على ذلك. ولكن كانت دويلة جين حذرة من غزو العدو لحسن الدفاع على نفسها، فاضطر الجنرال إلى الرجوع، ولم يتهمه الأمير مو بل أمره بمواصلة ممارسة السلطة العسكرية، ولكن كان الجنرال منغ مينغشي حزيناً إلى حد ما وقرر التبرع بجميع ثرواته ومنحها إلى عائلات الشهداء.

ومنذ ذلك الحين، عاش وأكل وتدرّب الجنرال مع جنوده، حيث ازدادت نيته في الانتقام.

أثناء التمارين العسكرية ليلاً ونهاراً، بعث الأمير شيانغ لدويلة جين جنراله شيان تشيجو لقيادة جنود دويلات جين وسونغ وتشن وجنغ لمهاجمة دويلة تشين، وكان الجنرال منغ مينغشي هادئاً جداً وعرف أن دويلة تشين لم تكن مستعدة بما فيه الكفاية للقتال، فأمر جنوده بالدفاع فقط، ونتيجة لذلك خسرت دويلة تشين مدينتين، حيث قال بعض الناس إنه رجل ضعيف، غير أن الأمير مو وثق به كالمعتاد وعامله بلطف وقال إنه سينتصر في النهاية.

وأصبح الجنرال منغ منيغشي أكثر اجتهادا في التمارين العسكرية بتشجيع الأمير مو.

كان قد مضت ثلاث سنوات وأصبح جيش تشين باسلاً وقوياً وعالي المعنوية بفضل التمارين الصارمة، وحان وقت الانتقام وطلب الجنرال منغ منيغشي مرة أخرى من الأمير مو للقتال ودعا الأمير نفسه إلى قيادة الجيش.

بعد أن عبر جيش تشين النهر الأصفر، أمر الجنرال منغ بإحراق جميع البواخر، وعزم القتال حتى الموت، قال للجنود إنه لا يمكننا سوى الانتصار في هذه المعركة.

ازدادت الروح المعنوية والهمة القوية لجيشه وشارك في القتال بشجاعة، ولم ينجح في استعادة المدينتين المحلتين فحست، بل أيضاً في الاستيلاء على مدينتين لدويلة جين، وكان جيش جين محاصرا ولم يجرؤ على المواجهة مع جيش تشين الذي كان مثل سهام حاد يطير على بروع دويلة جين، ولم يجرؤ أحد على إيقافه.

بعد ذلك عبر جيش تشين النهر الأصفر بقيادة الأمير مو، ووصل إلى الجبل الذي فشل الجيش فيه قبل ثلاث سنوات.

وكان انتشر في الجبل العديد من عظام الجنود لدويلة تشين، وجمعها الجيش وبنى مقبرة لهم وقام الأمير مو بحدادهم بنفسه لمدة ثلاثة أيام. ومنذ الانتصار على دويلة جين، ازدادت سمعة ومصداقية دويلة تشين كثيراً، حيث بدأت دويلات عديدة تخضع أمامها، مما صعد الأمير مو إلى منصب الهيمنة.

بطبيعة الحال كان أكثر إعجاباً لدى الناس هو صدر الأمير مو الرحيب لعدم تقييم الأبطال حسب نجاحهم وعدمه.

21
زقزقة مدهشة

بالإضافة إلى تشين، كانت دويلة تشيو الواقعة في جنوب البلاد تتمكن من التنافس مع دويلة جين.

ومع القوة المتنامية، أرادت دويلة تشيو التنافس مع دويلة جين المهيمنة في المنطقة الوسطى، خاصة الأمير موو كان له طموح كبير لكنه توفي مرضا، فتسلم العرش الأمير تشوانغ.

استولت دويلة جين على الدويلتين المواليتين لدويلة تشيو تشنغ وجنغ عندما كانت دويلة تشيو مشغولة بالجنازة الوطنية، وأبرمت معهما اتفاقية التحالف. مما أغضب وزراء دويلة تشيو، وقرروا شن الهجوم على دويلة جين، لكن الأمير تشوانغ لم يهتم بنصائحهم بل انغمس في الخمر والمتعة، وتخلى عن إدارة الشؤون السياسية، حتى يقال إن من كان يجرؤ على تقديم النصيحة عليه سوف يقتل.

تنهد الكثير من الوزراء وتخلوا عن تقديم النصائح.

لجأ الوزير ووجو إلى الأمير تشوانغ ذات يوم، وكان الأمير يجلس مع الحسناوات ويتناول الخمر معهن، ورأى الوزير ووجو وسأله تأتيني للتمتع بالخمر أم الأغنية؟

نفى الوزير ووجو ذلك وقال إنني لديّ سؤال صعب وأريد استشاركم.

وجد الأمير تشوانغ أن الأمر قد يكون ممتعا، وقال تفضل.

قال ووجو إن هناك طائرة جميلة ملونة في دويلتنا، لكنها لم تَطر وتُزقزق لمدة ثلاث سنوات، السؤال ما هو نوع هذه الطائرة؟

أدرك الأمير تشوانغ على الفور معنى سؤال ووجو، وقال إنها ليست طائرة عادية، وبالرغم من عدم الطير والزقزقة لمدة ثلاث سنوات، ولكن عندما تجيء الفرصة، هي سوف تطير عالياً وتزقزق زقزقة مدهشة.

صحل الوزير ووجو على الإجابة المرضية وغادر بارتياح.

ومع ذلك بقي الأمير تشوانغ كما كان، وكان الوزير سو تسونغشي لم يتمكن من تحمل ذلك ولجأ إلى الأمير بدموع في عينيه، وبكى أمام الأمير، ثم سأله الأمير، ما الذي يحزنك؟

أجاب سو تسونغشي بأنني حزين من دويلتنا، وإذا كنت تتجاهل دائما شؤون الدولة، ستقع دويلتنا في المخاطر الداخلية والخارجية حتى الانهيار، فكيف لا أبكي؟

كان وجه الأمير تشوانغ قاتما وقال: ألا تخشى من الموت بسبب هذا القول؟

قال الوزير بعزم إنني على استعداد للموت من أجل ازدهار الدويلة.

كان كلام الوزير أثر الأمير كثيراً، وقال إن كلماتك كلها مخلصة، ويجب أن أفعل وفقا لها.

ومنذ ذلك الحين، بدأ الأمير تشوانغ في تحسين الشؤون الداخلية، وتعيين الوزراء الموالين مثل ووجي وسو تسونغشي كمسؤولين بارزين، وتعزيز بناء القوات العسكرية وصنع الأسلحة والتدريب الصارم، وازدهرت دويلة تشيو بسرعة.

في عام 611 قبل الميلاد نجحت دويلة تشيو في معركتها ضد دويلة يونغ واكتسبت مساحات كبيرة من الأراضي، وبعد ثلاث سنوات أخرى احتلت دويلتي تشن وسونغ. وقهرت قبيلة رونغ في عام 606 قبل الميلاد وترابط جنود الدويلة في المنطقة بالقرب من عاصمة مملكة تشو لويي، مما حاكم المملكة مندهشا ومتسائلا إلى حد ما، وأرسل الوزير وانغ لزيارة جيش دويلة تشيو.

سأل الأمير تشوانغ الوزير وانغ في دردشتهما بشكل عرضي حول وزن وعاء جيودينغ في قصر المملكة.

كان وعاء جيودينغ رمز السلطة للعائلة الحاكمة لمملكة تشو، ويقال إنه مصنوع من البرونز الذي تم اكتشافه من كل أنحاء البلاد من قبل دايو، وكان معنى كلام الأمير تشوانغ واضحا للغاية،

فهو يريد حل محل حاكم المملكة، غير أن الوزير وانغ رد عليه بهدوء قائلاً إن قوة البلد تعتمد على الفضيلة ليس القوة، وبدون الأخلاق الفضيلة لإقناع الجمهور، كيف يمكنك أن تتساءل حول وزن الوعاء بشكل عرضي؟

أدرك الأمير تشوانغ أن قوته لم تكن كافية لإسقاط المملكة، فرجع إلى دويلته بجيشه.

بعد العودة إلى الدويلة، قام الأمير بتنمية القوة الذاتية، وتعيين الناسك الشهير سون شوآو كرئيس الوزراء، وكان سون معروفا بسمعته وقد فعل أشياء كثيرة مثل استصلاح الأراضي القاحلة وحفر مجرى الأنهار ومكافأة الإنتاج والقضاء على الكوارث، وأصبحت دويلة تشيو أقوى بعد فترة قصيرة.

في عام 597 قبل الميلاد، قاد الأمير تشوانغ الجيش لمهاجمة دويلة جنغ، وتسارع جيش جين لإنقاذ دويلة جنغ، والتقى الجيشان وتحارب بعضهما مع البعض في مدينة بيدي، وكان الجنرال الكبير بوله يجيد إطلاق السهام، فأطلق سهاما واحداً تلو الآخر على العربة العسكرية، وكان جيش جين لم يتمكن من مقاومة أسهمه.

كان جنرال دويلة جين جاوجان غاضباً جداً وأمر بمهاجمة معسكر دويلة تشيو في الليل، مما أغضب الأمير تشوانغ، الذي أمر بشن الهجوم على معسكر دويلة جين.

اندفع جنود تشيو إلى معسكر دويلة جين، وكان جيش الأخيرة في حالة الفوضى وتعرض لخسائر فادحة، ولم يمض وقت طويل على قضاء جيش تشيو على جيش جين، في حين فرّ العديد من جنود جين إلى ضفة النهر، وبسبب العدد المحدود للبواخر، تقاتل جنود جين بعضهم مع البعض، حتى أصبحت مياه النهر حمراء بسبب نزف الدماء.

أمام هذا المشهد، دعا جنرال دويلة تشيو مواصلة قتال فلول جيش العدو، غير أن الأمير تشوانغ لم ير ضرورة قتل الجميع، وقرر الانسحاب. وجعلت هذه المعركة الأمير تشوانغ ذائع الصيت مثل زقزقة الطائرة في صفوف جميع أمراء المنطقة الوسطى، وأصبح المهيمن الجديد بطبيعة الحال. وحتى هنا قد تعرفنا على أمراء الربيع والخريف الخمسة وهم الأمير هوان لدويلة تشي والأمير شيانغ لدويلة سونغ والأمير وين لدويلة جين والأمير مو لدويلة تشين والأمير تشوانغ

لدويلة تشيو. وبعد ذلك صعدت دويلتان تدريجياً وهما وو ويو، وكان نهوض دويلة وو تتعلق بهو وو زيشو إلى حد كبير.

22

عبور وو زيشو للنهر وإهداء السيف

أي نوع من القوة يمكن أن تعطي الكراهية لشخص؟

إن الكراهية مثل النار ويمكنها إشعال المروج، ويمكن تحقيق إنجازات رائعة في حال حسن استخدامها، وإشعال النفس في حال سوء استخدامها. وكان وو زيشو رجلا يجيد استخدام قوة الكراهية، حيث استفاد منها لإعلان الحرب ضد الأمير وإحراق دويلة قديمة، وكان الناس يخشون منه بمجرد ذكر اسمه، ويسمونه آلهة المد لنهر تشيانتانغ، وتتمتع موجات النهر والكراهية في قلبه بالشهرة التي تمتد لآلاف السنين.

قصة وو زيشو بدأت من الأمير بينغ لدويلة تشيو.

بعد أكثر من ستين سنة منذ هيمنة الأمير تشوانغ لدويلة تشيو في المنطقة الوسطى وفي عام 528 قبل الميلاد، تولى منصب الأمير تشيجي وهو الأمير بينغ. وتزوج ابن الأمير بينغ ذات سنة امرأة جميلة للغاية من دويلة تشين، وكان جمالها لا مثيل له فقرر الأمير بينغ الزواج معها بنفسه. وفي الواقع قد تكون هذه الأنواع من الأشياء غريبة في الوقت الحالي، لكنها كانت غير غريبة في عهد الربيع والخريف، حيث تغير السلطة المطلقة الناس، والطقوس العلمانية في بعض الأحيان لا يمكن الحد من الرغبات الشخصية للأمراء والحكماء.

بالطبع أثيرت الشكوك مع الرغبات الشخصية.

منذ أن تزوج الأمير بينغ مع زوجة ابنه، رأى أن ابنه كان من الطبيعي أن يكرهه، وازدادت شكوك الأمير في ابنه، ومد يد القتل إليه في النهاية. وكان والد وو زيشو أستاذ ابن الأمير، وهو

عارض قرار الأمير بشدة، ثم احتجزه الأمير بينغ وأراد قتل أبنائه، وطلب منه إرسال رسالة لابنيه ووشانغ ووو زيشو.

لم يعارض ووشانغ قرار والده وذهب إليه واستعد للموت، وأما وو زيشو فهو اختار الانتقام وفر من دويلة تشيو. وقال بعض الناس إن الموت سهل لكن التقدم مع العار صعب. كما هو الحال مع وو زيشو، واذا لجأ إلى والده ومات، فازدادت صفحة عن الولاء الأحمق في سجلات التاريخ، ولن يكون هناك فصل رائع فيها.

فر وو زيشو على طول الطريق، وكان معه حفيد الأمير بينغ السيد زيشانغ، وفر الرجلان إلى نهر قرب مدينة شاوقوان.

دعونا نغمض أعيننا ونتخيل المشهد آنذاك، كان النهر هادئاً وجرت المياه فيه بلطف في الريح، وعلى سطح المياه وبجانب الضفة قارب صغير جلس فيه رجل مسن أشيب الشعر وهو كان يصطاد الأسماك، غير أن وصول وو زيشو والسيد زيشانغ كسر الهدوء، حيث طلبا من الرجل المسن نقلهم إلى الضفة الأخرى للنهر، وكان الرجل المسن عرف صفتهما في اللمحة الأولى، وابتسم بلطف دون أي كلام، فصعد الرجلان على متن القارب، ثم أبحره الرجل المسن عبر النهر.

بعد عبور النهر، انحنى وو زيشو أمام الرجل المسن وأهدى السيف العالق من ظهره إليه في يديه، وقال إن السيف بالغ القيمة وأنا على استعداد لإهدائه إليكم لرد الجميل على نعمتكم ومساعدتكم. ابتسم الرجل المسن والقال إن الأمير بينغ سوف يكافئني أكثر من السيف بعدة مرات إذا سلّمتك إليه، فإن قيمة هذا السيف أقل بكثير من مكافأته. ابتسم الرجل المسن مرة أخرى وغادر بعيدا.

هرب وو زيشو من دويلة تشيو لكنه أصيب بالمرض فور وصوله إلى حدود دويلة وو، حيث قد نفدت جميع أمواله، لذلك اضطر إلى التسول وطلب الطعام من الآخرين، وكانت تلك الأيام الأكثر بؤساً في حياته، ومن الصعب لأي شخص تخيل صعوباته، ولكن كان في قلب هذا المتسول حلم الانتقام من وفاة والده وإسقاط دويلة تشيو.

وهو نجح في النهاية.

بالطبع قبل ذلك اضطر وو زيشو إلى اختيار السكوت، حيث وجد الشيء الوحيد الذي يمكنه فعله هو الانتظار بعد التفكير المطول والمر. وأخيرا جاءت الفرصة في دويلة وو بعد سنوات عديدة منذ فراره من دويلة تشيو إليها، حيث حدث نزاع الحدود بين دويلتي وو وتشيو، وبعث الأمير لياو لدويلة وو ابنه قوانغ لمحاربة دويلة تشيو، وعاد الأخير بعد استحواذ مدينتين لدويلة تشيو. واستغل وو زيشو الفرصة لتقديم نصيحته على الأمير لياو وقال إنه إذا بعثتم ابنكم قوانغ لمحاربة دويلة تشيو من جديد، سوف تسقط تشيو. لكن ابن الأمير أنكر هذه النصيحة.

لأن قوانغ كان مهتما بالعرش بدلا من دويلة تشيو، وأدرك وو زيشو ذلك بهدوء وفهم أن الوقت لم يأت بعد فغادر وبدأ الزراعة في الحقول. وقبل مغادرته، قدم شفرة قصيرة لقوانغ، وإنه كان يريد دفع تحويل السلطة بتلك الشفرة.

اختار وو زيشو السكوت بعد ذلك لسنوات عديدة، ولا نعرف ما إن كان يتنهد أم لا وهو تجوّل بين الحقول ونظر إلى دويلة تشيو من بعيد، ومتأملاً فيما إن كان سوف يحقق حلمه أم لا؟ ولكن قبل فوات الأوان، فليس عليه سوى الاستمرار في السكوت.

وأخيرا جاءته الفرصة الثانية، حيث قد طعن قوانغ الأمير لياو بالشفرة التي قدمها ووز يشو إليه، وصعد إلى قمة سلطة دويلة وو وسمى نفسه الأمير خهلوي، وبدا الأمير الجديد في التوسع، وخطر في باله وو زيشو فاستدعاه وطلب منه قيادة الجيش لمهاجمة دويلة تشيو.

استعجل وو زيشو في ارتداء الدروع وذهب إلى ساحة المعركة، حيث هاجم واحتل مدينة شو لدويلة تشيو، وحاول مواصلة التقدم نحو عاصمة دويلة تشيو، قال الجنرال سونوو إن الجنود قد تعبوا ولا يستطيعون الاستمرار في التقدم.

وجد وو زيشو أنه أقرب من الماضي لتحقيق هدفه، إلاّ أنه لا يزال من الصعب الوصول إليه، لأن سيف دويلة وو لا يزال غير حاد بما فيه الكفاية، ودويلة تشيو لا تزال غير ضعيفة بما فيه الكفاية. وأخيرا اختار مواصلة السكوت، ونظر إلى عاصمة دويلة تشيو من بعيد، وفهم أنه سوف يسقطها في المرة القادمة عندما تطأ قدماه على أراضيها.

في عام 506 قبل الميلاد، قاد وو زيشو والجنرال سونوو الجيش لمهاجمة دويلة تشيو مرة أخرى، وتقدم جيشه شامخا على طول الطريق واحتل في النهاية عاصمة الدويلة تشيو مدينة يينغدو

التي يحبها ويكرهها وو زيشو. وفي ذلك الحين قد مضت 10 سنوات على وفاة الأمير بينغ، وكيف يمكن لوو زيشو الانتقام؟ اختار الطريقة أكثر جنونا وانتقادا وهي ضرب الجثة بالسوط، حيث أخرج جثة الأمير بينغ من القبر لضربها بالسوط، ويمكن أن نرى مدى صلبه وتحمله من جنونه، وهو أعلن أمام جميع الناس أنه على أي رجل دفع ثمن القتل حتى ولو كان في أعلى منصب.

لا يسعنا إلاّ أن نقول إن كراهيته لم تحرق العدو فحسب، بل أحرقت نفسه أيضاً، وكان وو زيشو يريد إنارة وإضاءة الكثير من القلوب غير الحساسة.

ترتبط قصة وو زيشو بالكراهية، لكننا نعلم أن العالم ليس له مجرد كراهية، بل هناك الكثير من الحب واللطف، وكان هناك فيلسوف عظيم في نفس الوقت الذي كان فيه وو زيشو، وهو كان ينشر الإنسانية والصلاح والمحبة والبرّ والولاء في صفوف جميع الناس، وهو كونفوشيوس، والأستاذ المقدس في عيون الجميع.

23

عجز كونفوشيوس عن تحقيق طموحه

كان لقب كونفوشيوس تسيو واسمه تشونغني، وولد في مدينة زويي لدويلة لو، وهو مفكر ومعلم.

سبق لكونفوشيوس تلخيص حياته باختصار.

وقال إني كنت في الخامس عشر عاما من العمر، بدأت في التعلم، وفي سن الثلاثين كنت قادرا على تبني الصمود والاعتماد على الذات، وفي سن الأربعين، لم يعد لديّ أي شكوك في الحياة، وفي سن الخمسين، عرفت ما هو القدر، وفي سن الستين، لم أشعر بالعصيان في كل الأمور، وفي سن السبعين، لم أتحكم في الرغبات الخاصة ولكن لم يكن هناك مكان في قلبي لتجاوز القواعد.

ودعونا نتعرف عليه من هذا الكلام.

عاش كونفوشيوس حياة صعبة في سنواته الأولى، حيث توفي والده عندما كان في السنة الثالثة من عمره، وبعد ذلك عاش مع والدته في مدينة تشوفو بمقاطعة شاندونغ. وهو متهم جداً بالطقوس القديمة عندما كان صغيرا في السن، حيث عرض ألعابه على نحو طريقة العرض للأجهزة الطقوسية أحيانا، كما قام أيضاً بتقليد الكبار للعبادة. وبعد فترة من ذلك بقليل، كرّس نفسه لدراسة الفنون الستة التي يجب على الحكماء تعلمها وهي آداب السلوك والموسيقى والرماية والقيادة والكتابة والحساب، ثم انتشرت سمعته تدريجياً، حيث جاءه الكثير من الناس من أماكن بعيدة لتعلم الثقافة التقليدية منه. ولم يرفض كونفوشيوس أي طالب وقال إنني لم أشعر بأي تعب قط في تعليم الناس، ويقال كان له 3 آلاف طالب ومنهم 72 كانوا مشهورين على وجه الخصوص.

في منتصف الحياة، اعتمد كونفوشيوس وجهات نظره ومثله السياسية، وهو أشاد بشدة بنظام آداب السلوك والموسيقى الذي وضعه جوقونغ في بداية عهد أسرة تشو الغربية، واعتقد أنه نظام مثالي، لذلك إن حلم حياته كلها هو إعادة ذلك النظام، لكن هذا الحكم لا شك فيه كان مستحيلاً للتحقيق في فترة الربيع والخريف التي لم تحترم فيها آداب السلوك والموسيقى. ونتيجة لذلك كان حلم كونفوشيوس السياسي لم يأت في وقته حيث واجه الكثير من الصعوبات.

لم يتخل كونفوشيوس عن حلمه رغم عجزه في تحقيق المثل الأعلى، وبدأ رحلته في مختلف الدويلات في سن الخامسة والخمسين، من أجل لتحقيق حلمه السياسي.

تقدم كونفوشيوس مع طلابه نحو الغرب وتجوّل بين دويلات وي وتساو وسونغ وجنغ وتشن وتساي على العربة، حيث استغل كل الفرص المتاحة له لنشر رؤيته حول الحكم، غير أن الأمراء كانوا مشغولين بالاستيلاء على الأراضي، وإنهم يحبون الرؤية التي تمكنهم من تحقيق النمو السريع، لكن رؤية كونفوشيوس كانت قديمة وتحتاج إلى الوقت للتحقيق، لذلك كان لا يوجد أي أمير على استعداد لقبول رؤيته، ناهيك عن تعيينه في منصب هام.

واجه كونفوشيوس العديد من النكسات على طول طريقه.

حيث قد نفد طعامه في دويلتي تشن وتساي ولم يتناول الطعام لبضعة أيام، وهو لم يجد أي فرصة لإظهار قدرته وكفاءته رغم الجهود الكبيرة المبذولة، حتى لم يفهم سبب ذلك بعض النساك في بعض الأحيان. وكان هناك ناسك تقدّم على عربة كونفوشيوس وغنّى أمامه: لا يمكن إعادة الماضي، لكن المستقبل يمكن أن يكون أكثر إشراقا، ودعونا ننسى ذلك وإن أصحاب السلطة الآن كلهم فاشلون.

كان الناسك يريد إقناع كونفوشيوس بعدم النضال في هذا العالم القذر، بل يجب تطهير نفسه وإخفائه ليكون ناسكاً مثله، غير أن كونفوشيوس أمل إعادة البلاد إلى الطريق الصحيح، حتى يتمكن كبار السن من العيش في سلام، ويثق الأصدقاء ببعضهم البعض، ويرعى الأطفال الصغار. وقال إنه إذا كانت البلاد تسير على الطريق الصحيح، فلن أكون متشرداً هكذا. وواصل رحلته بعد ذلك، ولم يجد أي فرصة رغم كفاءته العالية، ولم يكتسب شيئاً رغم سفره في ربوع كل البلاد، ولم يجد تفهم الآخرين رغم الرحلات المتعبة.

اضطر كونفوشيوس إلى الرجوع إلى دويلة لو بجسده المنهك عندما كان كبيرا في السن، وكرس نفس في تعليم الطلاب وتنظيم الكتب الثقافية في سنواته الأخيرة على رأسها «يي» و»آداب السلوك» و»الموسيقى» و»شانغشو» و»سجلات القصائد» و»الربيع والخريف»، التي أصبحت جميعها الملاذ الروحي المزدهر والخصب لجميع الناس لاحقاً.

وعاش كونفوشيوس حياة حزينة في سنواته الأخيرة. حيث توفي ابنه الوحيد كونلي وطالبه المفضل يانيوان، وأصبح جسمه تدريجياً أضعف فأضعف. وفي يوم من أيام الربيع في عام 479 قبل الميلاد، زاره طالبه تسيقونغ ووجده كان يتردد عند الباب، وغنى كونفوشيوس: هل سينهار جبل تايشان؟ وهل سيتآكل الخشب؟ وهل سيموت الفيلسوف؟

كانت أغنية كونفوشيوس حزينة لكنه بدا مهيباً ونبيلاً في ظل أشعة الشمس الصباحية، وقال طالبه تسيقونغ، ما الذي نتطلع إليه في حال انهيار جبل تايشان؟ ومن الذي سنتبعه في حال تآكل الخشب ووفاة الفيلسوف؟

فارق كونفوشيوس عن الحياة بعد ذلك بمدة غير طويلة في السنة الثالثة سبعين من عمره.

ورغم الصعوبات التي عرفها كونفوشيوس وعجزه في تحقيق مثله العليا، إن المنظومة الفكرية الكونفوشيوسية التي بناها وجوهرها «المحبة» قد تم تعميمها وتناقلها إلى الأبد، واستفاد منها عدد لا يحصى من الناس.

قال الناس في أسرة سونغ إنه لو لا إضاءة حكمة كونفوشيوس، فإن التاريخ الطويل سوف يكون في الليلة المظلمة، ويبدو أن هذا التعليق مبالغ فيه بعض الشيء، وكان تعليق المؤرخ سي ماتشيان في كتابه ¡°السجلات التاريخية¡± حول كونفوشيوس كان أكثر حيادا، حيث قال إنه رجل ذو أخلاق حميدة وحكمة، وهو مثل الجبل الشامخ الذي يعجب الناس، ومثل الممر المؤدي إلى السماء، رغم أنني لا أستطيع الوصول إلى مستواه، فإن قلبي مليء بالشوق إليه.

وحقيقة إن كونفوشيوس هو مثل قمة جبلية شامخة من الصعب للآخرين تجاوزه في تاريخ الصين الطويل.

24
الظهور الأخير للاوزي

بعد الحديث عن كونفوشيوس، دعونا نستمر في الحديث عن لاوزي.

كانت صورة لاوزي غامضة للغاية.

هل لاوزي ولد قبل كونفوشيوس أم بعده؟ هل اسمه لاوران أم لاولايزي؟ هل هو المسؤول عن مكتبة مملكة تشو أم لا؟ إن كل هذه الأسئلة مثيرة للجدل. وترك كونفوشيوس للعالم «قصص كونفوشيوس» التي تسمح للناس باستخدام ما ورد فيها لمعرفة صورة وملامح كونفوشيوس، في حين أن لاوزي ترك للعالم «نص الأخلاق»، وعلى الرغم من أن هذا الكتاب فيه خمسة آلاف كلمة فقط، إن الناس قاموا بتعلمه وفهمه لآلاف السنين. وتكمن صورة لاوزي الأشيب الشعر والبالغ الحكمة وراء تلك الكلمات المختصرة بهدوء التي تبعث على التخمينات.

دعونا الآن تستعرض هذه التخمينات.

يقال إن كونفوشيوس سبق له أن زار لاوزي ذات مرة ليسأله حول آداب السلوك، وقال لاوزي إنك ترغب في دراسة هذه الآداب، فالأشخاص الذين أنشأوها قد ماتوا منذ فترة طويلة، وربما حتى عظامهم قد تم تحطيمها. ومع ذلك، فقد تم تعميم كلماتهم. وأنت كرجل نبيل، ألا يجب عليك احترام تلك الآداب والطقوس مع جميع الناس الآخرين؟ وإذا توفرت الفرصة، يمكنك ركوب العربة الفاخرة وارتداء الملابس الجميلة، أليس هذا جيدا؟ وإذا لم تتح لك الفرصة، فتترك الأمر كما هو وتعيش في هذا العالم مثل ريشة، أليس ذلك جيدا؟

استمر لاوزي في القول، إنني سمعت أن التاجر الجيد في التجارة يجب عليه أن يخفي ممتلكاته وكأنه لا يملك شيئاً، وأن الرجل النبيل يجب أن يخفي شعور الكسب في عمق القلب وكأنه

رجل عادي. ويجب عليك التباعد عن البذخ والتبذير والجشع والغطرسة، وكل ذلك ليس مفيداً لك، وها هو ما يمكن أن أقوله.

في الواقع كانت أفكار لاوزي لا تتطابق مع أفكار كونفوشيوس، لكن هذا لا يؤثر على احترام كونفوشيوس للاوزي.

بعد العودة إلى دويلة لو، وصف كونفوشيوس لاوزي لطلابه قائلاً أنني أعلم أن الطيور يمكنها أن تطير، والأسماك يمكنها أن تسبح، والوحوش يمكنها أن تركض، ويمكن القبض على جميع المخلوقات التي تركض على الأرض بشبكة، والقبض على جميع المخلوقات التي تطير في السماء بالسهام، والقبض على جميع المخلوقات التي تسبح في الأنهار بشبكة، ولكن كيف التعامل مع التنين الذي يطير فوق السحب وقمة السماء ولا يمكن التنبؤ بوجهاته.

أخيرا قال كونفوشيوس إن لاوزي رجل مثل التنين.

في الواقع كان لاوزي يشبه التنين، ومن الصعب وصفه والتنبؤ به، حيث أن العنوان البارز لأفكاره هو التراجع والصمت والهدوء، وهو يخفي نفسه في مكان عميق، وكان كل ظهور له مدهشا لدى الناس، ونعلم أن ظهوره الأخير كان في مدينة هانغو.

بعد فترة وجيزة من اللقاء مع كونفوشيوس، قرر لاوزي مغادرة عاصمة لويي والذهاب إلى الغرب البعيد عن العائلة الحاكمة لمملكة تشو التي تراجعت باستمرار. ويقال إنه كان يركب البقرة ويسير على طول الطريق القديم في ضوء شمس النهار وقمر الليل، ووصل إلى مدينة هانغو، حيث رآه قائد المدينة وأوقفه بكل السرور وقال إذا كنت تريد الاختباء، يرجى ترك للعالم كتاب.

لم يرفض لاوزي ذلك فكتب «نص الأخلاق» على اللوحات الخيزرانية، وبعد ذلك غادر المدينة على بقرته واختفى في رياح الرمال الصفراء. وتحدث في كتابه عن الطريق الطاوي الذي لا يمكن وصفه ولا يمكن التنبؤ به، وعن ضرورة عدم التصرف في الحكم. وبالإضافة إلى الهدوء والتواضع في كتابه، هناك نوع من الطموح الكبير فيه. وربما كان لاوزي قد شهد الكثير من الحروب والمآثر في كتب التاريخ، فهو أمل أن أصحاب السلطة يمكنهم سلوك الطريق الطاوي والحكم بدون تصرف وعدم إزعاج الشعب، وتبني التواضع والضعف والغباء في الحكم.

ولا شك أن ذلك شيء مستحيل.

إن الواقع لم يمنع لاوزي من تبني المثل العليا المتمثلة في «قطن عدد قليل من المواطنين بدويلة صغيرة»، حيث يعيش كل شخص على حقله، ويزرع مع شروق الشمس وينام مع غروب الشمس، وهناك لا يوجد أي علاقات بين الجيران، ويعيش كل الناس في هذه الحالة حتى الموت.

ولا شك أن ذلك شيء مستحيل أيضاً.

كان طريق كونفوشيوس موجها نحو التقدم، وطريق لاوزي موجها نحو التراجع، ومهما كان الطريق، يجب أن نفهم أن عظمة لاوزي مثل الأمطار الباردة التي هطلت عليك عندما كنت مضطرباً داخلياً، مما يجعلك تدرك أن المشهد لن يتجاوز تصوراتك حتى ولو تصل إلى نهاية الطريق. وإن الحياة هي حزينة أصلاً، فلماذا يتعين علينا بذل قصارى الجهود للوصول إلى نهاية الطريق؟

لذلك من الأفضل التراجع.

25

النوم على الأخشاب وتذوق المرارة

إذا كنت ترغب في السفر، من المؤكد أنك قد رزت مدينتي شاوشينغ وسوتشو، حيث حدائق رائعة وأنهار جميلة وأزهار خوخ زاهية، وربما قد ركبت القارب وتسلقت جبل هوتشيو وانجذبت بعمق من جمال جنوب الصين.

ولكن هل تعلم أن هذه الأماكن كانت تنتمي إلى دويلتي وو ويو قبل أكثر من 2500 سنة؟ واندلعت عدة حروب بينهما، وفي البداية غلّب الأمير خهليو لدويلة وو على دويلة تشيو بمساعدة وو زيشو وسونوو، وهيمن على جنوب البلاد، وكان هذا النجاح الكبير عزز طموح الأمير خهليو، حيث نصب أنظاره نحو دويلة يو المجاورة. وفي عام 496 قبل الميلاد شن الهجوم على دويلة يو بُعيد تسلّم أميرها الجديد قوجيان للعرش.

اندلعت حرب كبير بين الدويلتين في مدينة زويلي أي جنوب غرب مدينة جياشينغ بمقاطعة جياشينغ.

كان الأمير خهليو يتوقع أنه سوف يفوز بالتأكيد، لكنه فشل في النهاية، وأصيب بسهام في جسده، وهو كان غاضباً ومنزعجاً للغاية وتوفي بعد عودته إلى دويلته بفترة قصيرة، وتسلّم عرشه ابنه الأمير فوتشاي، الذي أقسم للتغلب على دويلة يو للانتقام.

من أجل الانتقام، طلب الأمير فوتشاي من وو زيشو والوزير بوبي إجراء التدريبات العسكرية للتحضير لمهاجمة دويلة يو، وبعد عامين شعر الأمير أنه مستعد بما فيه الكفاية للمهاجمة، ولم يكن بوسعه الانتظار لقيادة الجنود نفسه لشن الهجوم.

قال رئيس الوزراء فانلي لدويلة يوللأمير قوجيان إن هجومات دويلة وو شرسة وقوية جداً، وأخشى أننا غير قادرين على المواجهة، فمن الأفضل أن نتراجع.

غير أن الأمير قوجيان لم يقبل هذه النصيحة بل أرسل القوات للمواجهة، حيث اندلعت معركة شرسة في منطقة بحيرة تايهو بين الجانبين، وفشل جيش دويلة يو بشكل تام بسبب عدم الاستعداد الكافي، وفي النهاية قاد الأمير قوجيان خمسة آلاف جندي متبق له وفر وصعد إلى جبل كوايدي، ثم تم حصار الجبل بحشود جيش دويلة وو.

وكان الأمير قوجيان نادماً جداً من عدم قبول نصيحة رئيس الوزراء فانلي، وهو سأله حول الحل، فكّر فانلي وقال إنه إذا أردنا أن تظل البلاد مزدهرة، يجب علينا أن نسلك الطريق السماوي ولا نتغطرس، وإذا أردنا أن نخرج من الحالة الحرجة، يجب علينا أن نسلك الطريق الإنساني ونتواضع ونتراجع، لذلك لا يسعنا إلاّ أن نطلب الرحمة من دويلة وو بالكلمات المتواضعة والهدايا النفيسة.

وافق الأمير قوجيان مع فانلي وبعث الوزير وينجونغ لطلب السلام مع دويلة وو.

كان الأمير فوتشاي لدويلة وو قبل طلب السلام، ولكن عارض ذلك وو زيشو بشدة وقال إنه إذا لم نغتنم هذه الفرصة لتدمير دويلة يو، فهي سوف تصبح مصدر القلق والمخاطر لنا في المستقبل.

إن الوزير ويندونغ لدويلة يو رجل جريء ودقيق، وعرف أن الوزير بوبي بجانب الأمير فوتشاي رجل جشع ويغلّب المصالح على الحق، لذلك قدّم له عددا كبيرا من المجوهرات وحسناوات عديدات سريا، وأمل منه الترافع أمام الأمير فوتشاي.

قبل الوزير بوبي كل الهدايا وقام بما في وسعه لإقناع الأمير فوتشاي على قبول طلب السلام، اتفق الأمير مع ذلك، شرط أن يذهب معه الأمير قوجيان لدويلة يو إلى دويلة وو كرهينة.

ذهب الأمير قوجيان وفانلي إلى دويلة وو، وهو طلب من الوزير وينجونغ البقاء في دويلة يو لإدارة الشؤون اليومية. وفي دويلة وو، كان الأمير قوجيان يسكن غرفة حجرية متهالكة ويرتدي الملابس القذرة وكانت وظيفته هي تربية الخيول، وهو تحمّل كل العار الذي أعطاه الأمير فوتشاي.

وكان الأمير فوتشاي مريضا ذات مرة، استعجل الأمير قوجيان لزيارته وتقديم التحية، وحتى خدمه في المرحاض، مما أثّر الأمير فوتشاي كثيراً، وقرر بعد شفائه إعفاء الأمير قوجيان وسماحه بالعودة إلى دويلة يو.

أصبح الأمير قوجيان أقوى وأكثر صمودا بعد تذوق العار في دويلة وو لثلاث سنوات، وهو عزم على الانتقام.

بعد العودة إلى دويلته، وضع الأمير قوجيان مرارة مرة أمام مقعده، حيث يمكنه رؤيتها مهما كان جالساً أم مستلقياً، وتمسّك بتذوقها مهما كان يأكل أم يشرب، وهو يسأل نفسه بصوت عال: هل نسيت العار الذي تذوقته في جبل كوايجي؟

قام الأمير قوجيان بالزراعة نفسه والطلب من زوجته أن تنسج نفسها، واستضافة الحكماء ومساعدة الفقراء وتعزية المتوفين والعمل مع الشعب سوياً. ومن أجل تخفيف يقظة وحذر الأمير فوتشاي، أرسل الأمير قوجيان هدايا كثيرة إلى الأمير فوتشاي بين حين وآخر لإظهار ولائه. ولكن في الواقع قام الأمير قوجيان بتشجيع الإنجاب وتطوير الإنتاج وتراكم الموارد المادية وتدريب الشباب من أجل بناء جيش قوي لشن الهجوم على دويلة وو.

26
إسقاط الأمير قوجيان لدويلة وو

كانت دويلة يو تزداد قوة تحت قيادة الأمير قوجيان بمساعدة وينجونغ وفونلي بسرعة، غير أنهم يدركون تماماً أن دويلتهم لم تصل إلى مستوى المواجهة مع دويلة وو، فما الذي ينبغي العمل؟ كما نعلم أن هناك طريقتان إذا أردنا التغليب على العدو، إحداهما هي تعزيز القوة الذاتية، والأخرى إضعاف العدو.

استخدم الأمير قوجيان 3 تكتيكات من أجل إسقاط دويلة وو.

وأولها تكتيك فخ العسل، ويقال إن الأمير فوتشاي أصبح متغطرساً وشامخا بعد هيمنته، وقرر الأمير قوجيان استخدام تكتيك فخ العسل لتآكل طموحات الأمير فوتشاي، وأمر بالبحث عن الحسناوات في كل الأماكن، وبتدريبهن من حيث أسلوب التعامل ومهارة الرقص والغناء. وكان هناك حسناء اسمها سيشي وهي ليست فحسب على قمة جمال العالم، بل أيضاً متفوقة ومتميزة برقصها، لذلك أمر الأمير قوجيان بتقديمها إلى الأمير فوتشاي.

كان الأمير فوتشاي سعيداً للغاية بمجرد رؤية سيشي، ولم يعد له أي وقت للاهتمام بالشؤون السياسية، حيث قد وقع في فخ العسل.

كان الأمير قوجيان راضياً جداً من فعالية التكتيك الأول، ثم استخدم التكتيك الثاني وهو فخ الأعمدة الخشبية الضخمة، وأرسل الأمير قواجيان العديد من الأعمدة الخشبية الضخمة إلى الأمير فوتشاي بعد معرفة رغبة الأخير في بناء مسرح كبير، واضطر الأخير إلى توسيع حجم المسرح من أجل حسن استخدام هذه الأعمدة، وهذا يعني تعبئة مزيد من الناس وإنفاق مزيد من الأموال، وبطبيعة الحال إن الشعب هو الأكثر تأثرا بذلك

وكان التكتيك الثالث للأمير قوجيان هو استعارة الحبوب.

بعث الأمير قوجيان الوزير وينجونغ لزيارة الأمير فوتشاي لاستعارة الحبوب، حيث قال الوزير إن دويلة يو تعاني من المجاعة، وهي بحاجة إلى استعارة مليون كيلوغرام من الحبوب من دويلة وو، وهو وعد بإعادتها في أقرب وقت ممكن. ولم يتردد الأمير فوتشاي في الاتفاق على ذلك من أجل رؤية ابتسام سيدته المدللة سيشي.

تخلصت دويلة يو من المجاعة بفضل حبوب دويلة وو، والتزمت بوعدها وأعادت حبوباً بنفس الوزن إلى دويلة وو، وكان الأمير فوتشاي سعيداً بذلك، وأمر الوزير بوبي بتوزيع الحبوب الجديدة على المزارعين لزراعتها كبذور.

ولكن لم يكن في حسبان الجميع أن كل تلك الحبوب كانت مطبوخة ومجففة، ولم يحصل المزارعون على أي محاصيل في فصل الخريف، حيث جاء دور دويلة وو لتذوق المجاعة.

كانت التكتيكات الثلاثة للأمير قوجيان ناجحة للغاية، وهو أضاف قطعة من الحطب إلى لهب غطرسة الأمير فوتشاي، التي أثارت استياء وخيبة أمل شعب دويلة وو لأميره باستمرار.

الاستنفاد للطرف والمراكمة للطرف الآخر، ورأى الأمير قوجان أن الوقت قد حان لمهاجمة دويلة وو بعد معرفته للمجاعة التي عانت منها. غير أن الوزير وينجونغ قال إن دويلة وو ما زالت قوية، والمجاعة لم تكن كافية لإسقاطها، وبجانب الأمير فوتشاي وزراء حكماء مثل وو زيشو، فلم يكن من السهل التعامل معهم الآن، وما زلنا بحاجة إلى الانتظار لبعض الوقت.

طلب الوزير وو زيشو اللقاء مع الأمير فوتشاي ذات يوم وهو قال بجدية إن الأمير قوجيان يقوم بإدارة الشؤون السياسية ومشاركة الشعب في السراء والضراء بشكل سري، وأنا أخشى أن الأمر سيكون ضارا بدويلتنا على المدى الطويل، فأطلب منكم إرسال القوات لمهاجمة دويلة يو. غير أن الأمير فوتشاي كان مدمنا في المتعة وجمال سيدته، ولم يتعامل مع كلام وزيره بجدية.

في عام 484 قبل الميلاد، قاد الأمير فوتشاي جيشه لمهاجمة دويلة تشى، ونجح في المعركة وأقام مأدبة على شرف كبار المسؤولين، غير أن الوزير وو زيشو كان هادئاً للغاية، وهو كان لا يوافق مع الأمير في مهاجمة دويلة تشي أصلاً، فتقدم إليه لتفسير أهمية الاهتمام بمهاجمة دويلة يو،

أصبح الأمير غاضباً من كلامه وأعطاه سيفاً صغيرا وأمره بالانتحار، مما أثار سخط ويأس الوزير وو زيشو، وقال رجاء تعليق عينيّ على البوابة الشرقية للمدينة، حيث أريد مشاهدة إسقاط دويلة وو من قبل دويلة يو بنفسي، ثم قتل نفسه.

كان الأمير قوجيان مطمئنا جداً بعد وفاة الوزير وو زيشو، وأدرك أنه قد حان وقت الانتقام.

في عام 482 قبل الميلاد، استغل الأمير قوجيان فرصة عقد التحالف بين دويلات وو ولو وجين، قاد جيشه القوي واحتل عاصمة دويلة وو مدينة قوسو. واستعجل الأمير فوتشاي إلى الرجوع إليها بعد معرفة الخبر، لكنه أُعترض في منتصف الطريق من قبل قوات دويلة يو، واضطر إلى إرسال الوزير بوبي لطلب السلام مع دويلة يو، ووافق الأمير قوجيان على ذلك.

في عام 475 قبل الميلاد، هاجم الأمير قوجيان دويلة وو مرة أخرى، وفشل الأمير فوتشاي أمام القوات القوية لدويلة يو، حيث خطر في باله كلام الوفاء للوزير وو زيشو، ولكن قد فات الأوان فاضطر إلى الانتحار.

أسقط الأمير قوجان دويلة وو وبدأ مكافأة الضباط والجنود، غير أن الوزير بوبي المستسلم كان يتوقع المكافأة أيضاً، وقال الأمير قوجان إنك باعتبارك وزيرا لدويلة وو، عليك صحبة أميرك، فأمر بقتله.

بعد سقوط دويلة وو، تم إدراج جميع المناطق على طول في حلم دويلة يو، وأصبح الأمير قوجان مهيمن جبوب البلاد كلها.

كان نجاح الأمير قوجيان مرهونا بوفاء وحكمة وزيري فانلي ووينجونغ، وكان الوزير فانلي رجلا يعرف التقدم والتراجع، واختار عيش حياة هادئة وناسكة، وقبل مغادرته، نصح على الوزير وينجونغ مغادرة الأمير قوجيان، قائلاً إن الأمير رجل يشاركه في الضراء، ولا يشاركه في السراء.

كان لدى الوزير فانلي معرفة دقيقة للسلطة بشكل تام، وأدرك أن القوس الجيد سوف تُخفى بعد قتل جميع الطيور، والكلاب سوف تقتل بعد القبض على جميع الأرانب، ورغم جدوى القوس الجيد والكلاب الماهرة، لن ينسى الأمير تهديداتها، لذلك اختار الوزير فانلي المغادرة، غير أن

الوزير وينجونغ لم يغادر في النهاية. واتضح الأمر أن الوزير فانلي كان صحيحا، حيث أمر الأمير بقتل الوزير وينجونغ بعد فترة وجيزة من ذلك.

إن سقوط دويلة وو يزمر نهاية فترة الربيع والخريف.

قام أمراء الربيع والخريف ابتداءا من الأمير هوان لدويلة تشي حتى الأمير قوجيان لدويلة يو بإسقاط نظام آداب السلوك والموسيقى الذي أسسه جوقونغ في بداية مملكة تشو الغربية، وإن سقوط هذا النظام عبارة عن فتح صفحة جديدة في سجلات التاريخ، حيث دخلت السفينة التاريخية الضخمة إلى عهد الدول المتحاربة في عام 475 قبل الميلاد، ويجب أن نبدأ من تقسيم دويلة جين من ثلاث أطراف أولا.

27
تقسيم دويلة جين من ثلاثة أطراف

كان تقسيم دويلة جين من ثلاث أطراف تدشينا لعهد الدويلات المتحاربة.

هل ما زلت تتذكر دويلة جين التي بلغت ذروة ازدهارها تحت جهود الأمير وين البالغ 62 عاما، ولكن تراجعت باستمرار وتقسمت إلى 3 أجزاء في عام 403 قبل الميلاد. وقبل شرح كيفية تقسيمه إلى ثلاثة أجزاء، نحتاج أن نفهم وضع النفوذ المنتشر لمملكة تشو.

إن حاكم المملكة هو الرجل الذي يمتلك السلطة العليا اسمياً، وهو الحاكم المشترك لكل البلاد، ويجب على جميع الأمراء الامتثال لأوامره، وتقديم الجزية إليه بشكل دوري وتأدية اليمين أمامه، وكانت سلطتهم أدنى من سلطة الحاكم وهو في الدرجة الثانية، وإن سلطة الوزراء في مختلف الدويلات هي في الدرجة الثالثة.

وكانت مستويات السلطة في تلك الفترة تدرجية مثل شجرة ذات جذوع وفروع وأوراق.

وقد تشكل النمط المثلث للسلطة آنذاك، وبالطبع كان الناس تحت كل هذه السلطة، حيث مارسوا الزراعة والصيد والعمل الباهظ، تعرقوا من أجل متعة النبلاء وطموحات الأمراء.

ومنذ بداية الربيع والخريف، وحتى بداية عهد الدويلات المتحاربة، بدأ ذلك المثلث ينهار.

وقد تراجعت سلطة حاكم مملكة تشو التي كانت تتوقع في عاصمة لويي، حيث لم يعد الحاكم متمكنا من قيادة الأمراء، حتى عليه الخضوع أمام الأمراء الذين حارب بعضهم البعض من أجل الهيمنة. وفي داخل كل دويلة، تنافس الوزراء مع بعضهم البعض من أجل التوسع.

وأصبح بعض الأمراء أقوياء على نحو متزايد تدريجياً، حتى تجاوزت سلطتهم سلطة الأمير.

ولكن ما العمل لو تجاوزت سلطة الوزير سلطة أميره، الإجابة هي الاستبدال، ولا شك في أن تاريخ تقسيم دويلة جين من ثلاث أطراف هو كان متعلقا بقصة تجاوز سلطة الوزراء لسلطة الأمير.

دعونا نركّز أنظارنا على دويلة جين.

تقسمت دويلة جين إلى عديد من الولايات الصغيرة في نهاية فترة الربيع والخريف، حيث تنافس الوزراء على استحواذ الأراضي، ومع الحروب المتكررة، لم تبق سوى 4 ولايات وهي جي وجاو ووي وهان، وكان أقواها ولاية جي ووزيره كان بوياو.

كان الوزير بوياو يريد الإطاحة بالأمير آي لدويلة جين، فإن الخطوة الأولى التي يجب اتخاذها هي إضعاف الولايات الثلاث الأخرى، واتخذ نصيحة مساعده المتمثلة في طلب الأطراف الثلاث الأخرى من تقديم 50 كيلومترا مربعا من الأراضي له كلا على حدة بحجة نقص القدرة على مساعدة الأمير آي على مهاجمة دويل يو.

لذلك أرسل الوزير بوياو الناس إلى الولايات الثلاث الأخرى لطلب الأرض.

قدمت ولاية هان ووي الأرض لبوياو بطاعة، لكن ولاية جاو رفضت ذلك وقال وزيرها شيانغزي إن ذلك أمير مستحيل، وإن الأرض هي إرث الأجداد، وكيف يمكنني تقديمها بسهولة؟

أصبح الوزير بوياو غاضباً جداً من كلام الوزير شيانغزي، وقرر التعاون مع ولايتي وي وهان لمهاجمة ولاية جاو، واتفق على تقسيم أراضيها في حال النجاح.

أمام الهجومات العنيفة من الولايات الثلاث الأخرى، اضطر الوزير شاينغزي إلى التراجع إلى مدينة جينيانغ أي مدينة تاييونغ بمقاطعة شانشي الآن، حيث قصور واسعة وأسوار قوية وأعلاف متوفر للغاية، ولكن كان عدد الأسلحة والأسهم فيها قليلاً، مما أقلق الوزير شيانغزي كثيراً، لكن قائد القوات تشانغمنغ قال إنه لا داعي للقلق، حيث يصنع القصر الرئيسي في المدينة من أشرطة الخيزران والنحاس، ويمكن صنع الأسلحة والأسهم من ذلك.

كان الوزير شيانغزي يشعر بسعادة غامرة وأمر بهدم جدار القصر وإسقاط أعمدته لصنع الأسلحة.

وصل جيش الولايات الثلاث الأخرى إلى مدينة جينيانغ وحاصرها، وبدأت بعد ذلك المعركة، وصمد الوزير شيانغزي فيها بفضل الإمدادات المتوفرة والأسلحة الجيدة والجيش الشجاع.

كان الوزير بوياو من ولاية جي يشعر بالقلق الشديد لصعوبة تحقيق النجاح في المعركة، وصعد إلى قمة الجبل لمراقبة التضاريس، وخطرت في باله فكرة جيدة بمجرد رؤيته لنهر شمال مدينة جينيانج، وقال للوزيرين الآخرين إننا يمكن بناء سد على النهر، وفتح الخزانة في موسم الأمطار، والفيضانات سوف تغرق المدينة، حيث لن يكون للأمير شياتغزي أي خيار إلاّ الاستسلام.

لذا تحرك الجميع إلى بناء السد خلال وقت قصير.

كما يتوقع الوزير بوياو أن الفيضانات أغرقت مدينة جينيانغ في موسم الأمطار، حيث دمّرت أبنيةً كثيرةً، وصعد المواطنون إلى فوق بيوتهم، وأصبح الوزير شيانغزي قلقا للغاية، وقال قائد القوات تشانغمنغ إني وجدت أن التعاون بين الوزراء الثلاثة شكلي ومؤقت، لنعمل على إقناع ولايتي وي وهان للتعاون معنا لمواجهة ولاية جي.

وافق الوزير شيانغزي على ذلك.

في تلك الليلة، تسلل القائد تشانغمنغ إلى معسكر جنود الولايتين ونجح في إقناع وزيريهما، اللذان يعرفان بشكل جيد أن ولاية جي الأكثر قوة سوف تقضي عليهما في حال نجاحهم في المعركة ضد ولاية جاو. وأمام النتيجة المتوقعة، من الأفضل القضاء على دويلة جي أولا.

قرر الوزيران تغيير مجرى الفيضانات وتوجيهها إلى معسكر ولاية جي، واستيقظ الوزير بوياو في صراخ القتال والفيضانات، واستعجل في الهروب، وقتل في النهاية من قبل كمين الوزير شيانغزي.

تم تقسيم أراضي الوزير من قبل الولايات الثلاث الأخرى بعد قتله.

لذلك تم تقسيم دويلة جين من ثلاثة أطراف، رغم أن أمير يو لدويلة جين ما زال أمير جميع الولايات، ولكن ليس في يده أي سلطة حقيقية.

في عام 403 قبل الميلاد، حصل وزراء ولايات هان وجاو ووي على لقب الأمير من حاكم مملكة تشو، مما أعلن سقوط دويلة جين، وإقامة دويلات جاو وهان ووي. وفي عهد الدويلات المتحاربة، كانت تلك الدويلات الثلاث تنتمي إلى «الدويلات المتحاربة السبع الكبرى» فضلاً عن دويلات تشي وتشيو ويان وتشين، وبالتالي سوف تندلع معارك عنيفة فيما بينها.

28

الإصلاح بقيادة شانغيانغ

كان الأمر الأكثر ندماً للأمير هوي لدويلة وي هو السماح بمغادرة شانغيانغ

وتجاهل الأمير هوي نصيحة رئيس وزرائه حول ترقية واستخدام شانغيانغ، وأدرك أنه قد ارتكب خطأ كبيرا بعد سنوات عديدة، وهو خطأ غيّر تاريخ الصين لأكثر من مائة سنة، وغير نمط الدويلات المتحاربة.

دعونا نرجع إلى السنة التي مرض فيها رئيس الوزراء قونغسون.

زار الأمير هوي رئيس وزراءه وسأله: إن مرضك خطير للغاية ومن سوف يساعدني على الحكم بعد وفاتك؟ قال قونغسون المستلقي على السرير إن خادمي شيانغيانغ صاحب الكفاءة والمهارة، وآمل منكم تعيينه والاعتماد عليه.

ابتسم الأمير ويعرف كيف الرد عليه.

عرف قونغسون أن الأمير لا يريد الاعتماد على شانغيانغ، ثم قال إذا لم تودّ الاعتماد عليه، يرجى قتله وعدم سماحه بالخروج من دويلتنا.

لم يقل الأمير شيئاً وغادر. واستدعى قونغسون شانغيانغ بعد مغادرة الأمير وقال له إني رشّحتك لتوليّ منصبي بعد أن سألني الأمير حول الشخصية المناسبة للمنصب، ولكن على ما يبدو إنه لا يريد تعيينك والاعتماد عليك، فطلبت منه قتلك ووافق على ذلك، فاستعجل في الهروب الآن. غير أن شانغيانغ هادئاً جداً وقال إن الأمير لم يوافق معك في تعييني، ناهيك عن الموافقة معك في قتلي.

كان كلام شانغيانغ صحيحا، وقال الأمير لحراسه إن مرض رئيس الوزراء مُحزن للغاية، وطلب مني الاعتماد على شيانغيانغ، أليس ذلك سخيفاً؟

كان شانغيانغ ليس سوى خادم في عيني الأمير، غير أن ذلك الخادم سوف يكون نجمة لامعة في السماء لاحقاً. وقرر شانغيانغ الذهاب إلى دويلة تشين، لأنه سمع أن الأمير شياو لدويلة تشين كان يبحث عن أصحاب الكفاءة والقدرة في كل أنحاء البلاد، ويتعهد بمكافأة الذي يمكن تقديم نصائح تجعل دويلة تشين مزدهرة بالأراضي.

غادر شانغيانغ دويلة وي ووصل إلى دويلة تشين.

حصل شانغيانغ على أربع فرص للقاء بالأمير شياو عبر وزير الأمير المدلل جينغجيان، وفي اللقاء الأول تحدث شانغيانغ عن حكم الزعماء الخمسة، ولم يستمع إليه الأمير، وفي اللقاء الثاني تحدث عن حكم الحكام الثلاثة، وكان كلامه لم يُرض الأمير كذلك، وفي اللقاء الثالث تحدث عن حكم الأمراء الخمسة، مما أثار إعجاب الأمير، وفي اللقاء الرابع كان الأمير منغمساً في كلام شانغيانغ، وكان الحديث بينهما سعيدا، ولم يعرف الرجلان الملل واستمر الحديث بينهما لعدة أسابيع.

فوجئ الوزير جينغجيان بكفاءة شانغيانغ وسأله عن سبب اهتمام الأمير به، وقال شانغيانغ إنني في البداية تحدثت عن تجربة الزعماء الخمسة والحكام الثلاثة في الحكم، غير أن الأمير رأى أن تجربتهم غير فعالة وتأخذ وقتا طويلا، فتحدثت عن تجربة المهيمنين، مما جعل الأمير سعيداً جداً، غير أن دويلة تشين لن تصل إلى مستوى مملكة شانغ وتشو بتجربة المهيمنين.

كان شانغيانغ الذي نال ثقة الأمير شياو جاهزا للإصلاح، غير إن الإصلاح سوف يضر حتما بمصالح النبلاء. واضطر شانغيانغ إلى تعليق الإصلاح أمام معارضتهم القوية. وبعد عامين من ذلك، رأى الأمير شياو أن الوقت قد حان وعيّن شانغيانغ كوزير الإصلاح وأمره بتنفيذ الإصلاح بقوة.

كان شانغيانغ يدرك تماماً أنه لا بد من الحصول على ثقة الشعب من أجل تنفيذ الإصلاح بسلاسة.

خطرت في باله فكرة، وهو نصب 3 أعمدة بجانب البوابة الجنوبية للمدينة، وقال إنه سوف يكافئ الذي يقدر على نقل الأعمدة إلى البوابة الشمالية للمدينة، وشك الناس في المكافأة من هذا الأمر السهل، ولكن كان لا أحد يجرؤ على التجربة، فقرر شانغيانغ رفع حجم المكافأة بخمس مرات.

أصبح الناس مندهشين، وتقدم رجل وهو أراد التجربة ونجح في النهاية، وحصل على مكافأته من شانغيانغ الذي أوفى بتعهده. وانتشر هذا الحديث في صفوف الناس بسرعة، ومنذ ذلك الحين، إن الناس مقتنعون جداً بأوامر شانغيانغ دون أي شك.

استغل شانغيانغ تلك الفرصة وأصدر مرسوم الإصلاح الذي يشمل التمييز بين الثواب والعقاب وإلغاء امتيازات النبلاء ومكافأة الجنود الناجحين وترقية مناصبهم حسب إنجازاتهم العسكرية، ومكافأة الناس الذين يتقدمون كمية أكثر من المحاصيل والقماش وإعفاءهم من العمل الإجباري، وتنفيذ العقاب التسلسلي، حيث يُعاقب جميع أقرباء وأصدقاء وجيران المخالف والمجرم.

في بداية الإصلاح، قال الناس إنهم كانوا منزعجين ولا يريدون الإصلاح، وحتى ابن الأمير نفسه انتهك المرسوم، ولا يمكن شانغيانغ معاقبته، فقرر معاقبة أساتذته، ومنذ ذلك الحين تم تنفيذ الإصلاح دون أي عائقة. وبعد بضع سنوات، أصبحت حياة الشعب رغيدة، وأصبحت دويلة تشين مستقرة وآمنة ومزدهرة وقوية عسكرياً.

في عام 350 قبل الميلاد، تمت ترقية شانغيانغ وهو قرر الاستمرار في الإصلاح، وعلى رأس محتويات الإصلاح تشجيع استصلاح الأراضي والسماح ببيعها ، وإعادة تنظيم المحافظات وتقسيم الدويلة إلى 31 محافظة تدار من قبل الحكومة المركزية بشكل مباشر، ونقل العاصمة من مدينة يونغتشنغ إلى مدينة شيانيانغ، أي من محافظة فنغشيانغ إلى مدينة شيانيانغ بمقاطعة شنشي في الوقت الحالي.

بعد عدة سنوات من الإصلاح، أصبحت دويلة تشين قوية وشعبه غنياً، وصعدت إلى صدارة الدويلات في تلك الفترة، حتى أرسل حاكم مملكة تشو هدايا للأمير شياو، وأعطاه لقب «فانغبو» وهو عبارة عن قائد الأمراء، حينما أدرك الأمير هوي لدويلة وي مدى كفاءة شانغيانغ الذي تجاهله قبل سنين. وبعد ذلك، هاجمت دويلة تشين عاصمة دويلة وي، واضطرت الأخيرة إلى التنازل عن منطقة خهشي لتقديمها إلى دويلة تشين، وإلى نقل العاصمة إلى مدينة داليانغ.

ندم الأمير هوي لدويلة وي على عدم قبوله لنصيحة رئيس الوزراء قونغسون، وهو رجل الحكمة والوضوح بكل معنى الكلمة.

وبالطبع رغم الكفاءة البالغة في الحكم، إن شانغيانغ لم يتمكن من إنقاذ نفسه. وبعد وفاة الأمير شياو، تسلّم عرشه ابنه الذي سبق أن يُعاقب من قبل شانغيانغ، وادعى أن الأخير حاول الانقلاب وقتله بعقاب تجزئة الجسم بالتعذيب، ولكن لم تتوقف عملية الإصلاح التي طرحها شانغيانغ التي أرسى أساساً متينا ليجعل دويلة تشين دويلة مهيمنة.

29
حصار دويلة وي وإنقاذ دويلة جاو

إذا قلنا إن الأمير هوي لدويلة وي ارتكب خطأ في السماح لشانغيانغ بالمغادرة، فإنه قد ارتكب خطأ آخر بعد وقت قصير من ذلك.

وسمح بمغادرة سونبين.

كان سونبين وريث الخبير الاستراتيجي العسكري سونوو، ورغم أنه رجل موهوب، عانى من صعوبات متكررة طوال حياته، وكل ذلك يرتبط ببانغجوان، وسبق لهما تعلم فن الحرب من قبل الأستاذ قويقوزي، وإن بانغجوان كان يحسد سونبين لأن الأخير أفضل منه بكثير من حيث الكفاءة العسكرية.

كان الأمير هوي لدويلة وي نادماً جداً من السماح لشانغيانغ للمغادرة، وأدرك تماماً أهمية أصحاب الكفاءة، فقرر جذب الأكفاء من كل البلاد من أجل جعل الدويلة غنية وقوية. وذهب بانغجوان إلى دويلة وي بعد معرفته للخبر، وتحدث عن رؤيته حول الحرب أمام الأمير هوي، ونال ثقته وتقديره، وسرعان ما أصبح جنرالا.

قام الجنرال بانغجوان بممارسة التدريبات العسكرية يوماً بعد يوم، وقد قاد جيشه لمهاجمة عدد من الدويلات المجاورة الصغيرة، وازدادت سمعته في دويلة وي كثيراً كما ازدادت ثقة الأمير هوي به، غير أنه أردك جيداً أن سونبين أفضل بكثير من نفسه سواء كان من حيث التخطيط أم المعرفة، وفي حال القضاء على سونبين، إنه سوف يكون الأفضل في البلاد، فبدأ في البحث عن التكتيك.

أخيرا، خطر في باله تكتيك

وأرسل رسالة إلى سونبين ودعاه إلى العمل في دويلة وي، وقد سمع الأمير هوي بالفعل اسم سونبين، وسمح له بممارسة العروض العسكرية، حيث برزت قدرة سونبين على ممارسة فن الحرب، مما جعل بانغجوان يحسد سونبين أكثر.

إن الحسد يأتي بالجنون، وبعد فترة وجيزة، وضع بانغجوان فخا لسونبين وادعى أن الأخير جاسوس دويلة تشي، مما يجعل الأمير هوي غاضباً جداً، وأمر بإلقاء القبض على سونبين وختم الحبر على وجهه وإزالة عظام ركبته، غير أن بانغجوان لم يقتل سونبين، لأنه يريد الحصول على أساليب فن الحرب منه.

كان سلف سونبين الجنرال سونوو بارعاً في التكتيكات العسكرية، وسبق له مهاجمة دويلة تشيو مع الوزير وو زيشو، ويقال إن كتاب «فن الحرب» (SunTzu Art of War) الذي يمكننا قراءته الآن كان كاتبه هو سونوو.

كان بانغجوان يريد إجبار سونبين بتسليم كتاب فن الحرب، غير أن الأخير تظاهر بأنه مجنون بعد معرفة محاولة بانغجوان. ومع مرور الوقت، تراجعت يقظة بانغجوان، حيث بدأ سونبين في البحث عن الفرص للفرار، وكانت حياته في السجن مسكينة للغاية. وفي النهاية أتت الفرصة، وأنقذه رسول دويلة تشي من السجن سريا خلال زيارته لدويلة وي. وبعد الوصول إلى دويلة تشي، رشّح الجنرال تيانجي سونبين إلى الأمير وي، وهو مثل الكنز النفيس باعتباره رجلا عسكرياً عبقرياً.

برزت مهارة وكفاءة سونبين بعيد وصوله إلى دويلة تشي.

كان نبلاء دويلة تشي يحبون سباق الخيول، وذات مرة شارك الجنرال تيانجي في السباق مع خيوله، ووجد سونبين أن هناك اختلاف كبير في قدرة الخيول، فقال للجنرال إن هناك 3 أنواع من الخيول، الخيل القوي والخيل المتوسط والخيل الضعيف، ويمكنك بعث خيله الضعيف للتنافس مع الخيل القوي لمنافسك، وبعث خيلك القوي للتنافس مع الخيل المتوسط لمنافسك، وبعث خيلك المتوسط للتنافس مع الخيل الضعيف لمنافسك، وسوف تخسر في المباراة الأولى، وتنجح في المباراتين الأخريين.

استمع الجنرال إلى فكرة سونبين وفاز في النهاية، وازدادت ثقة الأمير بسونبين بعد معرفته للأمر، وعيّنه كالأستاذ العسكري، يحب الاستماع إلى آرائه قبل أن يفعل أي شيء.

في عام 354 قبل الميلاد، هاجم بانغجوان دويلة جاو بإذن الأمير هوي لدويلة وي، وسرعان ما حاصر عاصمة دويلة جاو مدينة هاندان، واستعجلت دويلة جاو التي كانت على وشك الانهيار إلى استنجاد دويلة تشي، حيث رأى الأمير وي لدويلة تشي أن الأمر فرصة جيدة لتعزيز شهرته وسمعته، فأمر الجنرال تيانجي والأستاذ العسكري سونبين بإنقاذ دويلة جاو.

وكيف سيتم إنقاذ دويلة جاو؟ ناقش سونبين مع الجنرال في الطريق.

كان الجنرال تيانجي يريد التقدم نحو عاصمة هاندان مباشرة، ومساعدة دويلة جاو على مواجهة دويلة وي، غير أن سونبين رأى عكس ذلك، وقال إن جيش دويلة يو قوي ولديه إمدادات متوفرة، ولكن في عاصمة دويلة وي لم يبق إلاّ الأطفال والمسنين، فمن الأفضل شن الهجوم على عاصمتهم مباشرة، وسوف يضطر بانغجوان إلى الرجوع لإنقاذ دويلته، ويمكننا نصب الكمين على طول طريق رجوعه، وسننجح بالتأكيد. هكذا يمكن مساعدة دويلة جاو من جهة، ومن جهة أخرى يمكن إضعاف دويلة وي، ويمكننا القبض على عصفورين بحجر واحد.

رأى الجنرال أن فكرة سونبين رائع جداً.

ثم قادوا الجيش على الفور للتقدم نحو عاصمة دويلة وي، واستعجل بانغجوان إلى الرجوع بعد معرفة الخبر، ووقع في المصيدة في طريق العودة، ونجح جيش دويلة تشي في النهاية، وتم إنقاذ دويلة جاو، ها هو الحادث المشهور «محاصرة دويلة وي وإنقاذ دويلة جاو» في تاريخ الصين.

اشتهر سونبين في تلك المعركة.

وفي عام 342 قبل الميلاد، هاجمت دويلتا وي وجاو دويلة هان، واستنجدت الأخيرة للأمير شوان لدويلة تشي، وبعث الأمير الجنرال تيانجي وسونبين لمساعدة دويلة هان، واستغل سونبين تكتيك «عمل الصوت في الشرق وشن الهجوم في الغرب» لمهاجمة دويلة وي، وعلى غرار المرة السابقة، اضطر بانغجاون إلى التراجع من الجبهة الأمامية.

قال سونبين للجنرال تيانجي إن جيش دويلة وي ما زال قوياً، وإن جنوده متغطرسون جداً، وسيحتقرون جيشنا بالتأكيد، ويمكننا استغلال تكتيك «تقليل عدد الأفران لإغراء العدو»، حيث ورد من كتاب فن الحرب أن الجيش المميز يفشل بعد قطع مسافة طويلة، فأمام مطاردة جيش وي، يمكننا نصب 100 ألف فرن في اليوم الأول، ونصب 50 ألف فرن في اليوم الثاني، ونصب 30 ألف فقط في اليوم الثالث، ليجعل بانغجوان يرى العدد المتراجع لجنودنا، ثم سوف يقود جيشه المميز لمواصلة المطاردة حتى الوقوع في الفخ.

كما توقع سونبين أن بانغجوان كان قد وقع في الفخ وترك جنوده العاديين وقاد جيشه المميز في المطاردة.

واستنادا إلى سرعة تقدم جيش بانغجوان، استنتج سونبين أنه سوف يصل إلى منطقة مالينغ في المساء، ثم نصب الكمين هناك.

إن الطريق في منطقة مالينغ ضيق وعلى جانبيه جبال شامخة، غير أن بانغجوان كان مستعجلا في الانتقام وأمر جيشه بمواصلة المطاردة في المساء، وفي منتصف الطريق رأى بانغجوان شجرة منقوشة عليها نص، واقترب منها، وفي ظل أشعة الشعلة اتضح نص الشجرة أمامه: يموت بانغجوان تحت هذه الشجرة.

سرعان ما قد أدرك بانغجوان أنه قد وقع في الفخ، ولكن الوقت كان متأخرا، حيث نصب على جيشه عدد لا يحصى من الأسهم، وتوفي أكثر من نصف جنوده، وقتل بانغجوان نفسه في يأس، وحصل هذا الشرير على النهاية المستحقة. وقد حقق سونبين معجزة نجاح مرة أخرى في معركة مالينغ المشهورة.

عند هذه النقطة، نجح سونبين في الانتقام. وهو رجل مثل أسلافه يعرف التقدم والتراجع، وهو كان يكره النزاع السياسي في دويلة تشي ولم يود التورط في النزاع بين رئيس الوزراء زوجي والجنرال تيانجي، واختار المغادرة والاختباء في الجبال بحجة الإعاقة، حيث كرس نفسه للتأمل، وأخيرا نجح في تأليف كتاب حول فن الحرب، لكن أوراق هذا الكتاب فقدت في الحروب المتكررة بعد ذلك تدريجياً. ولحسن الحظ، اكتشف علماء الآثار هذا الكتاب بعد ألفي عام من فقدانه في إحدى مقابر أسرة هان في جبل تشوشان بمدينة لينيي بمقاطعة شاندونغ في عام 1972.

كان أبرز الشخصيات في عهد الدويلات المتحاربة لم تقتصر في الجنرالات المتفوقين والجواسيس البارزين، بل أيضاً هناك عدد من الحكماء الذين يجيدون فن الكلام، على رأسهم سوتشين وتشانغيي.

30
الاتحاد والتفريق

في ليلة من الليالي كان الهلال عالقا في السماء، وسرعان ما يختبئ في السحاب ولم يظهر من جديد.

وفي ضوء الهلال الخافت، ما زال هناك رجل يدرس تحت أشعة المصباح الضعيفة، لكنه بدا قليلاً من النعاس، وأصبحت كتابته على لوحات الخيزران غير واضحة بشكل متزايد، ولعنت عيناه تدريجياً. فجأة، استيقظ مرة أخرى وشعر قليلاً من اللوم الذاتي في قلبه، وأخرج سيفاً من جانبه وطعن به نحو ساقه، وأفاق بالكامل وفرك عينيه وبدأ منغمساً في القراءة من جديد.

اسم هذا الرجل هو سوتشين، وهو عرف باجتهاده.

ولماذا اجتهد سوتشين كثيراً؟ لنتحدث عن ذلك ببطء. بعد إصلاح شانغيانغ، حققت دويلة تشين نجاحا كبيرا سياسياً واقتصادياً وعسكرياً، وبدأت في التوسع الخارجي، خاصة بعد خلافة الأمير هوي للعرش، وهو استمر في استخدام القوات لغزو الدويلات الأخرى، مما أقلق الدويلات الست المتبقية كثيراً.

على هذه الخلفية، ظهر عدد من الاستراتيجيين الذين تجولوا بين مختلف الدويلات.

كان لدى الاستراتيجيين مقترحان رئيسيان «التعاون داخل الأطراف الصغيرة» و»التعاون مع الطرف الكبير»، حيث أن «التعاون داخل الأطراف الصغيرة» عبارة عن اتحاد الدويلات الست المتبقية لمواجهة دويلة تشين سوياً، أما «التعاون مع الطرف الكبير» فهو عبارة عن التحالف مع دويلة تشين، لأن لا دويلة من الدويلات الست كانت قادرة على التنافس مع دويلة تشين، ولا بد من الاعتماد عليها من أجل حماية الأمن الذاتي.

تجول هؤلاء الاستراتيجيين بين مختلف الدويلات بقدرتهم الفائقة على ممارسة الكلام، سعياً لتحقيق الرخاء، وكان أشهرهم سوتشين وتشانغيي.

لنبدأ من سوتشين، وهو كان طالباً للأستاذ قويقوزي، وبعد ذلك وصل إلى مدينة لويي لطلب اللقاء مع حاكم مملكة تشو، لكن رأيه لم يعجب الحاكم، فعاد إلى منزله بخيبة أمل، لكن عائلته سخرت منه، واعتقدت أنه من الأفضل ممارسة التجارة بدلا من السفر بين مختلف الدويلات والعيش على الكلام، غير أن سوتشين رأى أنه سينجح بالتأكيد.

لذلك بدأ سوتشين في دراسة وقراءة الكتاب الاستراتيجية وأوضاع الدويلات المختلفة بعناية، حتى طعن نفسه ذات ليلة.

وأخيرا تقدم سوتشين كثيراً في دراسته، ثم شرع مرة أخرى في رحلته التي أصبحت ناجحة للغاية، وهو أقنع الدويلات الست على الاتحاد في مهاجمة دويلة تشين استنادا إلى علمه وكلامه، ونتيجة لذلك لم تغز دويلة تشين في الدويلات الأخرى لسنوات عديدة، وعيّنت الدويلات الست سوتشين «الاستراتيجي الكبير»، حينما وصل سوتشين إلى ذروة حياته.

لنتحدث عن تشانغيي الآن.

على غرار سوتشين، تلمذ تشانغيي على يد قويقوزي، وهو ولد في فقر، وأجبر على كسب العيش بالفصاحة. واختار دويلة تشيو في البداية وعمل في مكتب المسؤول لينغين، حيث تعرض لعار حياته.

في وقت من الأوقات فقد المسؤول لينغين قطعة من اليشم، ورأى الآخرون أن تشانغيي هو السارق.

وقالوا إن تشانغيي فقير وغير فاضل، فقبضوا عليه وضربوه وهو كان في حافة الموت. وكان تشانغ يي غير مقتنع بطبيعة الحال وتم إطلاق سراحه في نهاية المطاف.

عاد تشانغيي إلى منزله وكانت زوجته غاضبة وآسفة، وقالت إنك إذا لم تدرس ولا ترغب أن تكون استراتيجياً، فلن تتخلص من هذا الإذلال. غير أن تشانغيي لا يأخذ كلام زوجته في عين الاعتبار وسألها، هل لا يزال لساني موجودا؟ قالت الزوجة، نعم. وقال تشانغيي، فأطمئن.

بعد تكرار التفكير، قرر تشانغيي استنجاد زميله سوتشين، غير أن الأخير اقترح عليه الذهاب إلى دويلة تشين، وكان أميرها هوي قلقا من اتحاد الدويلات الست الأخرى، وفهم تشانغيي قلق الأمير واقترح عليه التعاون مع دويلتي وي ويان لكسر اتحاد الدويلات الست، واكتسب هذا الاقتراح موافقة الأمير على الفور، ثم قرر الأمير تعيين تشانغيي رئيس الوزراء لتولي السلطة العسكرية والسياسية.

في عام 314 قبل الميلاد، حصلت اضطرابات داخل دويلة يان، وانتهزت دويلة تشي الفرصة لغزو دويلة يان واستحوذت مساحة كبيرة من أراضيها، ثم تحالفت مع دويلة تشيو لمواجهة دويلة تشين، مما أقلق أميرها كثيراً. ثم قرر تشانغيي زيارة دويلة تشيو لتدمير العلاقات بين تشيو وتشي. وبعد وصوله إلى تشيو، قدم أموالا كثيرة للوزير المدلل جينشانغ ونال ثقته.

والتقى تشانغيي بالأمير هوي لدويلة تشيو وقال له إن أقوى الدويلات في العالم الآن هي تشيو وتشين وتشى، وبعثني أمير دويلة تشين لعقد الصداقة معكم لزيادة قوة دويلتكم، غير أنه يكره دويلة تشي كثيراً وهو على استعداد لتقديم 300 كيلومتر مربع من أراضيه إلى دويلتكم طالما أعلنتَ قطع العلاقات الدبلوماسية مع دويلة تشي.

صدق الأمير هوي الأحمق تشانغيي ورافقه باقتراحه.

ولكن شك الوزير تشن في ذلك وقال للأمير إن كلام تشانغيي الجميل ناتج عن قلق دويلة تشين لتحالف دويلتنا مع دويلة تشي. وإذا ألغينا التحالف مع تشي، فما العمل في حال عدم التزام أمير دويلة تشين بتعهداته؟ وقال الوزير جينشانغ الذي قد اشترى ثقته تشانغيي قبل الأمر إن دويلة تشين لن تُهدينا الأراضي إذا لم نقطع العلاقات مع دويلة تشي، وكيف يمكن تفويت مثل هذا الشيء الجيد؟

لم يقبل الأمير مقترحه، وقرر قطع العلاقات الدبلوماسية مع دويلة تشي من جهة، ومن جهة أخرى أرسل رسوله لزيارة دويلة تشين مع تشانغيي لتسلم أراضيها، غير أن الأمير هوي لدويلة تشين رفض تسليم الأراضي بحجة أن دويلة تشيو لم تقطع العلاقات الدبلوماسية مع تشي بشكل تام.

وكان الأمير هوي الأحمق لدويلة تشيو أرسل الناس إلى الحدود مع دويلة تشي لإدانة أمير دويلة تشي وإعلان قطع العلاقات معها، مما أغضب الأمير شوان لدويلة تشي، الذي بدأ في الاتحاد

مع دويلة تشين للانتقام من دويلة تشيو، حينما أدركت دويلة تشيو أنها قد وقعت في فخ تشانغيي، ولكن قد فات الأوان.

فشلت دويلة تشيو بشكل تام أمام القوات المشتركة لتشين وتشي، وفقدت 300 كيلومتر مربع من أراضيها، واضطرت إلى طلب السلام مع تشين. وبعد ذلك، تجول تشانغيي بين دويلات تشي وجاو وكسر تحالف الدويلات الست في النهاية، بحيث تكللت جهوده بنجاح دويلة تشين في التعاون مع الدويلات الأخرى، وبلغ تشانغيي إلى ذروة حياته.

31
ارتداء ملابس قبيلة هو والرماية على ظهور الخيول

في العصور القديمة، كان الناس في المنطقة الوسطى يرتدون الملابس ذات الأكمام الطويلة، ولكن في منتصف فترة الدويلات المتحاربة، بدأ الضباط والجنود حتى الأمراء والوزراء ارتداء الملابس ذات الأكمام الضيقة، وقد تخلوا عن استخدام شاحنات الجنود الثقيلة، وبدأوا في الرماية على ظهور الخيول.

ما الذي حصل؟

وكان هو فكرة الأمير وولينغ الثاقب الرؤية والبعيد النظرة لدويلة جاو، وهو وصل إلى سدة الحكم في عام 325 قبل الميلاد، وقرر إصلاح الدويلة وتخليصها من الضعف والعدوان الخارجي، ولكن كيف الإصلاح؟ ظل الأمير يفكر في ذلك.

ذات سنة قاد الأمير وولينغ الجيش لمهاجمة دويلة تشونغشان ودويلة داي شمالا، ووصل إلى ضفة النهر الأصفر غربا، وصعد جبل هوانغهوا، واتضحت إجراءات الإصلاح في رأسه تدريجياً في تلك الحروب.

عندما كان الوقت مناسبا، كشف الأمير عن أفكاره لوزيريه فيي ولوهوان، وقال إن هناك دويلة يان وقبيلة هو شمالنا، ودويلات تشين وهان ولوفان غربنا، ودويلات تشي وتشونغشان شرقنا، وإذا لم نعمل بجد، أخشى أن مصيرنا سوف ينتهي تحت أقدام أعدائنا عاجلا أو آجلا، فلا بد لنا من الإصلاح، ولكن كيف نفعل ذلك؟

أصبح الوزيران صامتين لبعض الوقت، وواصل الأمير في كلامه وقال إننا يمكن التعليم من قبيلة هو ونبدأ في ارتداء الملابس القصيرة والرماية على ظهور الخيول.

أصبح الوزيران مندهشين بمجرد سماع أن الأمير طلب من دويلة الآداب في المنطقة الوسطى أن تتعلم من القبيلة.

وأوضح الأمير أن الملابس الطويلة والعربات العسكرية الثقيلة لن تساعدنا على النجاح في المعركة، غير أن الملابس القصيرة والأحذية الجلدية والرماية على ظهور الخيول نقاط القوة لقبيلة هو، ويجب أن نتعلم منها.

أدرك الأمير في البداية أنه سوف تتعرض للقيود والعراقيل، وقال إنه حتى إذا كان كل الناس يضحكون مني ويعارضونني، يجب أن أكون مصمما على الإصلاح واستحواذ قبيلة هو ودويلة تشونغشان.

اقتنع الوزيران واتفقا على مساعدة الأمير على الإصلاح.

من أجل تعزيز الإصلاح، بدأ هم الثلاثة في ارتداء ملابس قبيلة هو، مما أثار معارضة كبيرة، حيث برز صوت المعارضة من الأعلى إلى الأسفل، وقال بعض المسؤولين الذين يلتزمون بالصور النمطية القديمة إنه من غير النظامي والمعقول للأمير ارتداء ملابس قبيلة هو.

كما أن الوزير تشنغيي عم الأمير لم يوافق على الإصلاح ورفض حضور الاجتماعات في القصر الملكي. ووجد الأمير أن الإصلاح أمر صعب وعسير، ثم تشاور مع الوزيرين. واستنادا إلى التجربة الغنية، قال الوزيران إنه لا يمكن التردد في الإصلاح، حيث لن يأتي التردد بالنجاح والسمعة.

بعد الاستماع إلى كلام الوزيرين، قرر الأمير الإصلاح حتى النهاية.

من أجل تنفيذ الإصلاح بسلاسة، قرر الأمير إقناع عمه أولا. وزاره بارتداء ملابس قبيلة هو في يوم من الأيام، ولكن قال عمه إنني ألتقي بالأمير فقط، ولا عناصر القبيلة، فالرجاء الرجوع.

لم يتراجع الأمير بل تحدث إلى عمه عن تفاصيل فوائد ارتداء الملابس القصير والرماية على ظهور الخيول، وقال إن الإصلاح لا يهدف إلى إهمال الثقافة التقليدية والمسّ بكرامة الوطن، بل يهدف إلى تحسين القدرة القتالية وتقوية دويلتنا، فما الخطأ في ذلك؟

تأثر عمه بهذا الكلام واقتنع بالأمير، حيث ازدادت ثقة الأمير بنجاحه في الإصلاح، وأصدر أمرا وطنياً لارتداء ملابس قبيلة هو لكل الناس في الدويلة، وبدء الجنود يتعلمون الرماية على ظهور الخيول. ولم يعارض كبار المسؤولين هذه المرة عندما رأوا أن عم الأمير تشنغيي قد بدأ ارتداء ملابس قبيلة هو، وعلاوة على ذلك، قد شعر كثير من الناس براحة ملابس قبيلة هو بالفعل.

ساهم هذا الإصلاح في تقوية دويلة جاو عسكرياً، حيث تم تكوين قوات قوية خلال أقل من عام، وقادها الأمير في خضوع كل المعارك من شمال الدويلة إلى جنوبها، ونجح في كلها، ثم ازدادت شهرة دويلة جاو، وحتى أن دويلة تشين القوية لم تجرؤ على تجاولها.

قرر الأمير مواجهة دويلة تشين، وتسليم العرش إلى ابنه الأمير هوي، لكنه لم يتخل عن إدارة شؤون الدويلة بل قرر الذهاب إلى دويلة تشين بنفسه للتحقق من وضعها وصنع السياسات المناسبة لمواجهتها، وهو تظاهر كرسول دويلة جاو ورسم خريطة دويلة تشين التفصيلية على طول الطريق. وعندما وصل إلى مدينة شيانيانغ، التقى بالأمير جاوشيانغ لدويلة تشين، وأخبره عن تناوب السلطة في دويلة جاو.

كان الأمير جاوشيانغ لدويلة تشين معجب جداً بهذا الرسول.

وبعد بضعة أيام، وجد الأمير جاوشيانغ أن الرسول قد راح وأدرك أنه هو أمير هولينغ والد الأمير الحالي لدويلة جاو، وأمر بالالتحاق به، غير أنه قد دخل إلى حدود دويلة جاو. وقد أدرك الأمير وولينغ أن دويلة تشين ليس لها الرغبة في مهاجمة دويلة جاو، وإن الأخيرة لم تمتلك القوة لمهاجمة دويلة تشين أيضاً، فقرر مواصلة ضرب الدويلات الصغيرة الأخرى لزيادة القوة الذاتية.

32

بحث الأمير جاو لدويلة يان عن أصحاب الكفاءة

قبل أن نتحدث عن هذه القصة، يمكننا إعادة النظر في قصة أخرى.

ويقال كان الأمير شوان لدويلة تشي يحب الاستماع إلى الموسيقى بآلة يو التي عزف عليها 300 شخص في آن واحد، وكان هناك رجل باسم نانقو لم يعرف كيفية العزف على آلة يو الموسيقية ولكن قد تسلل إلى الفرقة الموسيقيه.

وبهذه الطريقة، عمل نانقو في الفرقة الموسيقية لعدة سنوات وعاش حياة غنية. وبعد تسليم الأمير مين للعرش، قرر الاستماع إلى الموسيقي الفردية بدلاً من الجماعية، فغادر نانقو سريا.

وإضافة إلى القصة المذكورة أعلاه، إن القصة التالية لها صلة بالأمير شوان والأمير مين لدويلة تشي.

حدث فوضى في دويلة يان في سنة من السنوات، واستغل الأمير شوان لدويلة تشي تلك الفرصة لإرسال قواته لاحتلال أكثر من عشر مدن لدويلة يان.

بعد الانتصار، سأل الأمير شوان الفيلسوف مينسيوس، وقال إن هناك من نصح عليّ استحواذ دويلة يان، ويرى البعض الآخر عكس ذلك، وفي رأيي، نجحتُ في إفشال دويلة يان الكبيرة خلال أكثر من 50 يوماً فقط، وهو إنجاز صعب المنال بالنسبة للآخرين، وإذا لم أستحوذها الآن، سوف أخالف إرادة السماء، أليس كذلك؟

وقال منسيوس مباشرة إنه يمكن استحواذها طالما كان شعب دويلة يان في ارتياح، وعدم فعل ذلك إذا كان شعبها غير راض من ذلك.

لم يهتم الأمير بمقترح منسيوس ولا إرادة الشعب، وكان الشيء الوحيد الذي يهمه هو النجاح في المعركة، وإن إهماله لإرادة الشعب جعله يفقد المدن التي قد استحوذها في دويلة يان، حيث قام جيش دويلة تشي بما شاء بشكل عشوائي بعد احتلال المدن وتجاوز حدود تحمل الشعب المحلي، الذي قرر مطاردته من دويلة يان ونجح في ذلك في النهاية. غير أن دويلة يان أصبحت من دويلة قوية إلى دويلبة ضعيفة، وبعد وصول أميرها جاو إلى سدة الحكم، قام بالبحث عن أصحاب الكفاءة لإعادة المكانة القوية للدويلة.

كان هناك وزير في دويلة يان واسمه قووي وهو رجل يجمع بين الكفاءة والأخلاق الحميدة.

زاره الأمير جاو بنفسه وقال له بصدق إن الدويلة ضعيفة في الوقت الحالي، وهي غير قادرة على الانتقام من دويلة تشي القوية، غير أننا لن ننسى العار الذي أتت دويلة تشي به إلينا، ولكن قد يكون الانتقام ممكنا لو ساعدني وزراء الكفاءة، وهل يمكنك أن تعلمني كيفية العمل؟

لاحظ الوزير قووي صدق الأمير، وابتسم وقام، لأروي لكم قصة أولا.

وقال، كان هناك خيل نفيس منذ زمن بعيد قادر على قطع ألف ميل يومياً، وهو يسمى خيل الألف ميل، وكان هناك أمير سمع عن الأمر وأرسل الناس للبحث عن ذلك الخيل، ولم ينجح في ذلك بعد مدة طويلة، وسمع أحد وزرائه يوماً من الأيام أنه يمكن شراء الخيل بألف كيلوغرام من الذهب في مكان، وكان الأمير مسروراً للغاية وبعثه للشراء، ولم يكن في حسبانه أن الخيل قد مات بعد وصول الوزير، ثم اشترى الوزير عظام الخيل، وكان الأمير غاضباً للغاية وتساءل، أنا أريد الخيل الحي، لماذا اشتريت عظام الخيل الميت؟

قال الوزير، لا تقلق، إذا سمع الناس أنك أنفقت الكثير من المال لشراء عظام الخيل، فهل الخيل الحي بعيد عنا؟ وكما توقع الوزير، عرف الناس أن الأمير يحب خيل الألف ميل كثيراً بعد ذلك الحادث، وأرسل شخص ما خيلاً حيا للأمير خلال عام.

انتهى الوزير قووي في قصته وقال له، إذا كنت تريد حقاً تجنيد أشخاص موهوبين، أنا على استعداد لأكون عظام خيل الألف ميل لك. وإذا عرف الناس أنك تهتم بي كثيراً، فهل يبعد أصحاب الكفاءة عنا؟

شعر الأمير جاو أن كلام الوزير معقول جداً، فعامله بصدق وإخلاص، وأمر ببناء منزل فاخر له واستمع إلى مقترحاته بتواضع، وبدأ كل الناس يعرفون أن أميرهم يحتاج إلى أصحاب الكفاءة، ثم يأتي عدد كبير منهم من جميع الاتجاهات، وكان أشهرهم الخبير العسكري لهيي.

وكان لهيي رسول الأمير جاو لدويلة وي، وزار دويلة يان ذات مرة.

كان الأمير جاو لدويلة يان معجباً بالموهبة العسكرية لرسول دويلة وي، وتعامل معه كالضيف الكريم، وقرر لهيي البقاء لخدمة دويلة يان، وسلم إليه الأمير جاو السلطة العسكرية، وازدادت القوة العسكرية لدويلة يان بشكل سريع، وأصبح الجيش قوياً ومدرباً خلال فترة قصيرة.

وفي الوقت نفسه زادت الأمير مين لدويلة تشي غطرسة، وسأل الأمير جاو لهيي، يعاني شعب دويلة تشي من القمع والاستغلال، حيث فقد الأمير مين ثقة شعبه، فهل حان وقت الانتقام؟

قال لهيي إن دويلة تشي ما زالت قوية، ورغم امتلاكنا للجيش القوي، من الصعب علينا أن نفوز بقوة بلد واحد فقط، وأفضل طريقة هي التعاون مع الدويلات الأخرى.

وافق الأمير جاو واتحد مع دويلات جاو وهان ووي وتشين لمهاجمة دويلة تشي في عام 284 قبل الميلاد.

لم يعد الأمير مين لدويلة تشي متغطرساً أمام مهاجمة الدويلات الخمس، واستعجل في التجنيد والمواجهة، غير أن التحالف العسكري نجح في المعركة خلال وقت قصير تحت قيادة الجنرال لهيي، فاضطر الأمير مين إلى الفرار، وقتل في مدينة جو في النهاية.

وأخيرا ابتلع الأمير مين لدويلة تشي الثمرة المرة التي قطفها والده الأمير شوان.

33

استعمال تياندان لأبقار النيران

نعرف أن جو قهليانغ المعروف بحكمته قال إن نفسه مثل قوان وله، ويشار قوان هنا إلى قوان جونغ، أما له فهو يشير إلى لهيي الذي تم ذكره في الفصل السابق.

وهو كان جنرالا شهيرا في عهد الدويلات المتحاربة، حيث احتل أكثر من 70 مدينة لدويلة تشي خلال أقل من نصف عام، ولم تبق سوى مدينتين في دويلة تشي وإحداهما مدينة يينغتشنغ، أي محافظة دونغيينغ بمقاطعة شاندوانغ، والأخرى مدينة جيمو، أي محافظة بينغدو بالمقاطعة.

أشار سونوو في كتاب «فن الحرب» إن أفضل طريقة لمحاربة العدو هي استخدام الاستراتيجية، وتليها الدبلوماسية، ثم القوة، وأخيرا المهاجمة المباشرة. وكان لهيي كقائد عسكري شهير يعلم ذلك تماماً، ويدرك أن الهجوم لا يمكن أن يعتمد فقط على القوة، ولكن أيضاً على كسب ثقة الشعب المحلي، ففي حال عدم استقرار قلب شعب تشي، يمكن احتلال المدينتين المتبقيتين دون الهجوم، لذلك أمر الجنود بعدم مضايقة وإزعاج شعب تشي، وفي الوقت نفسه بإلغاء عقوبات التعذيب التي فرضتها دويلة تشي والحد من الضرائب من أجل نيل ثقة الشعب.

في وقت تكريس لهيي في المعركة، قام بعض الناس في دويلة يان باختلاق الوقائع، وقالوا للأمير جاو إن المعركة كانت في البداية سلسة للغاية، لكنها الآن صعبة بسبب مجرد مدينتين متبقيتين، وليس ذلك فحسب، هو قد اتخذ أيضاً تدابير مختلفة لنيل ثقة الشعب المحلي، ومن المؤكد أنه يريد أن يكون أمير دويلة تشي نفسه.

كان الأمير جاو يثق بلهيي كثيراً واتهم الإشاعات وقال، يعمل الجنرال لهيي على محاربة دويلة تشي للانتقام لي، وإذا كان يريد حقاً أن يكون الأمير، فهو يستحق ذلك، وإذا أصبح أمير تشي،

يمكن للجانبين التحالف من أجل مقاومة الأعداء معاً.

بعد ذلك، عاقب الأمير المختلقين، ثم أرسل رسالة إلى لهيي قال فيها إنه سوف يعينه أمير تشي، وكان الأخير شاكر للغاية، لكنه رفض اللقب. يمكن أن نرى أن الأمير جاو أمير حكيم، لكن ذلك لا يعني أن وريثه سوف يكون مثله، وبعد وفاته، تأثر أمير هوي الجديد بإشاعات الشرير، وقرر استدعاء لهيي وحل الجنرال تشيجي محله.

كان لهيي يدرك أن العودة عبارة عن الموت، واضطر إلى الفرار إلى دويلة جان في يأس.

كان الجنرال لم يعرف شيئاً إلاّ الهجوم العشوائي، في حين أن القائد العسكري للدفاع عن مدينة موتشنغ الجنرال داتيان مشهوراً للغاية، وهو كان لا يجرؤ على مواجهة جيش يان عندما كان جنراله هو لهيي، لكنه رأى أن وقت الانتقام قد حان بعد تحويل الجنرال.

وكيف سيتم تحقيق الانتصار أمام الجيش القوي لدويلة يان؟

استخدم تياندان معنويات الناس الذين آمنوا بالسماء والأشباح في ذلك الوقت ليؤلف فقرة من الكلام متمثلة في أن نهضة دويلة تشي وسقوط دويلة يان من إرادة السماء، وأمر جنوده بتعليق الطعام على سقف المباني لجذب الغربان والعصافير في مجموعات. ونتيجة لذلك، رأى جيش يان جون أن الطيور تجمعت فوق المدينة، وظن أن السماء تساعد دويلة تشي، وتراجعت معنويته.

كما أمر تياندان بنشر الإشاعات التي قالت إنه إذا قام جيش يان بقطع أنوف أسرى تشي، إن شعب تشي سيخاف ويستسلم. وكان تشيجي الأحمق يصدّق الإشاعات وقام بقطع أنوف الأسرى بشكل وحشي وحفر جثث أسلاف تشي من المقابر، مما أثار غضب شعب تشي بشكل تام، الذي قرر الدفاع عن النفس والعزم على القتال حتى آخر لحظة.

كان تياندان يجيد استعمال الرأي العام للناس، وأمر بجمع ألف رأس من الأبقار من كل المدينة، ووضعها في الملابس الملونة، وتعادل على قرونها سيوف حادة، وعلى ذيلها القصب بالزيت.

في وقت متأخر من تلك الليلة، جاء جيش تشي بالأبقار إلى خارج المدينة، ثم أشعل الزيت بالقصب، وأصبحت الأبقار مندهشة وخائفة، ومندفعةً نحو معسكر جيش يان لا تلوي على شيء.

استيقظ جنود يان في صوت القتال والأبقار، ولم يكن لديه وقت لارتداء الملابس، واستعجلوا لأخذ الأسلحة للمواجهة. غير أن الأبقار كانت مجنونة وضربت الناس بشكل عشوائي وأشعلت المخيمات.

وقد سمع جنود تشي أن السماء تساعد جيش يان قبل المعركة، وأمام الأبقار المجنونة والأعداء الأقوياء، حسبوا أن هناك آلهة حقيقية قد أتت لمساعدة جيش يان، وأصبحوا خائفين وفروا في الفوضى، وقتل معظمهم في الفرار. وقام تياندان بمواصلة المطاردة ونجح في استعادة المدن المفقودة واحدة تلو الأخرى. وبهذه الطريقة، انتهت المعركة وأنقذ تياندان دويلة تشي بأبقار النيران. أما أمير هوي لدويلة يان الذي وثق بإشاعات الشرير، فهو ندم كثيراً من إقالة الجنرال لهيي.

والجدير بالذكر أن الأمير أرسل رسالة إلى لهيي الذي قد فر إلى دويلة جاو لاتهامه وإدانة فراره، وربما كان لهيي لم يفعل شيئاً إلاّ أن يبتسم ابتسامة مرة بعد قراءة الرسالة.

ومع ذلك، قال لهيي بهدوء في الرسالة للأمير إن الرجل النبيل لن يبرز نفسه ويدين غيره عند قطع العلاقات مع الآخرين، والوزير الموالي لن يغز الإنجازات إلى نفسه والأخطاء إلى أميره بعد مغادرة الوطن، وعلى الرغم من أنني لست موهوبا، أتابع هذا المبدأ، وأنا قلق من تأثرك بالإشاعات وعدم معرفة سلوكي، وأرجو منك رؤية الحقيقة بعد قراءة رسالتي.

34
قفز تشويوان في النهر

هناك قصيدة تصف تشويوان كما يلي:

نتقدم على الطريق بشعر طويل، وفي السماء طيور تحت أشعة الشمس قبل الغروب، يبدو أنك تعبان، وتسلك الطريق المتعرج وأصبحت ضعيفاً، وأصبح شوقك للوطن مجلدا، وإن الرجل في المنفى سيكون سكرانا بالخمر في صدرك؟

تفرقت السحب وتذبذبت مياه النهر والشوق للوطن في الرياح الخفيفة، وفي مشهد القمر الصامت والنهر الهادئ، ألا الرجل يشعر بالعزلة والوحدة؟

راح الصياد وهو لم يتمكن من فهم تفانيك، وأصبح كل الناس في العالم في حالة سكر، وأنت ما زات في يقظة بسبب الحزن في قلبك، وأخيرا قفزت في نهر نيلو وتتدفق مع مياه النهر، الذي رسم معاناة دويلة تشيو عبر التاريخ.

فما هي القصة عن تشويوان بالفعل؟

ازدادت قوة دويلة تشين بعد تنفيذ الإصلاح من قبل شانغيانغ، وإن القوة عبارة عن الاحتلال في عهد الدويلات المتحاربة، حيث هاجمت دويلة تشين نظيراتها بين حين وآخر على رأسها دويلة تشيو. وفي يوم من الأيام، تلقى الأمير هواي لدويلة تشيو رسالة من الأمير جاوشيانغ لدويلة تشين الذي دعاه فيها إلى عقد علاقات التحالف في مدينة ووقوان.

أصبح الأمير هواي مترددا، وهو قلق من سخط أمير دويلة تشين في حال عدم حضوره، ومن سلامة نفسه في حال حضوره.

لذلك دعا الوزراء لمناقشة هذه المسألة، وكان موقف الوزير تشويوان ثابتا للغاية حيث قال إن دويلة تشين شرسة وغير موثوق بها، فيجب عليك عدم الحضور. غير أن ابن الأمير الأصغر زيلان قال إن دويلة تشين قوية، ويريد أميرها التعامل معنا بصدق، وكيف يمكننا رفض ذلك؟

في النهاية وافق الأمير على ابنه وقرر الذهاب إلى مدينة ووقوان.

نصب أمير دويلة تشين الشرير الكمين على الطريق الحتمي لأمير دويلة تشيو، وتم القبض عليه بمجرد دخوله إلى حدود مدينة ووقوان. وبعد الوصول إلى عاصمة دويلة تشين، طلب أميرها من أمير دويلة تشيو التنازل عن بعض الأراضي لصالح دويلة تشين، ورفض ذلك الأمير هواي الغاضب. ونتيجة لذلك، تم حبسه منذ ذلك الحين في دويلة تشين، وهو حاول الفرار مرة ولكن لم ينجح، وتوفي بعد مدة من ذلك غضبا.

أثناء الإقامة الإجبارية له في دويلة تشين، دعا وزراء دويلة تشيو إلى تسلم ابن الأمير الأكبر للعرش وهو الأمير تشينشيانغ، أما شقيقه الأصغر زيلان فهو أصبح رئيس الوزراء.

انتشر خبر وفاة أمير دويلة تشيو في دويلة تشين، كان أكثر الناس حزنا وغضباً هو تشويوان، وبدأ إقناع الأمير الجديد على تعيين الأكفاء والتباعد عن الشرير وتعزيز قوة الدويلة والانتقام من دويلة تشين، ومع ذلك، لم يُفهم قلبه الصادق وهو أثار كراهية رئيس الوزراء زيلان، الذي دائما قام باختلاق الوقائع أمام الأمير. ومع مرور الوقت، وثق الأمير بإشاعات الشرير وقرر إقالة تشويوان.

ربما إن الشيء الأكثر إيلاما في العالم هو الشك في الولاء.

كان تشويوان غاضباً وحرجا من تملّق واختلاق الآخرين لولائه، ولم يتراجع قلقه لمصير الدويلة والشعب على الرغم من نفيه، وهو كان يسكن بجانب النهر، وألّف العديد من القصائد والأغاني للتعبير عن عزمه وولائه، وقلقه من عدم فهم الأمير له، وكراهيته للشرير، غير أن ولاءه في عيني الأمير لا يستحق الذكر.

في يوم من الأيام، أتى تشويوان إلى ضفة نهر شيانغشوي، وهو بدا ضعيفاً ورقيقا.

قدم إليه صياد وسأله، ألست الوزير؟ لماذا أصبحت مثل هذا؟ أجاب تشويوان أن جميع الناس مختلقو الوقائع، وأنا الوحيد في نزاهة، وجميع الناس مخمورين، وأنا الوحيد في يقظة، وهذا هو سبب منفي. وقال الصياد مع رثاء إن الرجل الحكيم يتغير مع تغير الأوضاع، وقلتَ إن جميع الناس مختلقو الوقائع، فلم لا تختلق نفسك، وإن جميع الناس مخمورين، وفلم لا تخمر نفسك؟

لم يوافق تشويوان على ذلك وقال إنه على الناس إزالة الغبار على القبعة بعد تمشيط الشعر، وإزالة الغبار على الملابس بعد الاستحمام، وأنا أفضل أن أغرق في نهر شيانغجيانغ وأن أدفن في بطن السمك، بدلا من إغراق نزاهتي في القذارة.

ابتسم الصياد وغادر بدون أي كلام، ووقف تشويوان على ضفة النهر واستمع إلى صوت المياه المتدفقة، وازداد حزنه ويأسه وفراغ قلبه تدريجياً.

كتب تشويوان في المنفى قصائد «ليساو» و»شيجيانغ» و»جيووين»»، لكن القصائد لا تستطيع إنقاذ قلبه الرقيق والضعيف، وهو كان يتطلع ليلاً ونهاراً إلى اللحظة التي استيقظ فيها الأمير تشينشيانغ، ولكن في النهاية وصله خبر غزو جيش دويلة تشين لعاصمة دويلته يينغدو.

كان تشويوان يائساً تماماً.

في الخامس من مايو للتقويم القمري الصيني من عام 278 قبل الميلاد، أتى تشويوان إلى ضفة نهر ميلوجيانغ، وهو بدا ضعيفاً ويائسا، واستدار ونظر إلى الوراء باتجاه عاصمة يينغدو، وثم تنهد وقفز إلى النهر، وعبّر عن شوقه لدويلة تشيو بوفاته.

لم ينس الناس الخامس من مايو يوم وفاة تشويوان، ولذكرى هذا الشاعر العظيم قرر الصينيون تسمية هذا اليوم كيوم قوارب التنين، حيث يُقبلون على أكل بودينغ الأرز التقليدي وإجراء سباق قوارب التنين، وقد امتدت ذكرى وحزن الناس لتشويوان لأكثر من 2000 سنة حتى الآن.

35

تحمل فانسوي للعار

في التكتيكات الستة والثلاثين، هناك تكتيك يسمى «تطوير العلاقات مع الطرف البعيد ومهاجمة الطرف القريب».

وهو مطروح من قبل فانسوي في كتاب «سياسة الدويلات المتحاربة»، وهو كان وزيرا بعيد النظرة في دويلة تشين، وفي عام 270 قبل الميلاد، طرح فانشوي هذا التكتيك للأمير جاوشيانغ قبل محاربة الأخير لدويلة تشي البعيدة، وطرح ضرورة تطوير علاقات الصداقة مع الدويلات البعيدة، ومهاجمة الدويلات القريبة، من أجل الحصول على أراضيها شبرا بعد الآخر.

تأثر الأمير بهذا الخطاب كثيراً.

وكانت دويلة تشي قوية وبعيدة عن دويلة تشين، ولا بد من عبور دويلتي هان ووي من أجل محاربتها، ومن الصعب الوصول إليها، ناهيك عن احتلال أراضيها عن بعد حتى ولو نجحت دويلة تشين في المعركة، وفي هذه الحالة، من الأفضل مهاجمة دويلتي هان ووي أولا لتحقيق التقدم التدريجي.

انطلاقاً من اقتراح فانسوي، بدا أن الأمير جاوشيانغ قد شهد مشهد توحيد الدويلات الست الأخرى، وأثبتت الحقائق أن هذا ليس وهما، وسوف يتحقق بعد أكثر من ثلاثين عاما. وبالطبع كان هذا هو تصور في ذهن الأمير.

فيما يلي دعونا نقرأ قصة حول فان يي الذي اقترح هذه الخطة.

بالنسبة إلى فانسوي، كانت أكثر الأحداث التي لا تُنسى هي العار الذي تعرض له في دويلة وي. وهو كان في البداية يريد خدمة أميرها بكفاءته، وعمل في منزل الوزير شوقو.

وذات مرة زار الوزير شوقو دويلة تشي برفقة فانسوي، ووجد أمير دويلة تشي في اللقاء أن المرافق للوزير شوقو لديه قدرة بارزة في المناقشة والتفاوض، وأمر بمكافأته بالأموال والمجوهرات، وبطبيعة الحال لم يجرؤ فانسوي على قبول ذلك. ولكن أصبح الوزير شوقو غاضباً بعد معرفة الخبر، واتهم فانسوي بأنه سرّب أسرار الدويلة، وذلك هو سبب المكافأة من قبل أمير دويلة تشي.

على الرغم من أن الوزير ليس رجل شريرا، لكنه رجل تنقصه الكفاءة والقدرة والحكم الأساسي لمعرفة كفاءة الآخرين.

ولم ينته الأمر بعد، حيث أبلغ الوزير شوقو بالأمر رئيس الوزراء ويتشي بعد عودته إلى دويلة وي، مما أثار سخط الأخير، وأمر بتعذيب فانسوي وإهانته بكل الطرق المتاحة، وحتى انكسرت ضلوعه وأسنانه، وقال رئيس الوزراء إن العقاب يتطابق مع جميع الناس الذين يسربون أسرار الدويلة.

تظاهر فانسوي بالموت تحت الألم الشديد، ومع ذلك، لم يعفه ويتشي وأمر بإلقاء جثته إلى خزان الفضلات، حيث يمكن أي شخص التبول على جثته بشكل عشوائي.

من الصعب أن نتصور ما الذي كان فانسوي يفكر في ذهنه في مثل هذا العار والمأساة؟

هل تتصاعد الكراهية الشديدة والرغبة القوية في البقاء على قيد الحياة في آن واحد؟ وقد بدأ فانسوي يدرك في خزان الفضلات الوسخ ضرورة تسلق الناس حتى القمة، وإلا فسوف يتم قمعهم وتعذيبهم مثل النمل، غير أن الشرط الأساسي للتسلق هو الاستمرار في البقاء على قيد الحياة.

وأخيرا وجد فانسوي فرصة النجاة، وتوسل مع الحارس لإطلاق سراحه، وكان الأخير يتعاطف معه، ثم سأل الأمير ويتشي إمكانية رمي الجثة إلى الخلاء، وكان الأمير في مأدبة عشاء على شرف الضيوف وفي حالة سكر، ووافق مع الحارس.

وبهذه الطريقة، تمكن فانسوي من الهروب من المعاناة وذهب إلى مكان بعيد جداً بمساعدة صديقه تشنغ، وهو مثل الوحش مع الجرح، ورقد في الكهف، وتحمل العار وانتظر الفرصة.

لم يمض زمن طويل وحان وقت الصعود لفانسوي.

وزار رسول دويلة تشين دويلة وي، حيث اقترب تشنغ عمدا منه ورشّح فانسوي له، وقام الرسول بالتحدث معه في الليل، ووجد أنه رجل الكفاءة والقدرة، ثم أحضره سرا إلى دويلة تشين، حيث سوف يشرع فانسوي في رحلته المجيدة.

برزت كفاءة فانسوي في دويلة تشين وحظي بثقة أميرها، وصعد إلى منصب رئيس الوزراء، وأصبح رجلا يقرر اتجاه الرياح والأمطار على الساحة السياسية لدويلة تشين، وحقق إنجازات عديدة في المعارك وتوسع دويلة تشين.

بالطبع، فان فانسوي لم ينس العار الذي عانى منه، حيث ظل يبحث عن فرص للانتقام. وذات سنة، مد فانسوي سيف الانتقام إلى الوزير شوقو الزائر للدويلة تشين، وهو ارتدى الملابس القذرة عن عمد، وأتى بسهولة إلى غرفة شوقو.

تفاجأ وصُدم شوقو برؤيته وقال، ألست فانسوي، وكيف حالك؟

كان شوقو لا يستطيع أن يتأكد من هوية فانشوي أم لا، وهو رجل غير شرير أصلاً، ودعا فاسوي إلى تناول الطعام معه، وأهداه بدلة حريرية، ولم يكن له أي علم أن نواياه الحسنة في هذا الوقت سوف تسحبه من حافة الموت، وإن تلك البدلة الحريرية هي التي أنقذت الحياته.

بعد ذلك، تم الكشف عن الجواب بعد تغيير فانسوي لملابسه.

أخيرا عرف شوقو أن فانسوي قد أصبح رئيس الوزراء الشهير لدويلة تشين، وهو شعر بدوران طفيف وتنهد في قلبه، وقد توقع وفاته وسقوط دويلة وي والوزير ويتشي.

لكنه نجا من الوفاة بسبب البدلة الحريرية، وقام فانسوي بتعذيبه وطلب منه إخبار أمير دويلة وي بضرورة تسليم رأس الوزير ويتشي إلى دويلة تشين، إلاّ أنه سوف يقهر عاصمة دويلة وي داليانغ.

عاد شوقو إلى دويلة وي وأبلغ الأمير عن الامر، مما أثار أطراف الحديث في كل الدويلة قيادة وقاعدة، والأجنحة الرقيقة لأمير دويلة وي لم تكن قادرة وكافية على حماية ويتشى، واضطر الأخير إلى الهروب إلى دويلة جاو واستنجد الوزير بينغيوان واختبأ في منزله. غير أن فانسوي لم يتوقف في الانتقام ودعا أمير دويلة تشين له وزير دويلة جاو بينغيوان إلى زيارة دويلة تشين

واحتجزه، ثم أرسل رسالة إلى أمير دويلة جاو، حيث طلب منه تسليم رأس ويتشي، وإلا فإنه سوف يحارب دويلة جاو.

كانت دويلة جاو لم تكن قادرة على حماية ويتشي، واضطر الأخير إلى مواصلة الهروب مثل كلب مشرّد.

وأخيرا قتل ويتشي نفسه في اليأس، وقبل الموت قد يكون غير راغب في التفكير في كيفية نجاة النملة في دورة المياه والتي أصبحت عملاقا يغلب عليه الآن. وفي هذه اللحظة، كان ويتشي يشبه نملة أيضاً في عيون فانسوي، حيث أن حزن النمل غير معروف دائما لدى الآخرين.

36
معركة تشانغبينغ

استخدم الأمير جاوشيانغ تكتيك «تطوير العلاقات مع الطرف البعيد ومهاجمة الطرف القريب» المطروح من قبل فانسوي ونجح في إجبار دويلة وي على البحث عن السلام معه.

وهاجم دويلة هان بعد ذلك في عام 262 قبل الميلاد.

حيث احتل جيش تشين منطقة ياوانغ لدويلة هان واقترب من منطقة شانغدانغ، واضطر قائد الجيش في المنطقة إلى إعلان الولاء لدويلة جاو لاستنجادها، وكان الأمير شياوتشنغ لدويلة جاو مسروراً للغاية بعد معرفة الخبر وقرر إرسال القوات للمساعدة.

لم تتزعزع عزيمة دويلة تشين في مواصلة مهاجمة منطقة شانغدانغ، وأرسل الجنرال وانغخه لشن الهجوم العنيف على المنطقة، ونجح الأخير في ذلك وقرر التقدم نحو دويلة جاو. وكان جنرال دويلة جاو ليانبو يتربّص في منطقة تشانغبينغ، التي تقع الآن شمال غرب مقاطعة شانشي. وكان ليانبو غنياً في التجربة وأمر الجنود ببناء الحصن للمواجهة بدلاً من القتال.

كان جيش جاو يتبنى اليقظة أمام هجومات جيش تشين عدة مرات.

تقللت الإمدادات لجيش جاو يوماً بعد يوم، مما أثار قلق الجنرال وانغخه، ودعا أمير دويلة تشين إلى الانسحاب، وأمر الأمير فانسوي بمعالجة هذه المسألة الشائكة، وأدرك فانسوي أن أكبر صعوبة أمامه هو الجنرال ليانبو، ولا بد من إقصائه من أجل الحصول على الفوز في المعركة.

لذا من ينبغي أن يحل محل فانسوي؟

خطر في بال فانسوي الجنرال تشاوكو وهو ابن الجنرال المشهور تشاوشه من دويلة جاو، وكيف جعل تشاوكو يحل محل ليانبو؟ أمر فانسوي بنشر إشاعات في دويلة جاو قالت إن ليانبو

المسن قلق من الجنرال الشاب تشاوكو، وإن الأول عرف كيفية المقاومة فقط وليس الهجوم.

سرعان ما انتشرت هذه الإشاعات في القصر، واستدعى الأمير شيانتشنغ الجنرال تشاوكو وسأله عن سبل مهاجمة العدو، وقال الأخير بلا خوف إن جميع الجنرالات في دويلة تشين لا يستحقون الذكر ما عدا الجنرال باتشي، وأنا سوف أغلب عليهم طالما ترأست القوات لشن الهجوم على الأعداء.

كان الأمير سعيداً للغاية بعد سماع كلام تشاوكو.

ثم قرر إرسال تشاوكو وجعله يحل محل الجنرال ليانبو، حيث عارضه الوزير لينغشيانغرو بشدة وقال، لا يمكن تعيين تشاوكو الشاب بسبب سمعته وعلمه لفن الحرب، وليس له بما فيه الكفاية ليكون مؤهلا كجنرال صارم وناجح، بالإضافة إلى أن الإشاعات قد تكون تكتيك دويلة تشين، ويجب أن تكون حذرا.

لم يهتم الأمير بكلامه.

طلبت والد تشاوكو اللقاء بالأمير وقالت إن ابنها لا يمكن أن يكون الجنرال.

سألها الأمير عن سبب ذلك، وقالت، سبق لوالده أن قال إن قيادة الجيش والمحاربة أمر يهم الحياة، غير أنه مثل لعبة في عيني تشاوكو، ومن المؤكد أنه سوف يفشل في القتال. وبالأحرى كان والده وزع مكافآت الأمير على الجنود، لكنه أخفى كل المكافآت في المنزل، وقام بالبحث عن الحقول الزراعية الجيدة وبناء البيوت الجميلة، فهو غير مناسب ليكون الجنرال.

ابتسم الأمير ولم يأخذ كلامها في عين الاعتبار.

في عام 260 قبل الميلاد، جاء تشاوكو إلى منطقة تشانغبينغ مع قوات ضخمة وثقة الأمير وحل محل الجنرال ليانبو. وفي الوقت نفسه، انطلق الجنرال الشهير لدويلة تشين بايتشي إلى منطقة تشانغبينغ بهدوء لحل محل الجنرال وانغخه، حيث سوف تبدأ معركة الحسم بين الجانبين.

في رأي تشاوكو، إن تكتيكات ليانبو متحفظة للغاية، فقرر شن الهجوم العنيف في حال اعتداء جيش تشين من جديد.

كان تصوره جميلا، لكن الواقع قاس جداً. ونجح جيش جاو أمام اعتداء جيش تشين، مما ازدادت سعادة تشاوكو، ونجح من جديد في اعتداء الأخير بعد بضعة أيام، وقرر تشاوكو الذي غمر في موجة السرور المطاردة والملاحقة، ولم يكن في حسبانه أنه سوف يقع في فخ الكمين للعدو.

وأصبح تشاوكو الذي يجيد النظرية بدلاً من العملية عاجزا في المأزق الجديد، وبدأ في بناء الحصن على غرار ليانبو وفي انتظار الإنقاذ. ومع ذلك، فقد تم استنفاد القوات الرئيسية لدويلة جاو، حيث تم اعتراض الجنود الذين جاءوا للإنقاذ من قبل جيش تشين. واضطر جيش جاو إلى قتل الخيول للأكل بعد أكثر من شهر تحت حصار جيش تشين، ولكن سرعان ما قتل جميع الخيول.

قرر تشاوكو اختراق حصار العدو، لكن محاولاته باتت بالفشل أمام اعتراض جيش تشين.

في النهاية، قبل تشاوكو في أمطار الأسهم، واستسلم أكثر من 400 ألف جندي من جيش جاو أمام جيش تشين، وكان مصيرهم مأساوياً، حيث قُتل أغلبيتهم ولم يبق منهم سوى المئات. وهذه هي «معركة تشانغبينغ» الشهيرة في التاريخ، التي جعلت تشاوكو سخط الحديث للناس على مر العصور، أما الجنرال بايتشي من دويلة تشين فهو متهم بـ ¡°صنع المذبحة¡± أيضاً. وقد أصبح الجنود الـ 400 ألف الذين دفنوا تحت الأرض بضعة أسطر في سجلات التاريخ.

37

سرق رمز المرسوم وإنقاذ دويلة جاو من قبل الوزير شينلينغ لدويلة وي

في عام 260 قبل الميلاد، اندلعت معركة تشانغبينغ بين دويلتي جاو وتشين، وغلب الجنرال المشهور بايتشي من دويلة تشين على تشاوكو وقتل أكثر من 400 ألف جندي، ثم قاد جيشه للتقدم وحاصر عاصمة دويلة جاو مدينة هاندان.

لقد صُدمت الدويلات، وفي ذلك الوقت، كان هويينغ قائد الحراس لمدينة داليانغ لدويلة وي، وقد بلغ عمره أكثر من سبعين عاما، وقد اعتاد على رؤية الكثير من التقلبات والتغيرات في العالم، ولم يكن له أي علم أن التذبذبات لمعركة تشانغبينغ سوف تؤثر على حياته.

كل شيء سوف ينتهي.

لا نعرف ما إن كان الرجل العجوز الحكيم في عهد الدويلات المتحاربة قد توقع انتهاء هذا العهد أو لا، وانتشار نيران الحرب التي تشعلنا دويلة تشين في كل الدويلات الست الأخرى، ونجاحها في التوحيد في النهاية.

إن انتهاء هدوء حياة هويينغ يرتبط ارتباطا وثيقا بشخص وهو شقيق أمير دويلة وي الأصغر الوزير شينلينغ، الذي قد حكم الدويلة لعامين، وهو كان يحب معرفة الغرباء والتعامل معهم واستضافة أكثر من 3000 شخص في منزله كل يوم، وهو أحد «الوزراء الأربعة في عهد الدويلات المتحاربة» فضلاً عن الوزير تشونشن لدويلة تشيو والوزير بنيغيوان لدويلة جاو والوزير مسنغتشانغ لدويلة تشي.

ذات يوم وبعد معرفة حكمة وذكاء هويينغ، دُعي الوزير شينلينغ إلى اللقاء به وأحضر له العديد من الهدايا، غير أن الأخير رفض ذلك وقال إنني ناسك ونزيه لأكثر من عشرة أعوام، ولن أقبل هداياك رغم أنني أعيش حياة صعبة.

لم يكن هناك شخص قد رفضني، قال الوزير شينلينغ لنفسه، ثم أقام مأدبة ودعا أصدقاءه إلى حضوره، وهو قاد العربة إلى منزل هويينغ لدعوته، وأدرك الأخير أن حياته الهادئة سوف تنتهي بمجرد رؤية عربة الوزير شينلينغ، وهو لبّى دعوة الوزير وصعد إلى العربة في هدوء وصراحة، وحتى طلب من الوزير المرور بمنزل صديقه جوهاي في وسط المدينة.

وافق الوزير شينلينغ على ذلك.

عند الوصول إلى وسط المدينة، نزل هويينغ من العربة ودردش مع صديقه، وكان الوزير يجلس في العربة ويتنظر طوال الوقت ولم يكن منزعجا، لكن المارة في الشارع والضيوف في بيت الوزير اتهموا وانتقدوا هويينع بعد معرفة الخبر، غير أن الأخير لم يتوقف في الدردشة، حيث قد مضى وقت طويل قبل صعوده إلى العربة والرجوع إلى منزل الوزير.

بالطبع لم يفعل هويينغ ذلك دون سبب، حيث قال للوزير في المأدبة، إنني لم أفعل شيئاً لإحراجك، ولست سوى قائد منخفض المستوى للحراس، وقُدت العربة لدعوتي إلى حضور المأدبة، فتعمدت المرور عبر وسط المدينة وإثارة انتباه الناس، وذلك من أجل تعزيز سمعتك.

في وقت لاحق، واصل هويينغ منصبه كقائد الحراس، لكنه كان ينتظر في كل وقت، لرد الجميل للوزير شينلينغ. وأخيرا، اندلعت معركة تشانغبينغ وحاصر جيش تشين عاصمة هاندان لدويلة جاو، وأمر أمير دويلة وي جنراله بقيادة 100 ألف جندي لدعم دويلة جاو. ولكن هدّد أمير دويلة تشين أن جيشه سوف يهاجم كل من يساعد وينقذ دويلة جاو بعد معرفة الخبر، مما أثار خوف أمير دويلة وي وهو تراجع في قراره وأمر جيشه بعدم التقدم، وكانت رسائل الاستنجاد من دويلة جاو قد ملأت مكتب أمير دويلة وي، لكن الأخير لم يتأثر بذلك.

ومع ذلك، لم يتمكن الوزير شينلينغ من قبض النفس والتحمل، وهو كان قريباً من الوزير بينغيوان لدويلة جاو، حيث قد أرسل الأخير له رسالة لاتهامه بعدم مد يد المساعدة، فطلب الوزير شينلينغ من أميره إنقاذ دويلة جاو مرارا وتكرارا، لكنه لم ينجح في كل محاولاته.

وقرر الوزير شينلينغ الغاضب قيادة آلاف الضيوف الذين يتناولون الطعام في منزله للهرع إلى ساحة المعركة للموت والرقص.

أبلغ الوزير شينلينغ قائد الحراس هويينغ عن ذلك، وودّعه قبل المغادرة، وهو تطلّع إلى أن يقول الأخير شيئاً له، غير أن هويينغ قال له بهدوء، أتمنى لك النجاح، وأنا كبير السن ولا أتمكن من متابعتك. وقد قطع الوزير شينلينغ شوطا طويلاً وعاد فجأة لإدانة هويينغ قائلاً، هل فعلتُ الخطأ؟ أنا عادة أعاملك بصدق واحترام، غير أنك بارد الدم أمام خضوعي في المعركة بشكل مستميت. وابتسم هويينغ وقال، قد توقعت إدانتك وأنا مستعد أيضاً لتقديم تكتيك لك، وهو سرق رمز المرسوم باختصار.

قال هويينغ ببطء، أتساءل عما إذا ما زلت تتذكر السيدة روجي المدللة لأميرنا؟ وأنت فاعل الخير لها، حيث قد انتقمتَ منها، وهي ظلت تريد رد الجميل عليك، فالآن حان الوقت.

وتساءل الوزير شينلينغ، إن الطريقة الوحيدة لإنقاذ دويلة جاو هي إرسال القوات، وإن رمز المرسوم للأمير هو الشيء الوحيد لتعبئة القوات، لذا كيف بوسع روجي المساعدة؟

قال هويينغ، إنك على حق حيث لم يمكن إنقاذ دويلة جاو إلاّ بعد الحصول على رمز المرسوم الذي يمتلكه الأمير وحده، وإن السيدة روجي هي الوحيدة التي تتمكن من سرق الرمز لك.

أدرك الوزير شينلينغ فجأة والتقى بالسيدة روجي على الفور وطلب منها المساعدة.

حصل الوزير شينلينغ على رمز المرسوم بسلاسة بفضل مساعدة السيدة روجي، وقبل انطلاقه إلى المعركة من جديد، قال هويينغ أنني كبير السن ولا يمكن أن أذهب معك، لكني آمل أن يرافقك صديقي جوهاي، وأنا سوف أنهي حياتي نحو الشمال عندما تصل إلى مكان تربّص جنودنا لتسليمك.

بعد فترة وجيزة، أدى هويينغ وعده وقتل نفسه نحو الشمال.

وهرع الوزير شينلينغ خلال الليل إلى مكان تربّص الجنود وأخرج رمز المرسوم أمام الجنرال قائلاً، أرهقناكم يا الجنرال، وأمرني الأمير بقيادة جيشنا لإنقاذ دويلة جاو.

كان الجنرال مشكوكاً في كلام الوزير شينلينغ رغم رؤيته لرمز المرسوم، وطرح ضرورة التشاور مع الأمير لأن إنقاذ دويلة جاو مهمة شاقة للغاية. وقال الوزير شينلينغ بغضب، إن دويلة جاو على حافة الانهيار الآن، وكيف يمكننا أن نتأخر في إنقاذها؟

فجأة صاح جوهاي الواقف خلف الوزير شينلينغ قائلاً، إن الجنرال لا يطيع مرسوم الأمير وهو يريد التمرد ويستحق الموت. ثم حطمه حتى الموت بالمطرقة في يده. بعد ذلك، هرع الوزير شينلينغ إلى مدينة هاندان لدويلة جاو لإنقاذها، وكان جيش تشين خائفا من هجوم الأعداء من الجانبين، فاضطر إلى التراجع والانسحاب.

بعد الخروج من الخطر، كان الأمير شياوتشنغ والوزير بينغيوان لدويلة جاو شاكرين جداً للوزير شينلينغ، غير أن ما فعل الأخير من سرق رمز المرسوم وإنقاذ دويلة جاو أثار تذبذباً وتأثيرا كبيرا في دويلة وي، وكان أميرها غاضباً للغاية. ولم يجرؤ الوزير شينلينغ على العودة إلى دويلة وي فقرر البقاء في مدينة هاندان.

38
بضاعة نفيسة يمكن إيداعها لمزيد من الربح

كان من وحّد الدويلات المتحاربة المنقسمة هو الأمير يينغجنغ لدويلة تشين.

وهو أول إمبراطور في تاريخ الصين، ويتعلق نجاحه برجلين أولهما لو بووي والآخر ليسي، ودعونا أولا نحكي قصة لو بووي.

في العصور القديمة، كانت الثروة دائما لا يمكن فصلها عن السلطة، كأنهما أخوان توأمان، حيث يمكن الحصول على الثروة اعتمادا على السلطة، ويمكن زيادة السلطة اعتمادا على الثروة، وكان لو بووي هو من صعد إلى مكانة السلطة المرتفعة بالثروة.

كانت تجربة تراكم الثروة للو بووي في البداية تكمن في الشراء بأسعار رخيصة والبيع بأسعار مرتفعة، وهي الطريقة الحتمية للتجار القدامى الصينيين للربح. وعلى ما يبدو أنها بسيطة، ولكن ما هي السلع الرخيصة السعر؟ وما هي السلع المرتفعة السعر؟ وكيف التخطيط لطريقة الإتجار؟ الأمر الذي يستلزم الرؤية الحادة والدقيقة وحسن الإمساك بالأوان والفرصة.

لا يسعني إلاّ أن أقول إن لو بووي لديه مثل هذه الرؤية والطريقة، وهو زار مدينة هاندان لدويلة جاو ذات سنة حيث رأى رجلا اسمه زيتشو، وفي نظرته التجارية، كان زيتشو مثل بضاعة نفيسة يمكن إيداعها لمزيد من الربح. وتصور لو بووي أنه يمكن استغلال هذا الرجل لفتح طريق ذهبي سوف يؤدي به من الثروة إلى السلطة.

وكان زيتشو رهينة دويلة تشين لدويلة جاو.

في الواقع إن معظم الرهائن الأبناء غير المعجبين والمهمين للأمراء في الدويلات الأخرى، سيّما زيتشو حفيد الأمير جاو لدويلة تشين وابن الأمير الوريث آنقو، لكنه ابن محظيته وليس

زوجته، غير أنه رجل يتعلق بإمبراطورية ضخمة مزمع إنشاؤها.

كان زيتشو غير محظوظ للغاية، حيث سكن في مكان قديم وليس له عربة ولم يحظ بالاحترام في دويلة جاو، لكنه حظي باهتمام لو بووي منذ النظرة الأولى، حيث رأى الأخير أنه مثل بضاعة نفيسة يمكن إيداعها لمزيد من الربح. وكان الحديث الأول بينهما يبعث على التفكير، حيث قال لو بووي، إنني أستطيع توسيع باب منزلك، وضحك زيتشو وقال، وسّع بابك أولا قبل توسيع بابي. وقال لو بووي، إنني أحتاج إليك لتوسيع بابي.

سرعان ما قد فهم زيتشو.

كان زيتشو في حاجة إلى ثروة لو بووي للحصول على السلطة، ولو بووي في حاجة إلى مساعدة زيتشو لتحقيق مزيد من السلطة، والعلاقات بينهما ليست الصداقة البحتة، حيث أن الصلاحيات والمسؤوليات بينهما واضحة، وإن السعي وراء المصالح المشتركة هو الرابط الذي يربط ببعضهم البعض.

في وقت لاحق، أخذ لو بووي سلسلة من التدابير وجوهرها هو الارتقاء به إلى المقام المناسب.

وما هو المقام المناسب؟

إن المقام المناسب يقع عند السيدة هوايانغ في رأي لو بووي، وكان هذا الاستنتاج يستلزم المعرفة الدقيقة والواضحة لسلطة دويلة تشين، حيث قد أصبح أميرها جاوشيانغ كبيرا في السن، وسيتسلم عرشه ابنه آنقو بعد وفاته، وإن الشخص الوحيد الذي يتمكن من التأثير عليه هو محظيته المدللة السيدة هوايانغ.

كمن ذكاء لو بووي في تخليه عن التفكير المستقيم وتجنب النقاط الأكثر تركيزا وحرارة، وفي تبني الطريقة غير المستقيمة، حيث في حال الاستنجاد للأمير أو ابنه مباشرة، فإن الصعوبة سوف تزيد وسيستغرق الأمر وقتا طويلا، كما من الصعب النجاح في النهاية، وإن هذه الطريقة أقل بكثير فعالية من استغلال السيدة هوايانغ.

كانت نقاط الضعف للسيدة هوايانغ متمثلة في انعدام النجل، وفي تلك الفترة كانت المرأة مرتبطة إما بزوجها إما بنجلها، وكانت السيدة هوايانغ بارزة الشرف بسبب حب وشوق ابن الأمير آنقو، ولكن ما العمل بعد وفاته؟ من المحتمل أنها سوف تعيش حياة حزينة ومسكينة بدون أي نجل.

انطلق لو بووي من هذا الواقع وأرسل رسالة إلى السيدة هوايانغ من خلال شقيقتها وقال فيها، يتراجع شرف وسمعة المرأة مع مرور الزمان، واليوم تتمتعين بحب وشوق زوجك ابن الأمير، ولكن ليس لك أي نجل، ومن الأفضل اختيار رجل حكيم وبار من جميع أولاد زوجك وتعيينه كالوريث ومعامله معاملة نجلك الحقيقي، لكي يتسلم العرش بعد وفاة زوجك، وتستمر سمعتك وشرفك وتعيشين في سلام وأمان، وعليك التخطيط المبكر قبل فوات الأوان.

واستطرادا وقال إن زيتشو مرشح مناسب وهو كان لا يمكن أن يكون الوريث وهو غير مفضّل لدى والدته الحقيقية، وهو الآن على استعداد للاعتماد عليك، وسوف يكون بالتأكيد شاكرا لك إذا تمت ترقيته، في حين أنك سوف تتمتعين بالشرف والاحترام المؤبد في دويلة تشين.

كانت هذه الكلمات مثل البرق الذي ضرب صميم قلب السيدة هوايانغ. وبعد فترة وجيزة، طلبت من زوجه ابن الأمير آنقو التعهد بتسليم العرش لزيتشو في المستقبل، حيث صعد زيتشو إلى المقام المناسب بجهود لو بووي، وإن مستقبله سيكون مشرقا للغاية طالما لم يرتكب أي أخطاء كبيرة.

وأصبح التوقّع الواقع، وتسلم آنقو العرش بعد وفاة الأمير جاو لدويلة تشين، وهو فارق الحياة بعد الحكم لعام فقط، ثم صعد زيتشو إلى قمة هرم السلطة لدويلة تشين، كما تمتّع لو بووي بمجد هذه السلطة، حيث تم تعيينه رئيس الوزراء ومكافأته بمائة ألف أسرة لجني الضرائب. ومن خلال الثروة، حصل لو بووي على السلطة.

من وجهة نظر تفصيلية، على الرغم من أن الثروات يمكن أن تتحول إلى السلطة، فإن المخاطر التي تنطوي عليها هي بديهية، وإن الصعود إلى القمة وتذليل المخاطر من الأمور التي تتطلب الحكمة والصبر. وكان لدى لو بووي محظية جميلة للغاية تجيد الرقص، وتعرف عليها زيتشو في مأدبة مع لو بووي وهو معجب للغاية بها.

كان لو بووي غاضباً في البداية.

وفي الواقع لا يسع المرء إلاّ أن يغضب أمام مثل هذا الأمر، لكن لو بووي لم يتمكن من قطع العلاقات مع زيتشو، لأنه لم يحصل على ما تطلع إليه بعد. واضطر لو بووي إلى تبني الصبر وقبول الواقع بهدوء في النهاية، وقدم محظيته إلى زيتشو.

بعد وفاة زيتشو، تولى الخلافة الأمير يينغجنغ، الذي أصبح الإمبراطور الأول لأسرة تشين لاحقاً. وهو كان في البداية احترم لو بووي كثيراً واعتبره كعمه، ولكن ازداد استياؤه لهذا العم مع مرور الوقت. وأخيرا، بعد عشر سنوات من توليه العرش، كتب رسالة إلى لو بووي، وتساءل فيها عن سبب حصوله على مائة ألف أسرة لجني الضرائب، وفضله للتمتع بلقب عم الأمير.

لا أعرف ما كان يفكّره لو بووي أمام هذه التساؤلات. وبدونه، كيف يمكن لزيتشو تولي العرش؟ وكيف يمكن ليينغجنغ الخلافة في استقرار وأمان؟ ومع ذلك، لا يمكن للو بووي الفعل سوى ابتلاع كل تلك التساؤلات، واختار في النهاية قتل نفسه عبر تناول الخمر السام، مما أنهى حياته التي امتدت من الثروة إلى السلطة.

بعد الحديث عن لو بووي، حان الوقت لمواصلة الحديث عن ليسي، ولا شك في أنه كان استراتيجياً ناجحاً للغاية في عهد الدويلات المتحاربة، وصعد إلى قمة حلمه بجهوده وخياراته واحداً بعد الآخر.

39

دخول ليسي إلى دويلة تشين

يكمن نجاح ليسي في اختيار الموقع المناسب.

وهو كان مسؤولا شاباً منخفض المستوى عندما عرف أهمية الموقع، وذات مرة رأى في الحمام فئران تأكل الفضلات، وفرّت عند دخول الإنسان أو الكلاب، وبعد ذلك رأى فئران في مخزن الحبوب تأكل الحبوب اللانهائية في ظروف آمنة ونظيفة ودون إزعاج الإنسان والكلاب.

بعثت تلك الفجوة الكبيرة على التفكير لدى ليسي، وكان استنتاجه هو أن الاثنين في مواقع مختلفة. فيجب على الناس اختيار الموقع بعناية وحذر إذا أرادوا تحقيق الإنجازات وعيش حياة بشعور من الرضا عن النفس، إلى جانب تبني قدر معين من الذكاء، إذن ما هو الموقع المناسب؟

نظر ليسي إلى الفوق، وأدرك أنه يمكنه الاستمتاع بالحياة المريحة فقط من خلال السيطرة على السلطة. ومنذ ذلك الحين، بدأت حياته تتحول، وبالطبع، إذا كنت ترغب في الصعود إلى المنصب بجانب العرش، يجب أن يكون لديك ما يكفي لإبهار الأمير، وإلا فمن المحتمل فقدان المنصب بجانبه.

وهكذا بدأ ليسي في خطوته الأولى وهي تعزيز كفاءته، حيث استقال من منصبه المنخفض ودرس أسلوب الحكم مع الفيلسوف شونزي، وأصبح ناجحاً في دراسته بعد عدة سنوات، حيث حان وقت تفعيل وإظهار موهبته وكفاءته.

ثم بدأ ليسي في خطوته الثانية وهي البحث عن الموقع المناسب له، ونصب أنظاره نحو كل الدويلات، وفكّر في الموقع الأنسب له بجانب الأمراء. وفي ذلك الوقت، كانت الدويلات الست

ضعيفة بالفعل، وإن دويلة تشين هي الدويلة القوية الوحيدة، فمن الطبيعي الوصول إلى قمة الجبل إذا أراد الرجل تسلقه للحصول على المجد. وفي النهاية، قرر ليسي اختيار دويلة تشين.

ردّ ليسي على أستاذه شونزي قائلاً، لا يمكن التراخي إذا جاءت الفرصة، وتسعى الدويلات وراء الهيمنة في الوقت الحاضر، خاصة أن أمير دويلة تشين يريد احتلال الدويلات الأخرى ليكون إمبراطور العالم. هذا لا يسعني إلاّ أن أقول إنه قد حان وقت الأداء وتحقيق الإنجاز للناس المتواضعين العاديين. وفي هذا العالم، إن أكثر ما يخل بالعار هو العيش في حقر وتواضع، والشيء الأكثر حزنا هو الفقر. وإن الرجل المتواضع والفقير الذي يقدر نفسه بعدم السعي وراء السمعة والمصالح والشهرة ليس رجلا مثقفا، لذلك سأذهب غرباً إلى دويلة تشين من أجل نيل الشهرة والسمعة.

وصل ليسي إلى دويلة تشين، حيث أصبح أقرب من موقعه المثالي.

ومع ذلك كان ليسي ما زال بحاجة إلى العمل الجاد من أجل الوقوف بجانب الأمير. ثم بدأ خطوته الثالثة وهي استعارة السلم للصعود، حيث يجب عليه إرضاء وإسعاد كبار الوزراء بجانب الأمير أولا، إذن من هو الوزير الأكثر ثقة لدى الأمير؟

هذا هو لو بووي.

تزامن وصول ليسي إلى دويلة تشين مع وفاة الأمير جوانشيانغ، وهو بدأ يراقب الوضع السياسي ويطلب إذنا بالعمل تحت لو بووي، ولم يكن من المفاجئ أنه فاز بتقدير الأخير، حيث تم تعيينه كمسؤول متوسط بما قد أصبح ليسي أقرب من الأمير.

أخيرا حصل ليسي على فرصة للتحدث أمام الأمير، وقام أولا بتحليل سبب عجز دويلة تشين عن توحيد الدويلات الست الأخرى في عهد الأمير مو، ورأى أن الدويلات الأخرى كانت قوية ومتعددة وكانت مملكة تشو لم تتراجع. أما الآن فإن دويلة تشين قوية في حين أن الأخرى ضعيفة، فيمكن استغلال الفرصة السانحة للقضاء على جميع الأمراء الآخرين والسيطرة على العالم، وإلا فستفوت دويلة تشين هذه الفرصة في حال اتحادهم واسترجاع قوتهم.

كان كلام ليسي صحيحا وقائما على الواقع.

وفي وقت لاحق اقترح ليسي على الأمير إرسال جواسيس إلى الدويلات الأخرى لضرر العلاقات بين الأمراء ووزرائهم. ومن وجهة نظر تفصيلية، كانت هذه الآراء والمقترحات غير جديدة، حيث قد طرحها تشانغيى وفانسوي ولو بووي في السابق. لكن الأمر لم يكن مهما لأنه بالإضافة إلى النظرة الثاقبة حول الوضع السياسي، يمتلك ليسي الكفاءة والقدرة الكافية وهي محل تقدير الأمير.

وأخيرا حقق ليسي هدف الاقتراب من الأمير، حيث ازداد اهتمام الأمير به، وعيّنه كأمين القصر ووزير ضيف على التوالي.

وبهذه الطريقة اتخذ ليسي لو بووي كسلم خشبي وصعد عبره إلى الموقع القريب من الأمير بأمان، وواصل في توطيد مكانته والتقدم المستمر، ولديه ثقة بأن الموقع الأكثر أهمية ومجداً بجانب الأمير حتمي له، ولكن سرعان ما عانى ليسي من أزمة.

كان سبب الأزمة هو اقتراح صاحب الاستراتيجية جنغقو من دويلة هان، وذات مرة زار جنغقو دويلة تشين واقترح على الأمير بناء سد في الدويلة، وتبين لاحقاً أن هدفه الحقيقي هو استهلاك واستنفاد المواد المادية والقوة البشرية لدويلة تشين، وأثارت تلك سياسة «إضعاف دويلة تشين» ضجة كبيرة في دويلة تشين قيادة وقاعدة، حيث طرح العديد من الوزراء الكبار على الأمير ضرورة طرد الوزراء الضيوف بمن فيهم ليسي.

فما العمل؟

لم يكن ليسي ساكتا، وكيف يمكنه التخلي عن النجاح المتوقع عندما اقترب من تحقيق هدفه أكثر فأكثر؟

بعد ذلك أمسك ليسي بقلمه الكبير وكتب مقالة مشهورة عبر تاريخ الصين وهي «حول طرد الضيوف»، حيث استعرض تجربة نجاح دويلة تشين في استعانة الوزراء الضيوف، واستنتج أن طرد الوزراء الضيوف والإساءة بالشعب عون للأعداء، وهو شيء يؤدي إلى الفراغ الداخلي وإيذاء العلاقات مع الدويلات الأخرى، فهل من الممكن تخليص الدويلة من الخطر عبر طرد الضيوف بالفعل؟

قرر أمير دويلة تشين إلغاء مرسوم طرد الضيوف بعد قراءة مقالة «حول طرد الضيوف»، وأمر بإعادة المنصب لليسي، وترقيته بعد وقت وجيز، حيث قد استحوذ ليسي ركنا في القصر الأميري بثبات، وبدأ أمير دويلة تشين يحقق طموحاته ويوحد كل البلاد بمساعدته. وقد تحول ليسي من فأر في الحمام إلى فأر في مخزن الحبوب وهو يعيش حياة مريحة ونظيفة ومليئة بالأغذية وخالية من الإزعاج. ولكن هل هذا نهاية الأمر؟

ليس بعد، وسنرى مصير ليسي في القصص اللاحقة.

40
محاولة جينغكه لاغتيال أمير دويلة تشين

كانت مياه نهر ييشوي تتدفق ببطء تحت أشعة الشمس البيضاء في فصل الشتاء، وكانت الجبال البعيدة قاتمة، والهواء مليئا بالحزن، وكان ابن أمير دويلة يان الوريث دان يرتدي الملابس البيضاء ووجهه قاتم وحزين، وفي عينيه نيران الأمل. ووقف جينغكه بجانبه ونظر إلى البعيد ثم نظر إلى الوريث لمدة طويلة، كأنه يريد الرد على أمله.

مر الوقت تحت السماء القاتمة، وحان وقت الانطلاق، وتنهد جينغكه في قلبه.

كانت الرياح الطويلة تهب وتتدفق مياه نهر ييشوي، وشرع الأبطال في الطريق ولن يرجعوا. كان هذا أغنية جينغكه التي امتدت فوق المياه حتى الجبال البعيدة.

بكى الجميع في الأغنية، بما فيهم جينغكه، وخطر في باله المشاهد القديمة، ثم ركع أمام الوريث وركب الحصان وتحرك إلى البعيد مع تحريك حزام من الغبار في الهواء.

هذا هو وداع نهر ييشوي الشهير في التاريخ، ودخل جينغكه أسرة تشين ذلك العام لاغتيال أميرها.

دعونا نحول نظرنا إلى دويلة تشين ونقف على أسباب ونتائج «وداع نهر ييشوي». بعد فقدان الوزير هانفي، وجد الأمير يينغجنغ لدويلة تشين رجلا فاضلا آخر يولياو، وبمساعدته وليسي، هزمت دويلة تشين كلا من دويلتي هان وجاو، ثم بدأت محاربة دويلة يان. وكان دان لدويلة يان وييغجنغ لدويلة تشين صديقين في صغرهما، وبعد وصول الأخير إلى سدة الحكم، أصبح الأول رهينا للآخر، وكان يينغجنغ بارد الدم أمام صديقه من الصغر، وفرّ الوريث دان الحزين إلى دويلته. وهو يعرف شخصية يينغجنغ بشكل جيد، حيث لا يوجد أي دويلة يمكن التخلص من محاربة هذا

الأمير الطماّح. وكيف يمكن لدويلة يان الضعيفة البقاء في هذا العالم المضطرب؟ فكّر الوريث دان لدويلة يان لمدة طويلة وقرر اغتيال الأمير يينغجنغ لدويلة تشين.

أنفق الوريث دان كل ما لديه للبحث عن الرجل الذي يمكن تحمل مهمة الاغتيال الشاقة، ولكن لم ينجح في يذلك لمدة طويلة. وفي عام 230 قبل الميلاد، هاجم جيش دويلة تشين دويلة يان، وأصبحت الأخيرة خائفة قاعدة وقيادة، وخاصة أن الوريث دان قلق للغاية، واستنجد أستاذه، وقال الأستاذ إن دويلة يان ضعيفة جداً، فمن الصعب مقاومة دويلة تشين بوحدها، ولا يمكن النجاح إلاّ عبر التحالف مع دويلات جاو وتشي وتشيو ووي فضلاً عن قبيلة شيونغنو في الشمال.

غير أن الوريث رأى أن عملية التحالف سوف تستغرق وقتا طويلا، ثم رشّح أستاذه له رجلا ذا الحكمة والجرأة واسمه تيانقوانغ، وفي اليوم التالي استدعاه الوريث وتحدث عن فكرة الاغتيال، لكن تيانقوانغ رفض ذلك ورشح صديقه جنيعكه للوريث.

كان جنيعكه أهل دويلة وي، وفر إلى دويلة يان في المنفى وهو صاحب الكفاءة، واتفق مع الوريث حول اغتيال أمير دويلة تشين، ومنذ ذلك الحين، تعامل الوريث معه باحترام وصدق، وكافأه بنبيذ لذيذ ومنازل فاخرة، وقبل جنيعكه كل ذلك.

وبعد ذلك بدأ جنيعكه في التحضير للقتال.

في ذلك الوقت، وافق الوريث دان على قبول الجنرال المتمرد فان يوتشي من دويلة تشين، وقدم أمير دويلة تشين مكافآت الذهب للقبض عليه. ومن أجل كسب ثقة أمير دويلة تشين، ذهب جنيعكه إلى فان يوتشي وأخبره عن محاولة الاغتيال، وإن الأخير صاحب الحق والأخلاق وقتل نفسه وطلب من جينغكه الذهاب إلى أمير دويلة تشين برأسه.

كان كل شيء جاهزا، وتحرك جينغكه إلى دويلة تشين برأس الجنرال فان يوتشي وخريطة أخصب الأراضي لدويلة يان، فضلاً عن خنجر سامّ، وكان يرافقه العسكري تشين وويانغ.

ودّع الوريث دان جينغكه بجانب نهر ييشوي، هذا ما ذكرناه في بداية الفصل من «وداع نهر ييشوي»، وغنى جينغكه أغنية في الرياح الخريفية الباردة، وعبر فيها عن عزم البطل للانطلاق واستعداده لعدم العودة.

لدى وصوله إلى دويلة تشين، طلب اللقاء مع الأمير. ووافق الأمير على اللقاء به بسرور بعد معرفة أن دويلة يان تطلب السلام معه بأراضيها ورأس الجنرال المتمرد. وأتى جينغكه إلى قصر الأمير وحمل في يده صندوقا خشبياً فيه رأس الجنرال، وفي يد مرافقه تشين ويانغ الخريطة، وكان الأخير يشعر بالخوف الشديد من الجو الهادئ في القصر حتى رفرفت ساقيه.

قلق جينغكه حول إثارة شك الأمير، ثم ابتسم وشرح نيابة عن مرافقه قائلاً، هو رجل القرية ولم ير مثل هذا المشهد المهيب من قبل، ويرجى أن تغفره. وفحص الأمير رأس الجنرال وأمر جينغكه بتقديم الخريطة. ثم تقدم جينغكه إلى الأمام ووقف بجانب الأمير، وفتح الخريطة ببطء، وعرّف الأمير عن الجبال والأنهار على الخريطة وعن أمنية السلام لدويلة يان.

كان جينغكه هادئاً من الظاهر ومتوترا من الباطن، لأنه يعلم أنه في نهاية الخريطة الخنجر الذي تحمل تطلعات الوريث دان، وأخيرا ظهر الخنجر وصدم الأمير، حيث تقدم جينغكه على الفور بخطوة إلى الأمام، وأخذ خياطة أكمام الأمير بيد واحدة، وأخذت في يده الأخرى الخنجر لطعن الأمير، وهل هو نجح في ذلك؟

لسوء الحظ، لم ينجح.

قاوم الأمير بقدر الإمكان وهرع في القصر، وهو كان مندهشا وخائفا ويركض حول الأعمدة، ويتبع جينغكه وراءه. ووفقا لقانون دويلة تشين، لا يمكن لحراس القصر حمل السلاح دون أمر الأمير، وحاول العديد من الوزراء منع جينغكه لكنهم انقلبوا جميعا على الأرض. فجأة قام أحدهم بتوجيه تحذير للأمير الخائف، يا أميري لديك سيف معك! وكان ذلك بالضبط عندما ألقى أحدهم شيئاً على جينغكه وضرب ذراعه اليمنى، ثم توقف جينغكه قليلا، واغتنم الأمير هذه الفرصة، وسحب سيفه الطويل لضرب جينغكه.

أصيب جينغكه بجروح وقُطعت ساقه اليسرى.

ومع ذلك، لم يتخل جينغكه عن محاولته وجلس على الأرض وألقى الخنجر نحو الأمير، ولم ينجح في ذلك. وهو كان حزينا ونظر إلى اتجاه دويلته، ولم ينجح في إنجاز المهمة الشاقة التي كلفه لتحقيقها الوريث دان.

في هذه اللحظة اندفع جميع الوزراء إلى الأمام وقتلوا جينغكه، وكان أمير دويلة تشين غاضباً للغاية وأمر بتصعيد الهجوم على دويلة يان. وفي عام 226 قبل الميلاد، قد احتلت دويلة تشين معظم أراضي دويلة يان بما فيها عاصمتها.

41
نجاح دويلة تشين في توحيد كل البلاد

بعد احتلال أراضي دويلة يان، ازداد طموح الأمير يينغجنغ لدويلة تشين.

في عام 225 قبل الميلاد، أمر الأمير يينغجنغ لمهاجمة دويلة وي، واضطر جيش وي إلى التراجع من الحدود إلى العاصمة للمقاومة بسبب نقص الجنود، وصمد أمام الهجومات المتكررة لجيش تشين. ثم قرر جيش تشين حفر ضفاف النهر الأصفر لتوجيه مياه النهر إلى العاصمة، وغرق العديد من الناس بسبب الفيضانات، وفي النهاية، استسلم أمير دويلة وي في يأس وسقطت دويلة وي.

بعد سقوط دويلة وي، كان أكبر عدو لدويلة تشين هو دويلة تشيو في الجنوب، وفي عام 224 قبل الميلاد، قرر أمير دويلة تشين مهاجمة دويلة تشيو، وناقش مع وزرائه حول سبل تحقيق ذلك.

سألهم الأمير عن عدد الجنود لإسقاط دويلة تشيو.

أجاب الجنرال الشاب ليشين، أكتفي بـ 200 ألف جندي. غير أن الجنرال المخضرم وانغجيان فكر لمدة وقال ببطء، على الأقل 600 ألف جندي.

شعر الأمير أن وانغجيان كبير السن وأصبح ضعيفاً ومحافظا، بينما أن ليشين شجاع وهو في محل تقدير، لذلك قرر أرسل 200 ألف جندي بقيادة ليشين ومينغتيان لمهاجمة دويلة تشيو، أما وانغجيان الذي لم يحصل على ثقة الأمير فاستقال ورجع إلى مسقط رأسه بحجة المرض.

أصبح ليشين متغطرساً بشكل تدريجي بسبب اهتمام الأمير به، وبعد نجاحه في معركتين متتاليتين، فشل أمام الهجوم المضاد العنيف لجيش تشيو، مما أدى إلى سقوط ضحايا وجرحا في

صفوف جنوده وحتى بعض الجنرالات. وأصبح أمير دويلة تشين غاضباً وقرر إقالة ليشين، وذهب إلى مسقط رأس الجنرال وانغجيان نفسه للاعتذار وطلب منه قيادة الجيش لمهاجمة تشيو.

قال وانغجيان، إذا لم تمانع في سني الكبيرة، أستطيع قيادة الجيش، ولكن ما زلت في حاجة إلى 600 ألف جندي. وإن دويلة تشيو كبيرة، ولا يمكننا النجاح بدون ما يكفينا من الجنود. وافق الأمير على طلب وانغجيان بتعبئة 600 ألف جندي.

ثم قاد وانغجيان 600 ألف جندي وتقدم نحو الجنوب.

كان وانغجيان جنرالا غنياً بالتجربة وأمر بمحاصرة حدود دويلة تشيو ومنع المهاجمة دون أمره العسكري. وكان جنرال دويلة تشيو شيانغيان حارب بقواته جيش دويلة تشين مرارا، غير أن الأخير لم يتقدم. ثم خفف شيانغيان من يقظته ضد جيش تشين تدريجياً، حيث رأى أنه جاء فقط لحماية الحدود، وفي حيث أن وانغجيان ظن أن وقت الهجوم قد حان.

شن وانغجيان هجومات شرسة وعنيفة على معسكر جيش تشيو، ثم اجتاز دروعه واحتل عاصمة دويلة تشيو واعتقل أميرها. غير أن الجنرال شيانغيان فرّ مع مجموعة من الجنود والخيول، وواصل وانغجيان مطاردتهم حتى الجنوب وقتلهم في النهاية، مما أعلن سقوط دويلة تشيو. وفي عام 222 قبل الميلاد، أرسل أمير دويلة تشين قواته لإسقاط دويلة يان، فضلاً عن مدينة داي لدويلة جاو.

لم تبق الدويلات الست سوى دويلة تشي.

ولم يتوقف أمير دويلة تشين في خطواته للتوحيد، فهو مصمم على مهاجمة دويلة تشي في أسرع وقت ممكن وتوحيد كل البلاد. وعندما عرف أمير دويلة تشي أن الدويلات الخمس الأخرى قد سقطت، أدرك أنه حان الوقت لوطأ أقدام جنود تشين على أراضي دويلته.

ثم سارع إلى النقاش مع رئيس وزرائه وهو على استعداد لإرسال قوات للدفاع عن الحدود الغربية، ولكن قد فات الأوان، حيث قد انطلق جيش تشين العالي المعنوية واحتل عاصمة دويلة تشي في وقت قصير جداً، مما أعلن سقوط دويلة تشي. وفر أمير دويلة تشي في المنفى وتوفي جوعا في غابة الصنوبر، حيث غنى شخص ما: هل هو الصنوبر أم السرو؟ أليس الضيف القديم هو من أسقط دويلة تشي؟

هكذا هزم أمير دويلة تشين الدويلات الست الأخرى ووحّد كل البلاد وأنهى حالة التحارب والتقاتل في عهد الدول المتحاربة، وأسس أول إمبراطورية ذات سلطة مركزية في التاريخ الصيني: أسرة تشين.

42
إحراق الكتب ووأد الكونفوشيوسيين

ربما في عام 154 قبل الميلاد، تم تعيين ليويو كوالي ولاية لو.

وهو يحب القصر الرائع، لكن القصر القائم بلا شك غير واسع ولا رائع ولا فاخر، فقرر توسيعه، بما يعني ضرورة هدم منزل كونفوشيوس القديم المجاور.

هل هدم أم لا؟

كانت الإجابة بديهية بالنسبة إلى ليويو، حيث أن عملية الهدم أدت إلى وقوع حادث مميز في تاريخ الصين. وأثناء هدم الجدران فجأة سمع الحرفيون صوتا جميلاً للغاية من الفوق، وتوقفوا ونظروا إلى السماء، فماذا حدث؟

كانت السماء زرقاء والسحب بيضاء كالعادة، ومن أين جاء هذا الصوت الجميل؟ خدش الحرفيون رؤوسهم وواصلوا هدم الجدران، حينما وجدوا صدعا فيها، ويمكنهم من خلاله مشاهدة العديد من الكتب، وما كانت تلك الكتب؟ جاء ليويو وأخرج الكتب ووجد أن النص فيها غير النص الرسمي في ذلك الوقت وهو بمثابة بيض الضفدع. وفي وقت لاحق كشف الناس أن تلك الكتب هي «شانغشو» و»آداب السلوك» و»مختارات كونفوشيوس» و»الحديث عن البر».

هذا هي حكاية :العثور على الكتب من الجدران» الشهيرة.

كان الكتاب الأكثر قيمة بين تلك الكتب هي «شانغشو»، وإن تلك الكتب سبب العديد من الاضطرابات في الأجيال اللاحقة. ولا نذكر الاضطرابات التي تسببها هذه الكتب. ولكن من بالضبط أخفاها في الجدران؟ وما كان سبب ذلك؟ فلنحول نظرنا إلى أسرة تشين لمعرفة واقع الأمر.

بعد انتهاء فترة الدويلات المتحاربة الفوضوية، صعد الأمير يينغجنغ إلى قمة السلطة مع توحيد كل البلاد.

نظر يينغجنغ إلى الأرض الشاسعة، وكان قلبه مليئا بالكبرياء والفخر، ورأى أنه أكمل وأنجز القضية العظيمة التي لم ينجزها أحد في الماضي ولن ينجزها أحد في المستقبل، لذلك قرر اختيار لقب مناسب ومتفق مع إنجازاته، وطلب من الوزراء تقديم مقترحاتهم، ناقش الوزراء ورأوا أن ألقاب إمبراطور السماء وإمبراطور الأرض والإمبراطور الأكبر مناسبة، غير أن يينغجنغ غير راض من كلها، حيث اعتقد أن إنجازاته أكبر وأكثر إبهارا مقارنة مع الزعماء الثلاثة والحكام الخمسة في العصور القديمة. في النهاية قام بجمع ألقابهم واختار لنفسه لقب الإمبراطور الفاتح.

وأصبح يينغجنغ أول إمبراطور في التاريخ الصيني وهو كان في التاسع والثلاثين من العمر.

تصور الإمبراطور الفاتح كيفية تحقيق ديمومة السلطة وتجنب تراجع الإمبراطورية، وهو ظل يفكر في هذه المسائل، واتخذ العديد من الإجراءات خلال فترة حكمه.

كان أول شيء فعله هو تحويل نظام الأمراء إلى نظام المقاطعة والمحافظة.

في ذلك الوقت، كانت أراضي دويلات يان وتشيو وتشي بعيدة عن عاصمة شيانيانغ، لذلك اقترح رئيس الوزراء وانغقوان على الإمبراطور مواصلة تنفيذ نظام الأمراء في تلك المناطق لتسهيل الحكم، اتفق معه العديد من الوزراء، غير أن ليسي عارض هذه الفكرة بشدة قائلاً، عندما أسس الحاكم وو مملكة تشو، قام بتعيين العديد من الأمراء لإقرار الحكم، ولكن كيف أصبح هذا النظام في النهاية؟ حيث دمرت مملكة تشو من قبل الأمراء، لذلك من الأفضل تنفيذ نظام المقاطعة والمحافظة في جميع أنحاء البلاد.

اتفق اقتراح ليسي بفكرة الإمبراطور الفاتح كثيراً، وقرر الإمبراطور إلغاء نظام الأمراء القديم وتحويله إلى نظام المقاطعة والمحافظة، حيث تم تقسيم كل البلاد إلى 36 مقاطعة، وتحتوي كل مقاطعة عدة محافظات، ولكل مقاطعة وال ولكل محافظة محافظ، ويدير الوالي المحافظين ويعين الإمبراطور كل الولاة، ومنذ ذلك الحين، تم حكم جميع الأحداث الكبرى من قبل الإمبراطور، وارتفع المستوى المركزي للسلطة، بما يعني أن الإمبراطور يجب عليه التعامل مع مزيد من

الأشياء عما كان عليه في السابق. وفي البداية، كان الإمبراطور مجتهدا في الشؤون السياسية، ويقال إنه كان يقرأ ويصادق على 60 كيلومترا من سجلات الاقتراحات المصنوعة من الخيزران. ويمكننا أن نتصور العدد اللانهائي من سجلات الاقتراحات التي وصلت إلى العاصمة يومياً حتى إلى مكتب الإمبراطور.

وبعد ذلك قام الإمبراطور الفاتح بتوحيد وحدات القياس والمسافة بين العجلتين للعربات والكتابة.

في فترة الدويلات المتحاربة، اختلفت وحدات القياس من دويلة إلى أخرى، مما منع التبادل الفعال بين مواطني مختلف الدويلات، ومن الصعب ممارسة الصفقة التجارية سواء أكانت في محل القماش أو في محل الفواكه، ثم قرر الإمبراطور الفاتح توحيد وحدات القياس لمنع الإزعاج الكبير لعدم توحيدها لحياة الناس، ثم قرر توحيد المسافة بين العجلتين للعربات بمترين. وخاصة الجدير بالذكر هو توحيد الكتابة، وطلب الإمبراطور من ليسي خلق النص الرسمي المتداول في كل البلاد، مما أرسى أساساً متينا للانتشار الثقافي، حيث يمكننا معرفة الحياة القديمة عبر الكتب والسجلات التاريخية ذات النص الموحد.

بالإضافة إلى ذلك، قام الإمبراطور الفاتح ببناء السور العظيم لمقاومة قبائل شيونغنو.

وفي ذلك الوقت، استمرت قبائل شيونغنو في الشمال في مضايقة حدود الإمبراطورية، وأمر الإمبراطور الفاتح الجنرال الكبير منغتيان بقيادة ثلاثمائة ألف جندي لمقاومة قبائل شيونغنو، ولم يخيّب منغتيان أمل الإمبراطور حيث استعاد منطقة هوتاو وأسس 44 محافظة هناك، ثم قرر الإمبراطور الفاتح ربط السور القديم في دويلات يان وجاو وتشين القدمية، بناء سور قوي ثابت جديد مثل سلسلة من الجبل لمنع عدوان قبائل شيونغنو.

ثم قام الإمبراطور الفاتح بتجنيد مائة ألف رجل لبناء السور، وتم ضرب الذين لم يجتهدوا في العمل، مما يؤدي إلى وقوع العديد من الضحايا. وإن سور الصين العظيم المعروف الآن كبلورة حكمة الشعب الصيني القديم، وأحد رموز الحضارة الصينية الطويلة، كان يحتوي على الكثير من الدم والدموع، حيث قال أحد الشعراء الصينيين، هل يعرف أحد كم عظماً بالضبط دعمت السور العظيم الذي يمتد مع تضاريس الجبال؟

على أي حال، تم بناء سور الصين العظيم على هذا النحو في مظالم الناس ودمائهم ودموعهم.

بعد مقاومة قبائل شيونغنو في الشمال، قد أرسل الإمبراطور جنوده الى الجنوب لقمع المتمردين في دويلة يو، وأسس 3 مقاطعات هناك، مما بسط نفوذ أسرة تشين حتى بحر الصين الجنوبي. وهكذا امتدت خريطة الأسرة إلى جزيرة لياودونغ شرقا والهضبة المرتفعة غرباً وبحر الصين الجنوبي جنوباً وجبل يينشان شمالا، حيث بلغت مساحتها 3.4 مليون كيلومتر مربع.

في عام 213 قبل الميلاد، أقام الإمبراطور الفاتح مأدبة في القصر على شرف جميع الوزراء والمسؤولين.

انتهز جميع الوزراء هذه الفرصة للإشادة بإنجازات حكم الإمبراطور، غير أن الوزير يوتشون قال، لا يمكن إلغاء نظام الأمراء، وينبغي تنفيذ هذا النظام القديم. ناقش الوزراء حول هذا الاقتراح وقال رئيس الوزراء ليسي للإمبراطور، رغم توحيد كل البلاد بقيادتكم، ولكن لا يزال هناك عدد من الكونفوشيوسيين يتمسكون بالأفكار التي عفا عليها الزمن ورفض أوامركم، الأمر الذي قد يؤثر على الحكم والسلطة. لذلك فمن الأفضل إحراق الكتب القديمة التي يقرؤونها على رأسها «الشعر» و»الكتاب»، وقتل أولئك الذين يجرؤون على الحديث عن تلك الكتب، وإبادة الأسرة التي يجرؤ أعضاؤها على الإشادة بالماضي ورفض الحاضر، ومعاقبة المسؤولين الذين لم يبلغوا حالات الجرائم، وإقصاء الذين لم ينفذوا أمر إحراق الكتب خلال 30 يوما، وطردهم إلى الحدود لبناء السور.

تبنى الإمبراطور رأي ليسي، وأمر بعد ذلك بوقت قصير بإحراق جميع الكتب ما عدا كتب الطب والعرافة والزراعة. وفي وقت لاحق، سمع الإمبراطور أن هناك بعض الكونفوشيوسيين يتحدثون عن أوامره ويرفضونها، وأصبح غاضباً للغاية وأمر بالقبض عليهم ووأدهم، وسرعان ما انتشر حريق الكتب وأُستبعد الكونفوشيوسيين من عاصمة شيانيانغ إلى جميع أنحاء البلاد.

هذا هو تاريخ ¡°إحراق الكتب ووأد الكونفوشيوسيين» المعروف.

أصبحت الكتب النفيسة التي ألفها القدامى ركاماً من الرماد، ومع ذلك، هناك دائما أشخاص لا يريدون ذلك وخاطروا بحياتهم لإخفاء بعض الكتب، بمن فيهم كونغشون وارث كونفوشيوس الذي

أخفى بعض الكتب في الجدران، وتم اكتشافها بعد أكثر من 50 عاما عندما قرر الوالي ليويو توسيع قصره.

بعد إحراق الكتب ووأد الكونفوشيوسيين، أصبح الوزراء خائفين ولم يعدوا يجرؤون على المناقشة بشكل عشوائي حول قرارات الإمبراطور، ولا أحد يجرؤ على اتهامه ما عدا ابنه الأكبر فوسو، وهو رأى أن سياسات والده قاسية للغاية، وستؤدي إلى وقوع الاضطرابات. وأصبح الإمبراطور غاصباً وأمر بطرد ابنه إلى الشمال لحماية الحدود مع الجنرال منغتيان.

كان الإمبراطور الفاتح يريد تقييد أفكار الناس بعقوبات قاسية وصارمة، وهل هو ناجح في ذلك؟

إن الاضطهاد يؤدي دائماً إلى المقاومة، و يؤدي الحكم الاستبدادي إلى الاحتجاج، ولم يفهم الإمبراطور أن ممارسته دفعت أسرة تشين الجديدة الإنشاء إلى حافة الانهيار باستمرار.

43
المؤامرة في منطقة شاتشيو

هل قطعت الأفكار بعد إحراق الكتب؟ وهل انتهت المناقشة بعد دفن الكونفوشيوسيين؟

لا.

كانت الإمبراطور الفاتح لديه القدرة على إحراق الكتب ودفن الكونفوشيوسيين، غير أنه لم يكن قادرا على دفن وقتل الكراهية في صميم قلوب الناس، وإن كل إجراءاته لم تستطع تغيير كراهية فلول الدويلات الست ضده وتبديد استياء الشعب. وهو كان يعلم هذا الواقع، فبدأ التجول في مختلف أماكن البلاد، وأمر بنقش إنجازاته على الجبال لإظهار قوته وكبح إرادة المتمردين.

غير أنه لم يعلم أنه لا يمكن قمع والسيطرة على إرادة الناس.

وكان العديد من الناس ينظرون إليه بعيون باردة، ذات مرة سفر الإمبراطور الفاتح إلى الخارج بعشرات الآلاف من المرافقين، وتنهد رجل في أواسط أربعينه بين الحشود قائلاً، ها هو شرف الرجل العظيم، وكان اسمه ليوبانغ.

وذات مرة أخرى سفر الإمبراطور إلى محافظة كوايجي وعبر نهر تشيانتانغ، وكان هناك رجل شاب وشيخ بالشاطئ وقال الأول في هدوء إنني يمكن استبداله، وسرعان ما اندهش الشيخ بجانبه وقال، لا تقل ذلك، وإلا فستتعرض أسرتك للإبادة.

وكان اسم الرجل الشاب شيانغيو واسم الشيخ شيانغليانغ.

وفي ذلك الوقت لم يعرف الإمبراطور أفكار الحشود بجانبه، ناهيك عن معرفة أن ليوبانغ وشيانغيو سوف يسقطان أسرته. وليس له أي علم لذلك فانغمس في رحلاته في سعادة.

في عام 210 قبل الميلاد، أجرى الإمبراطور جولة تفقدية لجنوب شرق البلاد مع ابنه الأصغر هوهاى ورئيس الوزراء ليسي والمخصي جاوقاو، ومرّوا بمناطق هونان وجيانغشي وجيانغسو وتشجيانغ الحالية ووصلوا إلى بحر الصين الجنوبي، ثم ذهبوا إلى شاندونغ، وكان المشوار بعيداً ومتعباً في الصيف، وأصبح الإمبراطور مريضا وازداد مرضه سوءا باستمرار.

عندما شعر الإمبراطور أنه سوف يموت، استدعى المخصي جاوقاو وطلب منه إعداد رسالة لابنه الأكبر فوسو لتكليفه بإقامة الجنازة وتسليم العرش.

وبعد وقت قصير من ذلك توفي الإمبراطور الفاتح في منطقة شاتشيو.

وقال رئيس الوزراء لسي لجاوقاو، لا ينبغي لنا الكشف عن خبر وفاة الإمبراطور، وإلا فسوف ينافس أبناؤه على تسلم العرش ويضطرب الناس، وستعيش البلاد حالة من الفوضى.

وافق جاوقاو على ذلك، ثم كتم خبر وفاة الإمبراطور وغلّف عربته وسارع في العودة إلى عاصمة شيانيانغ.

ولكن كان لدى جاوقاو أجندة خاصة، وهو أستاذ ابن الإمبراطور الأصغر هوهاي، وبطبيعة الحال أمل منه تسلم العرش، فقال له، أمرني والدك بإعداد رسالة قبل وفاته لتسليم العرش لشقيقك فوسو. شعر هوهاي بخيبة أمل شديدة وقال، فماذا يمكن أن أفعل؟

قال جاوقاو، لا أحد يعرف هذا الخبر إلاّ أنت وأنا ورئيس الوزراء ليسي، ويمكنك اعتلاء العرش في حال إقناعه.

وافق هوهاي هذه الفكرة فأخبر ليسي بها.

صُدم ليسي وعارض تلك الفكرة بشدة، غير أن جاوقاو الماكر قال، إذا تسلم فوسو العرش، من المؤكد أنه سوف يعيّن منغتيان كرئيس الوزراء، وهل يمكنك مواصلة التمتع بهذا المنصب المرتفع والرواتب المميزة؟ وفي حال تسلم هوهاي الموالي للعرش، فهي لن يجاهل مساهماتنا.

اقتنع ليسي ووافق على التآمر مع جاوقاو وهوهاي في النهاية.

لقد دمروا رسالة الإمبراطور الفاتح، وادعى ليسي أن الإمبراطور ترك له مرسوماً قبل وفاته مفيده أن فوسو وفنغتيان يمارسان المؤامرة وعليهما الانتحار، وأعد جاوقاو رسالة مزورة باسم الإمبراطور الراحل وأرسلها إلى الشمال.

انفجر فوسو في البكاء بعد قراءة الرسالة المزورة، وهو رجل مخلص جداً ولم يجرؤ على رفض مرسوم والده وقتل نفسه. غير أن منغتيان لم يثق بالأمر ورفض الانتحار، ثم أُعتقل من قبل الجواسيس في السجن. وبعد ذلك أعد جاوقاو وليسي مرسوماً مزورا آخر لتسليم العرش لهوهاي.

تقدم الجميع نحو عاصمة شيانيانغ ليلاً ونهاراً دون انقطاع، وأصبحت جثة الإمبراطور الرحل فاسدة بسبب درجة الحرارة المرتفعة، ثم أمر جاوقاو بشراء الكثير من الأسماك المملحة ووضعها في العربة في محاولة التخفيف عن رائحة الجثة.

وبعد بضعة أيام، وصلوا إلى عاصمة شيانيانغ وكشفوا رسمياً عن خبر وفاة الإمبراطور الفاتح وأقاموا جنازة كبيرة، وأعلنوا أمامهم تسلم ابن الإمبراطور الأصغر هوهاي للعرش.

وتآمر هوهاي وليسي وجاوقاو في قتل سوفو، غير أن جاوقاو ظل مستاء من ليسي وقلقا من أن الأخير سوف يكشف عن الحقيقة يوماً من الأيام، ثم قرر القضاء عليه بخطة قاسية، واتهمه بنوايا التنمد بحجة أن ابنه له علاقات مع اللصوص. وفي النهاية، تم تحطيم ليسي في مدينة شيانيانغ وقتل جميع أقربائه. ومن الجدير بالذكر أن ليسي قال لابنه في اللحظة الأخيرة من حياته، أود الآن الصيد معك في الخلاء ونركض وراء الأرانب، فإن الأمر لا يزال ممكنا؟

بالطبع لم يعد الأمر ممكنا وصرخ وبكى ليسي مع ابنه في يأس.

في صوت الصراخ، لا نعرف ما إن كان الفأر في الحمام قد خطر في بال ليسي أم لا، حيث قال المحلل هوزن في أسرة تانغ إن ليسي لم يعرف التراجع بعد تحقيق النجاح، مما أدى إلى نزف الدماء في مدينة شيانيانغ.

في الواقع، لم يفهم هوزن أن ليسي الذي مر بالمصاعب الشاقة وتولى المنصب السامي وليست له فكرة للتنازل والتخلي بسهولة. وعلى الرغم من الصراخ والبكاء قبل وفاته، فمن المقدر

أنه سوف يقوم بنفس الاختيار لو أتيحت له فرصة أخرى، وبالنسبة لبعض الناس، لا يمكنهم تحمل حياة الفئران في الحمام على أي حال.

بعد وفاة ليسي، ازداد ثقة هوهاي بجاوقاو، وعينه كرئيس الوزراء، وسلم شؤون الدولة إليه. وتحت تحريض جاوقاو، وضع هوهاي قوانين جنائية أكثر قسوة.

44
انتفاضة بقيادة تشنشنغ وووقوانغ

كان هناك رجل شاب ينحني للعمل في الحقول في يوم من الأيام الصيفية.

انتشرت أشعة الشمس الحارة على الحبوب والأعشاب وعلى عاتق هذا الشاب. وفي مكان غير بعيد، توقفت طائرة على الفرع من الشجرة، وتحتها ظهر فأر حقل للحظة ثم تراجع إلى الكهف.

بعد العمل لفترة طويلة، ظهر العرق على جبهة الشاب وتساقط في التربة.

لقد حان الوقت للراحة ونادى الشاب أصدقاءه وجلس الشباب مباشرة على التلال وشرب الماء وتناول بعض المأكولات الجافة. وتنهد الشاب بسبب فقر عائلته، حيث اضطر إلى الخروج للزراعة وكسب الزرق لدعم العائلة، فما هي نهاية هذه الأيام الشاقة؟

سأله أصدقاؤه عن سبب هذه التنهد.

لم يجب الشاب بشكل مباشر، بل قال بكل وضوح، لو أصبح أحدنا نبيلاً وغنياً في المستقبل، الرجاء عدم نسيان أصحابه اليوم.

ضحك أصدقاؤه وقالوا بسخرية، إننا متواضعون لدرجة أنه كان علينا الزراعة للآخرين، ولن يكون لدينا أي مجال للحديث عن الثروة والحياة النبيلة. تنهد الشاب من جديد أمام تراخي أصدقائه وقال، فكيف تفهم العصفورة الضعيفة طموحات البجعة الكبيرة؟ ثم نظر إلى السماء، وبدا أن هناك بجعة كبيرة طارت من فوقه.

هذا الشاب الذي لديه طموح البجعة الكبيرة هو تشنشنغ.

لم يغرق تشنشنغ نفسه في التواضع وعاش بطريقة خجولة مثل أصدقائه، بل كان يريد أن يعيش حياة نبيلة ومزدهرة، ولم يكن في حسبانه أن طموحه سوف يسقط الإمبراطورية القوية والجديدة الإنشاء.

دعونا نتحدث ببطء.

قام الإمبراطور الفاتح ببناء قصر أبانغ وسور الصين العظيم ومقبرة جبل ليشان، حيث تم تجنيد العديد من الناس لبناء تلك المشاريع الضخمة، غير أن حكم ابنه أصبح أكثر قسوة، حيث هناك ما يصل إلى مليوني أو ثلاثة ملايين شخص تم تجنيدهم للخدمة.

اينما يكن القمع، تكن المقاومة.

إن سخط السعب مثل أعشاب جافة يمكن إشعالها بمجرد شرارة صغيرة من النار، وكان تشنشنغ هو من أطلق تلك الشرارة. وفي عام 209 قبل الميلاد، تم تجنيد تشنشنغ وصديقه ووقوانغ وغيرهما من حوالي 900 شخص فقير للذهاب إلى منطقة يويانغ أي محافظة ميون بمدينة بكين الحالية لحماية الحدود، غير أن المسافة كانت بعيدة للغاية وهطلت أمطار غزيرة في طريقهم، حيث لم يتمكنوا من الوصول في الموعد المحدد.

وفقا لقوانين أسرة تشين، إذا لم يتمكنوا من الوصول في الموعد المحدد، سيتم قتلهم. فكيف العمل؟ هل يموتون تحت القانون القاسي؟

لم يكن تشنشنغ على استعداد للموت، ولا ووقوانغ، واجتمع الناس للمناقشة حول سبل الهروب. وقال تشنشنغ إن القوانين واللوائح قاسية لدرجة وتقتل الجميع سواء أ كانوا هاربين أو باقين، فمن الأفضل الانتفاضة ومقاومة أسرة تشين الطاغية.

اتفق عليه ووقوانغ، ولكن كيف فعل ذلك؟

قال تشنشنغ إن الشعب مستاء بالفعل تحت طغيان أسرة تشين منذ فترة طويلة، ويقال إن شقيق الإمبراطور الحالي فوسو كان الوريث الحقيقي للإمبراطور الراحل، لكنه قتل تحت مؤامرة الإمبراطور الحالي وجاوقاو، وهو رجل سليم وصادق، لذلك فإن الناس متعاطفون معه. وبالإضافة

إلى ذلك، كان في دويلة تشيو جنرال بارز اسمه شيانغيان، وقال بعض الناس إنه قد مات بعد سقوط الدويلة، وقال البغض الآخر عكس ذلك، فيمكننا الانتفاضة باسم هذين الرجلين.

اتفق معه ووقوانغ.

بعد أن اتفق الرجلان، كانا لا يزالان مترددين ويبحثان عن صاحب العرافة، وقال الأخير بعناية وحذر إنه عليهم استنجاد الأشباح والآلهة من أجل تحقيق النجاح.

ما معنى استنجاد الأشباح والآلهة؟ كان الناس مؤمنين بوجود الأشباح والآلهة، وواثقين بالعلامات والتوقعات الساحرة. إذن كيف يتم الاستنجاد؟ وكانت الطرق التي توصل إليها تشنشنغ و ووغوانغ بسيطة وفعالة، إحداهما هي الرسالة من بطن السمكة، والأخرى هي الصراخ في المعبد.

دعونا نبدأ من الطريقة الأولى، حيث كتب ووقوانغ نص «حكم تشنشنغ وووقوانغ» على قطعة من الحرير الأبيض ووضعها في سمكة، ثم اشترى الجنود تلك السمكة ووجدوا الحرير الأبيض، واعتقدوا سرا أن تشنشنغ سيكون الإمبراطور.

دعونا نتحدث عن الطريقة الثانية، حيث كان هناك معبد قريب منهم، ورأى الناس النار المشرقة المضاءة في المعبد في إحدى الليالي وسمعوا صوت الثعلب البري، الذي قال في غموض «نهضة دويلة تشيو وحكم تشنشنغ»، لذلك ازدادت ثقة الجميع لتشنشنغ وهم على استعداد لتلقي أوامره.

بعد نيل ثقة الناس، حان وقت التصرف، وفي النهاية جاءتهم الفرصة، حيث وقع الجنرال الذي راقبهم في حالة سكر ذات يوم، وأغضبه تشنشنغ ووووقوانغ بألفاظ بذيئة للفرار بشكل متعمد، ثم قرر الجنرال معاقبة ووقوانغ باستخدام قضيب الخيزران، وسقط سيفه من الخصر بسبب قوته المفرطة، واغتنم ووقوانغ الفرصة لأخذ السيف وطعن الجنرال.

نادى تشنشنغ جميع الناس بعد وفاة الجنرال وقال بصوت عال، أيها الإخوة، لقد عانينا من الأمطار الغزيرة ولن نتمكن من الوصول إلى محافظة يويانغ في الموعد المحدد، وسوف نموت بالتأكيد وفقا للقوانين، وسوف يموت معظمنا حتى ولو وصلنا في الموعد بسبب قسوة العمل، لذلك دعونا نمُت في تقدير واحترام، وهل الأباطرة والحكام مولودون كأباطرة وحكام؟

ازداد معنوية الناس وهتفوا، تحت أوامرك.

قرر تشنشنغ وووقوانغ الانتفاضة باسم فوسو وشيانغيان، وذلك من أجل تلبية إدارة الشعب، وقاد الرجلان الجنود واحتلوا بلدة دازه أي محافظة فو بمقاطعة آنهوي الحالية. وقطعوا الأشجار وصنعوا الأسلحة، ونصبوا علما مطرّزا بنص «تشيو» عليه.

سرعان ما انتشر خبر انتفاضة تشنشنغ وووقوانغ، واستجاب لهما الناس الذين لم يكونوا يتحملون استبداد أسرة تشين، وشاركوا في المعركة بالقباقيب الخشبية والمعاول والمحارث، ثم استحوذ تشنشنغ محافظات جي وتشن.

في محافظة تشن، وبسبب دعم وإقبال الشعب، قرر تشنشنغ إقامة إمبراطورية «تشانغ تشيو» وهي عبارة عن توسع دويلة تشيو، وكان لديه أكثر من 600 عربة عسكرية وآلاف فارس وعشرات الآلاف من الجنود، وفي وقت لاحق أصبحت أسرة تشين على وشك الانهيار أمام هجماتهم.

تنهد تشنشنغ وخطرت في باله أيام الزراعة في الحقول، حيث صعد إلى قمة القوة والغناء خطوة بعد أخرى في ضحك العصافير، وعلى الرغم من أنه فشل في النهاية، على أي حال كان قد طار في سماء التاريخ مثل البجعة الكبيرة، وترك بصمة الخلود فيها.

45
شيانغيو وليوبانغ

تساءل تشنشنغ في وقت الانتفاضة في بلدة دازه، وهل الأباطرة والحكام مولودون كأباطرة وحكام؟

كان هذا السؤال مثل النبوة.

ومنذ ذلك الحين بدأ عدد لا يحصى من الناس إقلاعهم، حيث لم يعرفوا مصيرهم بعد، بل كرسوا أنفسهم في العمل في النهار وشرب الخمر والدردشة مع الأصدقاء والعائلة في الليل، وكانت حياتهم الدنيوية مليئة من الألم والمعاناة والسعادة والحزن، وليست لديهم أي خطة واضحة للمستقبل، بل يهمهم المناخ والطقس والحصاد وكيفية بيع القماش، غير أن الصراخ من بلدة دازه غيّر كل الأشياء.

ومنذ ذلك الحين صعد مجموعة من الناس على مسرح التاريخ.

بمن فيهم ليوبانغ وتشانغليانغ وشياوخه وفانكواي وقوانييننغ وإلخ، وكان تشانغليانغ الذي حاول اغتيال الإمبراطور الفاتح يدرس كتاب فن الحرب باجتهاد، وليوبانغ المتألق يكمن في جبل مانغ، ويعمل شياوخه في المحافظة، ويذبح فانكواي الكلاب، ويبيع قوانييننغ القماش.

وبالطبع لا يزال هناك شيانغيو الذي كان في المنفى مع شيانغليانغ، حيث أن عصره أشرف على التدشين.

دعونا نواصل الحديث عن تشنشنغ وووقوانغ. وبعد انتفاضة دازه، توالت انتفاضات عديدة في مختلف الأماكن، واجتاحت عاصفة المقاومة أكثر من نصف البلاد. وفي نفس الوقت نهض فلول الدويلات الست القديمة واستولى على العديد من المدن، حيث أعلنت دويلات جاو وتشي ويان إعادة

البلاد، وأشرف أسرة تشين على الانهيار. وبعد احتلال محافظة تشن، قام تشنشنغ بمهاجمة أسرة تشين من ثلاثة جوانب، حيث تقدم ووقوانغ إلى الغرب، وتقدم جنرال آخر إلى الشمال واستعاد دويلة جاو، وتقدم ويشي إلى منطقة وي.

كان ووقوانغ غير ناجح في البداية وتوقف في منطقة فويانغ. ثم بعث تشنشنغ تشووين لمواصلة المهاجمة نحو الغرب، واحتل الأخير العديد من المدن واقترب من عاصمة أسرة تشين شيانيانغ.

كان الإمبراطور في مدينة شيانيانغ خائفا.

وهو كان في البداية يريد أن يكون نعامة تدفن الرأس في الرمال والتربة ولا تواجه الواقع، وسبق له أن سأل الوزراء، سمعت أن الجنود على الحدود تمردوا واحتلوا محافظة جي ومحافظة تشن، فما العمل في رأيكم؟ وقال الوزراء إن المحتجين متمردون، فلا بد من معاقبتهم، رجاء من جلالتكم قمعهم والقضاء عليهم على الفور.

أصبح الإمبراطور غاضباً، ولم يحب الاستماع إلى مثل هذا الخبر معد الإدمان في المتعة لسنوات عديدة مثل نعامة، حيث لم يأمل من الوزراء الكشف عن الحقيقة.

أمام غضب الإمبراطور، استعجل وزير سون شوتونغ في تقديم اقتراحه قائلاً، لا أوافق على الوزراء الآخرين، وإن بلادنا الآن موحدة وقد تمت تسوية العواصم القديمة وتدمير الأسلحة السابقة، وفي البلاد إمبراطور حكيم ومراسيم كاملة ومسؤولون في كل مكان يستلزمون بواجباتهم، ولا أحد يجرؤ على التمرد على هذه الخلفية، وإن تشنشنغ ووقوانغ وغيرهما من الناس ليسوا سوى لصوص يسرقون الدجاجات والكلاب ولا يستحقون الذكر. ولا يستحق الأمر القلق حيث أن الولاة قادرون على القبض عليهم في وقت قصير.

كان الإمبراطور راضياً جداً من رد سون شوتونغ. وفي وقت لاحق أمر برمي جميع الوزراء الذين ذكروا كلمة «التمرد» في السجن، وإطلاق سراح جميع الوزراء الذين ذكروا كلمة «لصوص»، وبالطبع، لم ينس حديث سون شوتونغ الذي حَسَّن قلبه، وأعطاه القماش والملابس. وبعد اكتمال المكافأة، واصل الإمبراطور كنعامة في التمتع بالحياة السعيدة.

بالطبع، لم يمض وقت طويل على اقتراب الجنود المتمردين من عاصمة شيانيانغ.

استيقظ الإمبراطور من نوم الحياة السعيدة، وأمر الجنرال جانغقان بتجنيد السجناء الذين كانوا يقومون بأعمال شاقة في جبل ليشان لمقاومة الأعداء، ونجح الجنرال في وقت قصير جداً، ثم تقدم نحو الشرق واقترب من مدينة شينغيانغ، حيث قتل ووقوانغ من قبل رجاله في معركة شيانغيانغ. ثم هاجم الجنرال محافظة تشن، وكان من الصعب لتشنشنغ مقاومة هجومات الجنرال العنيفة، واضطر إلى الانسحاب، وهو قتل أيضاً من قبل رجاله في وقت لاحق.

وفي ذلك الحين، لم تمض سوى ستة أشهر على انتفاضة دازه.

كان تشنشنغ وووقوانغ مثل النيازك في سماء التاريخ وظهرا ثم اختفا. وعلى الرغم من فشل انتفاضتهم، اندلعت شرارة مقاومة أسرة تشين في كل البلاد. وبعد وفاة الرجلين، صعد شيانغليانغ ثم شيانغيو وليوبانغ على مسرح المقاومة.

كان شيانغليانغ ابن الجنرال شيانغيان لدويلة تشيو، الذي قتل نفسه بعد احتلال دويلة تشين لدويلة تشين، وظل شيانغليانغ يرغب في مواصلة قضية والده ومقاومة أسرة تشين الطاغية واستعادة دويلة تشيو. لكنه اضطر إلى إخفاء نفسه بسبب أن الوقت لم يحن لمدة طويلة. وهو كان في البداية يعيش في بلدة شياشيانغ، ثم ذهب إلى مدينة ووجونغ المنتمية لدويلة تشيو أصلاً، وإن النبلاء والأغنياء كانوا يحترمونه كثيراً ويزورونه كلهم، وكان الشباب معجباً به للغاية لأنه رجل متمكن أدبياً وعسكرياً.

كان شيانغيو ابن شقيق شيانغليانغ، وهو قوي الجسم وتمكن من رفع الوعاء الضخم، وهو ذكي للغاية ومعجب لدى عمه، الذي علّمه القراءة والكتابة نفسه، غير أن شيانغيو لم يحب القراءة والكتابة، فعلمه شيانغليانغ ممارسة السيوف، ولم يتعامل شيانغيو مع ذلك بجدية، وكان شيانغليانغ غاضباً جداً، غير أن شيانغ يو برر أن القراءة والكتابة تساهمان فقط في تذكر الأسماء، وممارسة السيوف تساهم فقط في محاربة عدو واحد، وكل ذلك لا يستحق التعلم، وأريد أن أتعلم المهارة التي تمكنني من التصدي لهجوم عشرة آلاف شخص.

لذلك، بدأ شيانغيانغ تعليم في شيانغيو فن الحرب، وكان الأخير سعيداً جداً، لكنه ليس مجتهدا، حيث رفض التعلم والدراسة بعمق بعد معرفة لمحة عن فن الحرب، حتى لم يعرف عمه

كيفية التعامل مع هذا الشاب.

ظل شيانغليانغ يسعى وراء استعادة دويلة تشيو ولم ينس الانتقام. وعندما سمع عن خبر انتفاضة تشنشنغ ووغوانغ في بلدة دازه، قرر شيانغليانغ على الفور مواكبة التيار وقتل والي مقاطعة ووجونغ واحتل بلدة كوايجي، ثم قاد ثمانية آلاف جندي لعبور النهر واحتل مدينة قوانغلينغ، قبلما عبر نهر هوايخه للقتال مع جيش أسرة تشين. وانضم إليه المتطوعون من كافة الأماكن على طول الطريق، وتعظّم فريق متابعيه بسرعة، بمن فيهم الجنرالات يينغبو وبو وليوبانغ.

كان ليوبانغ هو أهل محافظة بي، وهو رجل ذكي وشاطر، وكان قائد الحراس المسؤول لإدارة الأمن في أسرة تشين. وذات مرة كان ليوبانغ مكلفا بإرسال مجموعة من العمال إلى جبل ليشان لبناء الضريح، ولكن فر العديد منهم في الطريق، وظن ليوبانغ أن الجميع سوف يهربون قبل الوصول.

لذلك، وفي منتصف الطريق عند مرور الجميع بالمستنقعات على الجانب الغربي من بلدة فنغي، اشترى ليوبانغ النبيذ ودعا العمال للشرب، حيث قال بصوت عال، إن مهمة بناء الضريح شاقة للغاية وقد تموتون هناك، فمن الأفضل لكم الفرار، وأنا سوف أهرب إلى مكان بعيد كذلك.

كان العمال مندهشين ومتأثرين، وشكروا ليوبانغ ثم غادروا، غير أن بعض الفتيين كانوا على استعداد لمتابعته، ثم قرروا الفرار إلى جبل مانغدانغ. ويقال إن ليوبانغ قتل ثعبانا أبيض أوقفه في طريق هروبه، ورأى مرافقوه عجوزا مسنة تبكي وسألواها عن سبب بكائها. قالت، هناك رجل قتل ابني، وابني هو الإمبراطور الأبيض، وهو كان يمر في وسط الطريق، لكنه قتل من قبل الإمبراطور الأحمر، ثم اختفت العجوز.

ومنذ ذلك الحين أطلق ليوبانغ الانتفاضة.

كان يتمتع مسؤول محافظة بي شياوخه وحارس السجن المحلي تساوشن علاقات جيدة مع ليوبانغ، وقتل الرجلان المحافظ للاستجابة لانتفاضة ليوبانغ، ودعواه إلى قيادة محافظة بي، وقبل ليوبانغ ذلك بسرور. ونتيجة لذلك، يُعرف ليوبانغ أيضاً باسم بيقونغ (رجل محافظة بي). وبعد ذلك عرف ليوبانغ تشانغليانغ، واتفق الرجلان بعد التشاور على العمل تحت شيانغلينغ وهو كان الأقوى في جميع القوات المتمردة في تلك المنطقة، حيث أصبح شيانغلينغ مسؤول ليوبانغ.

وفي ذلك العام تعارف ليوبانغ وشيانغيو مع بعضهما البعض، وكان الأول في الثامن والأربعية من عمره، والأخير في الرابع والعشرين من عمره.

46
معركة جولو

قاد شيانغليانغ 8 آلاف جندي لعبور النهر لمهاجمة جيش أسرة تشين، وتنامى وتعاظم جحم قواته.

وبعد ذلك قبل شيانغليانغ مقترح المستشار فانزينغ، وعثر على حفيد آخر أمير دويلة تشيو وكرّسه كإمبراطور هواي لدويلة تشيو. وأصبح شيانغليانغ متغطرساً بعد سلسلة من الانتصارات، وإن التغطرس يعني الفشل، وحذره أحد مستشاريه من إمكانية الفشل أمام التغطرس والتراخي المعنوي، ورأى ضرورة تنبي اليقظة أمام تفاقم الوضع وزيادة عدد جنود جيش أسرة تشين.

لم يسمع شيانغليانغ هذا الكلام الصادق على الإطلاق، وطرد المستشار سونغيي بحجة إرساله كمبعوثه لزيارة منطقة تشي.

اضطر سونغيي إلى الانطلاق في يأس، ورأى الوزير قاولينغ مبعوث منطقة تشي في منتصف الطريق، وسأله، هل أنت ذاهب لزيارة شيانغليانغ؟

قال قاولينغ، نعم.

قال سونغيي، من فضلك امشي ببطء قليلا، وأرى أنه فسيفشل، وقد تتفادى الكارثة المميتة لو مشيت ببطء، وإلا فقد تموت بسبب فشله.

كان قاولينغ متشككاً إلى حد ما، لكنه تباطأ في مشواره.

كما توقع سونغيي، انتشر خبر هزيمة شيانغليانغ ووفاته بعد ذلك بوقت قصير. وكان شيانغليانغ أصبح متغطرساً بعد نجاحه في عدة معارك، ولم يحضّر بشكل جيد للقتال مع جيش أسرة تشين بقيادة الجنرال تشانغهان، ولم يكن في حسبانه أن إمبراطور أسرة تشين قام بتعبئة عدد كبير

من الجنود للانضمام إلى الجيش قبيل المعركة، حيث شن الجنرال تشانغهان هجمات عنيفة ومفاجأة ضده على رأس 300 ألف جندي.

فشل شيانغليانغ في تلك المعركة رغم نجاحه المستمر بعد عبور النهر، وبالأحرى فقد حياته ومات في المعركة.

هزم الجنرال تشانغهان شيانغليانغ وقرر الانسحاب من جنوب النهر الأصفر والتقدم نحو الشمال لمهاجمة دويلة جاو، وكان أميرها خائفا للغاية وفر منها ولكن واجهه الحصار في بلدة جولو، أي جنوب غرب محافظة بينغشيانغ بمقاطعة خهبي الآن، حيث استنجد بالقوات المتمردة في مختلف الأماكن لمقاومة جيش دويلة تشين بقيادة الجنرال تشانغهان.

بعد هزيمة شيانغليانغ، قام أمير هواي لدويلة تشيو بإعادة تنظيم القوات، وأصبح جيشه قوياً من جديد.

تلقى أمير هواي رسالة الاستنجاد من قبل أمير دويلة جاو، ورأى أن جيش تشين متمركز في بلدة جولو، بما يعني نقص القوات في عاصمة أسرة تشين مدينة شيانيانغ، كما طلب شيانغيو من الأمير مهاجمة مدينة شيانيانغ للانتقام من أجل عمه، غير أن هناك بعض الوزراء قالوا للأمير سريا إن شيانغيو رجل طاغ ويحب القتال، غير أن ليوبانغ مخلص وموال، فمن الأفضل بعثه لمهاجمة مدينة شيانيانغ.

وافق الأمير هواي على ذلك وأمر ليوبانغ بالتقدم نحو الغرب ومهاجمة مدينة شيانيانغ. وفي الوقت نفسه، عيّن سونغ يي الذي تنبأ بدقة بفشل شيانغليانغ كالجنرال العام وشيانغيو كنائبه لقيادة 200 ألف جندي لإنقاذ دويلة جاو.

وصل سونغيي مع جيشه إلى مدينة أنيانغ ولم يجرؤ على مواصلة التقدم بعد معرفة أن حجم جيش تشين كبير جداً، وفكّر في التقدم بعد استنفاد قوة العدو في معارك مع دويلة جاو.

بقي جيشه في نفس المنطقة لأكثر من 40 يوما.

على الرغم من أن شيانغيو كان حريصا على الانتقام، لم يتمكن من فعل شيء لأن سونغيي هو الجنرال العام. وذات يوم استعجل شيانغيو في دخول مخيم سونغيي قائلاً، قد حاصر جيش تشين

بلدة جولو وأصبح الوضع خطراً للغاية، فعلينا أن نعبر النهر على الفور والتعاون مع جيش دويلة جاو حتى نتغلب على جيش تشين.

رأى سونغيي عكس ذلك وقال، إن جيش تشين الآن يهاجم جيش جاو، وهو سيكون مرهقا حتى ولو نجح في المعركة، حيث يمكننا استغلال الفرصة للتغلب عليه، لذا من الأفضل أن يهاجم بعضهما البعض أولا، ورغم أنك أفضل مني في ساحة المعركة، لكني أفضل منك من حيث التخطيط.

أصر شيانغيو على القتال، لكن سونغيي رفض ذلك وهدد بقتله حسب القانون العسكري.

اضطر شيانغيو الغاضب إلى التراجع، وكان الطقس بارداً وممطراً في شهر نوفمبر، ولم تتوفر الإمدادات لجيش تشيو، واشتكى الجنود من ذلك ومن إهمال سونغيي لهم الذي انغمس في المتعة والخمر في المخيم العسكري. وقام شيانغيو للمقربين إن جيش تشيو عليه الآن مهاجمة أسرة تشين، لكننا نتوقف هنا ونتعرض لنقص الإمدادات حيث يضطر جنودنا إلى أكل الأعشاب، غير أن سونغيي المنغمس في المتعة يريد المهاجمة حتى يصبح جيش تشين مرهقا، لكن الأخير سيكون أكثر قوة في حال نجاحه في المعركة ضد جيش جاو، ومن أين جاء المجال للحديث عن الاستنفاد والإرهاق؟

وفي فجر اليوم التالي، ادعى شيانغيو أنه يريد إبلاغ سونغيي عن التطورات الميدانية، واغتنم الفرصة لقتله. ثم قطع رأسه وقال للجنود، تواطأ سونغيي مع دويلة تشي في محاولة للانقلاب، وأمرني الأمير هواي بقتله.

بعث شيانغيو الجنرالات يينغبو وبو معا لقيادة القوات الأمامية لعبور نهر جانغ وقطع إمدادات جيش تشين، وشقه إلى شطرين، ثم قاد الجيش نفسه لعبور النهر وتقدم مباشرة نحو بلدة جولو.

بعد عبور النهر، أمر شيانغيو بإغراق جميع البواخر وتكسير جميع الأواني وإحراق جميع المخيمات، ولم يبق سوى بعض الأطعمة الجافة لثلاثة أيام، وهو كان ينوي إطلاع الجنود أنه ليس لديهم أي طريقة سوى التقدم نحو الأمام. وقال بصوت عال لهم، لا يمكننا إلاّ أن ننجح، ولا يجوز لنا أن نفشل.

عزز عزم شيانغيو وشجاعته من معنوية جنوده، وتقدم الجميع إلى بلدة جولو بهمة وجدية، حيث اندلعت معركة عنيفة بين جيش تشيو وجيش تشين، وكان الأول قوياً وغلب على الأخير بعد عدة معارك ضارية، وحتى اعتقل الجنرال وانغلي لجيش تشين.

هرب بقية جيش تشين، وفشل الجنرال تشانغهان في المعركة مع شيانغيو، ولم يجرؤ على العودة إلى عاصمة شيانيانغ، فاستسلم في يأس.

قاد شيانغيو جيش تشيو للتغلب على جيش تشين الذي كان أقوى من جيشه بكثير، حيث أدرج هذا النجاح في سجلات تاريخ الحروب. وفي ذلك الوقت، كانت قوات مختلف الدويلات لإنقاذ دويلة جاو لم تجرؤ على مواجهة جيش تشين، لكنها قد رأت قوة وشجاعة جيش تشيو، لذلك قدرت شيانغيو تقديرا عالياً، ورشحته كقائد للقوات المشتركة.

ذاع صيت شيانغيو في معركة جولو، حيث تقدم على جميع أمراء الحرب، وبعد هزيمة جيش تشين وإخضاع جميع القوات المتمردة، فمن كان سيكون خصمه؟

47
وضع المبادئ الثلاثة

في ذلك الوقت، من كان خصم شيانغيو؟

الجواب هو ليوبانغ، حينما قد دخل بقواته إلى مدينة شيانيانغ. دعونا نعُد ونر كيف دخل ليوبانغ إلى المدينة.

لا أعرف ما إذا كنت قد تساءلت أو لا عما يبدو عليه مدينة شيانيانغ في نهاية عهد أسرة تشين.

يمكن أن نعرف ذلك في قصيدة الشاعر دومو «قصر أبانغ»، حيث قال إن الدويلات الست قد انهارت وتم توحيد العالم من قبل أسرة تشين وقام الإمبراطور بقطع جميع أشجار الغابات في مقاطعة شو لبناء قصر أبانغ، وامتد طوله أكثر من 150 كيلومترا، وفيه مبان عالية تحجب السماء والشمس، وهو يقع في شمال جبل ليشان مواجهاً نحو الغرب مقابل مدينة شيانيانغ.

يمكنك أن تتخيل أن الإمبراطور الفاتح لأسرة تشين جمع كل التحف والثروات وأصحاب الكفاءة من الدويلات الست في مدينة شيانيانغ، وكان فيها عدد لا يحصى من القصور الفاخرة.

في وقت توالي الانتفاضات في كافة الأماكن، ظهرت مهازل واحدة تلو الأخرى في مدينة شيانيانغ.

ذات يوم حضر المخصي جاوقاو الاجتماع اليومي في القصر الملكي بأيل، وعرضه على الإمبراطور الثاني وقال له إن الحيوان خيل. ضحك الإمبراطور الثاني وقال، إنه أيل وأخطأت.

نظر جاوقاو إلى الوزراء حوله وقال ببطء، من الأفضل أن نطلب من الوزراء تقييم ما إذا كان هذا الحيوان أيلاً أم خيلاً.

أصبحت عينيه باردة وقال البعض إنه أيل وقال البعض الآخر إنه خيل، مما أثار شك الإمبراطور الثاني الذي تساءل أمام الحيوان ذي قرنين، هل هو حقاً خيل؟

في الواقع لم يهم جاوقاو ما إذا كان الحيوان أيلاً أم خيلاً، المهم هو أنه يحتاج إلى معرفة من يجرؤ على معارضته، وإقصاء الذين يجرؤون على الكشف عن الحقيقة. وبعد بضعة أيام، تم القبض على جميع الوزراء الذين قالوا إنه أيل في القصر ورماهم في السجن، حينما أصبح الجميع صامتين. ولكن كيف يمكن للصمت وقف تقدم القوات المتمردة؟ وفي هذا الوقت، كان ليوبانغ على استعداد لدخول مدينة شيانيانغ.

في عام 206 قبل الميلاد، قاد ليوبانغ الجيش ودخل منطقة ووقوان وهي الآن منطقة جنوب شرق محافظة فنغ بمقاطعة شانشي، وهو كان على استعداد لمهاجمة مدينة شيانيانغ.

كان الإمبراطور الثاني مندهشا وخائفا للغاية وأمر جاوقاو بمقاومة ليوبانغ على الفور. غير أن جاوقاو الذي أشار إلى الأيل كخيل أدرك أن أسرة تشين قد أصبحت فاسدة ولم تكن قادرة على مقاومة المتمردين، وهو كان يخشى أن يعرف الإمبراطور الثاني هذه الحقيقة، فتسلل إلى القصر وقتل الإمبراطور. ثم أرسل المبعوث للتواصل مع ليوبانغ، حيث قال إنه يمكنه الاستسلام بشرط أن يوافق ليوبانغ على أن يعينه كأمير منطقة قوانجونغ، لكن ليوبانغ رفض ذلك.

ثم استدعى جاوقاو الوزراء وقال بلا خجل إن الدويلات الست السابقة قد أعادت السلطة، وإن تسمية الإمبراطور لأسرة تشين لم تعد مناسبة، فمن الأفضل تحويلها إلى تسمية الأمير، والآن يمكن لابن شقيق الإمبراطور الثاني الراحل زيينغ الصعود إلى عرش الأمير، وما رأيكم؟

كانت في يد جاوقاو كل السلطات، ولم يجرؤ الوزراء على معارضته واضطروا إلى الموافقة.

ومع ذلك كان زيينغ يدرك أن جاوقاو قتل الإمبراطور الثاني وهو نفسه يريد أن يكون الأمير، فقرر قتله، وبسط قواته في منزله، وادعى أنه مريض في البيت في يوم تولي الحكم، وذلك لجذب جاوقاو إلى منزله، حيث يمكنه اغتنام الفرصة لقتله.

تطورت كل الأمور حسب توقعات زيينغ وقُتل جاوقاو في النهاية.

ثم أرسل زيينغ جنوده للدفاع عن منطقة شاوقوان وهي آخر حاجز لحماية مدينة شيانيانغ. وقبل شن الهجوم، قدم تشانغليانغ نصيحة إلى ليوبانغ كانت متمثلة في نصب الأعلام الصغير حول منطقة شاوجوان لإرباك جنود تشين.

كانت النصيحة فعالة وحقق ليوبانغ الانتصار بكل سهولة.

وقعت مدينة شيانيانغ في خطر بعد فقدان منطقة شياوقوان، وأدرك زيينغ أنه لم يعد قادرا على منافسة ليوبانغ، وقام بربط عنقه بحبل وركوب عربة متواضعة وإحضار ختم الإمبراطور للاستسلام إلى ليوبانغ، وقبِل الأخير الختم، حيث أكّد أتباعه ضرورة قتل زيينغ.

رفض ليوبانغ ذلك قائلاً، كلفني الأمير هواي لمهاجمة مدينة شيانيانغ لأنني رجل رحيم، وسأكون قاسياً لو قتلتُ زيينغ الذي قد استسلم. لذلك، أمر ليوبانغ الجنود باحتجاز زيينغ فقط، ثم دخل مدينة شيانيانغ، مما يعلن سقوط أسرة تشين.

عند دخول مدينة شيانيانغ، أصبح الجنود فوضويين على الفور، حيث ذهب بعضهم لنهب المجوهرات الذهبية والفضية، وذهب بعضهم الآخر لنهب التحف الفنية، وكان المسؤول شياوخه لم ينضم إلى الآخرين، بل جاء إلى مقر رئيس الوزراء وأخذ جميع الكتب والخرائط المهمة، أما ليوبانغ فهو جاء إلى قصر أبانغ وأصبح مندهشا للغاية بجماله فور الوصول.

وكان القصر أمامه ممتدا وفاخرا ومتألقا، وفيه عدد لا يحصى من التحف والنوادر، فضلاً عن الكثير من الحسناوات ، ولم تكن لليوبانغ فرصة لرؤية هذا المشهد المذهل، فرغب في الإقامة فيه. وفهم الجنرال فانكواي نية ليوبانغ وقال له بلا كلل، إن هذه الأغراض الفاخرة ليست مهمة بالنسبة لنا. وعلى الرغم من دخولنا إلى مدينة شيانيانغ، ما زلنا بحاجة إلى إكمال القضية العظيمة وهي حكم البلاد كلها.

لم يهتم ليوبانغ بنصيحة فانكوي، وطرده وبقي في القصر وحده. ثم جاء تشانغليانغ، الذي قال إن فانكوي له حق، حيث يجب علينا ألا ندمن في المتعة على الإطلاق، وقد استولت القوات المتمردة الأخرى على مدينة شيانيانغ، ولا بد لنا من تبني الوعي واليقظة.

اقتنع ليوبانغ وغادر قصر أبانغ أخيرا على مضض، وأمر بإغلاق خزانة الذهب والفضة والمجوهرات، وعاد إلى منطقة باشانغ التي هي الآن شرق مدينة شيآن بمقاطعة شانشي. وبالإضافة إلى ذلك، أرسل عددا من الجنود والخيول للدفاع عن وادي هانقو من قبل القوات المتمردة الأخرى.

وفي وقت لاحق، استدعي ليوبانغ مواطني المحافظات المتجاورة لمدينة شيانيانغ إلى منطقة باشانغ وقال لهم، تعرضتم لقمع القوانين القاسية لأسرة تشين لفترة طويلة، وينبغي إلغاء مثل هذه القوانين قبل مدة، فالآن أطرح ثلاثة مبادئ يجب علينا الالتزام بها، ألا وهي إبادة القاتل وتجريم المعتدي والسارق، وسألغي جميع المراسيم والقواعد الأخرى لأسرة تشين.

بعد أن استمع الناس الى كلامه، كانوا سعداء للغاية ورأوا أن ليوبانغ رجل رحيم جداً، ثم جلبوا لحوم الأغنام والأبقار والكحول من منازلهم لتكريمه، لكنه رفض وقال، هناك حبوب كافية في المستودع، ولا داعي للقلق ولجلب هذه الهدايا، وكان الناس سعداء بوقوف ليوبانغ معهم، وأملوا أن يكون ليوبانغ زعيمهم.

48
مأدبة هونغمن

أرسل ليوبانغ عددا من الجنود والخيول للدفاع عن وادي هانقو لمقاومة هجومات القوات المتمردة الأخرى.

إذن هل هو نجح في ذلك؟

في ذلك الوقت، كان ليوبانغ مكلفا من قبل الأمير هواي للتقدم نحو الغرب لمهاجمة مدينة شيانيانغ مباشرة، بينما كان شيانغيو مكلفا لتقدم نحو الشمال لإنقاذ دويلة جاو ثم مهاجمة المدينة، حيث قال الأمير إن أول من يدخل ويحتل مدينة شيانيانغ سيكون زعيم منطقة هانتشونغ.

ما فعل شيانغيو بعد دخول ليوبانغ إلى مدينة شيانغيانغ؟ اتضح أنه كان ينوي مهاجمة المدينة بعد استسلام الجنرال تشانغهان لأسرة تشين، غير أن جنود تشين المستسلمين البالغ عددهم 200 ألف قالوا، إذا سمحنا بدخول جيش تشيو إلى المدينة، سوف يقتل جميع أبنائنا في البيوت، فما العمل؟

انتشر هذا القلق والخوف في صفوف كل الجنود في وقت قصير.

قلق شيانغيو من عدم تمكنه من السيطرة على هؤلاء الجنود المستسلمين بعد معرفة الخبر، فأمر المقربين بوأد أكثر من 200 ألف جندي من أسرة تشين خلال ليلة، ولم يتبق سوى تشانغهان وغيره من الجنرالات المستسلمين، فيسير البطل المُدعى على امتداد نهر الدم، ويمتلئ قلبه بالقسوة غير المحدودة، ومنذ ذلك الحين، تم ربط سمعة شيانغيو بالقسوة والوحشية.

قاد شيانغيو الجيش للوصول إلى وادي هانقوقوان، لكن الحراس لم يسمحوا لهم بالدخول، وقالوا، لا يمكن أي قوات العبور وفقا لتعليمات الجنرال ليوبانغ.

أصبح شيانغيو غاضباً جداً وأمر جنوده بشن هجوم عنيف ضد الحراس، ولم يستغرق الهجوم وقتا طويلاً قبل أن حقق شيانغيو النجاح، وواصل التقدم حتى بلدة هونغمن التي تقع الآن في شمال شرق لينفن بمقاطعة شنشي، حيث جاءه القائد التابع لليوبانغ تساو ووشانغ لإعلان الولاء أمامه، وأخبره أن ليوبانغ عزز تأثيره في مدينة شيانيانغ، وهو يريد أن يكون زعيم منطقة هانجونغ.

قال المستشار فانتسن إن ليوبانغ لم تنهب الثروات ولا الحسناوات، ووضع ثلاثة مبادئ للشعب، ومن البديهي أنه يملك أجندة خاصة، فلا بد من القضاء عليه، وإلا فهو سيكون كارثة لنا.

لذلك، قرر شيانغيو القضاء على ليوبانغ، حيث رابط في بلدة هونغمن مع جنوده البالغ عددهم 400 ألف لمواجهة جنود ليوبانغ البالغ عددهم 100 ألف.

كان عم شيانغيو شيانغبو صديق لتشانغليانغ مستشار ليوبانغ، وهو كان خائفا من تضرر الأخير في حال اندلاع الحرب، لذلك تسلل في معسكر ليوبانغ ذات ليلة وحث تشانغليانغ على الهروب. غير أن الأخير أخذه لمقابلة ليوبانغ. وكان ليوبانغ مندهشا وخائفا من الهجوم المتوقع، ثم طلب من شيانغبو أن يقول شيئاً جيداً وجميلاً لصالحه أمام شيانغيو وليس له أي أجندة خاصة على الإطلاق. ووثق شيانغبو هذا الكلام ووعد بمساعدته، وطلب منه الاعتذار إلى شيانغيو في بلدة هونغمن اليوم التالي.

في الصباح الباكر من اليوم التالي، قاد ليوبانغ المستشار تشانغليانغ والجنرال فانكواي وغيرهما من المرافقين للوصول إلى بلدة هونغمن للقاء مع شيانغيو. وقال باحترام له، أتشرف للغاية برؤيتكم، وأنا دائما في انتظاركم، وأنا لا أعرف من هو الشرير الذي قد أثار سوء الفهم بيننا، فأتقدم باعتذاري وأرجو منكم العفو.

كان شيانغيو شخصاً سليط اللسان، وقال بشكل عرضي لليوبانغ المتواضع إن من قد فعل ذلك هو القائد التابع لك تساو ووشانغ، وكيف يمكن أن أصدق ذلك بدون كلامه؟

في وقت لاحق، أقام شيانغيو مأدبة على شرف ليوبانغ، حيث اقترح المستشار فانتسن عليه مرارا وتكرارا لقتل ليوبانغ بشكل سري، لكنه لم يوافق بل استمر في شرب الخمر مع ليوبانغ، ثم غادر المستشار المخيم وقال لشقيق شيانغيو شيانغ تشوانغ، من الأفضل أن تدخل المخيم للبحث عن فرصة لقتل ليوبانغ.

ثم دخل شيانغ تشوانغ المخيم لتقديم الخمر لشقيقه، وقال له، ليس هناك الكثير من الأنشطة الترفيهية في المأدبة، وأنصح أن أرقص مع سيفي أمامكم، وذلك من أجل الترفيه.

وافق شيانغيو على نصيحة شقيقه.

كان شيانغبو يدرك أن شيانغ تشوانغ ينوي قتل ليوبانغ، حيث أن سيفه مستهدفا دائما تجاهه، وكان ليوبانغ ومستشاره تشانغليانغ خائفين. ثم خرج الأخير من المخيم بحجة ما وقال لفانكواي، إن الوضع الآن خطير للغاية، ويبدو أنهم أرادوا القضاء على زعيمنا. ثم حمل فانكواي سيفه ودخل المخيم غاضباً ونظر إلى شيانغيو، وكان الأخير قلقا ومستعدا للوقوف لقتله، وسأل، من هو هذا؟ لماذا دخل المخيم فجأة؟

ابتسم تشانغليانغ وقال، هو فانكواي سائق الجنرال ليوبانغ، وهو رجل متهور، وأرجو منكم إعفاءه.

كان شيانغيو معجباً بشجاعة وقوة فانكواي، ثم كافأه بساق مملح للخنزير وكأس من النبيذ. غير أن فانكواي قال غاضباً، سبق للأمير هواي أن قال إن الذي يدخل مدينة شيانيانغ أولا يكون الزعيم، ولكن لم يعلن الجنرال ليوبانغ أن يكون الزعيم رغم دخوله للمدينة أولا، بل تطلع إلى وصولكم، ولكن تتعامل معه بهذه الطريقة، وفما الفرق بينكم وبين إمبراطور أسرة تشين الطاغي.؟

ازدادت ثقة شيانغيو بفانكواي بعد هذا الكلام، وبعد وقت قصير، غادر ليوبانغ المخيم بحجة الذهاب إلى الحمام، وخرج معه تشانغليانغ وفانكواي، حيث فر ليوبانغ سريا.

بعد قطع مسافة طويلة لليوبانغ، دخل تشانغليانغ المخيم وقال، إن الجنرال ليوبانغ سكران فاعتذر وعاد إلى المعسكر أولا، وأمرني أن أتقدم بهدايا اليشم البيضاء الجميلة للجنرال والمستشار، وقبل شيانغيو الهدية بكل سرور، غير أن فانتسن غاضب وتنهد باستمرار وكسر اليشم بسيفه، قال لنفسه، لا يمكننا الانتظار فإلا فسنكون أسرى.

هذه هي قصة «مأدبة هونغمن» الشهيرة، حيث خسر شيانغيو فرصة عظيمة لقتل عدوه الكبير، وأطلق سراح النمرة للرجوع إلى الجبل التي أصبحت لاحقاً الكارثة له. وكان «مأدبة هونغمن» تدشينا للنزاع بين ليوبانغ وشيانغيو.

49
مطاردة شياوخه لهانشين

نعلم أن الشاعر نظّم قصيدة «قصر أبانغ»، حيث وصف الزخارف الفاخرة والمباني والمقصورات والجسور الجميلة في القصر بكلمات جميلة.

وماذا حصل للقصر في النهاية؟

سقط القصر في ألهاب النيران، التي دامت لأكثر من 90 يوماً ولم يستطع الناس في مدينة شيانيانغ نسيانها، حينما كانت لياليهم مشرقة. وتحول القصر إلى كومة من الرماد بعد انطفاء النيران، حيث تم تدمير جميع الكنوز والتحف التي جمعها الإمبراطور الفاتح لأسرة تشين من الدويلات الست. نعم وإن الجمع ليس بالضرورة أن يؤدي إلى الحماية. ويبدو أن النيران التي دامت لثلاثة أشهر كانت بمثابة تضحية لأسرة تشين الحاكمة. فإذن من أحرق القصر؟

إنه شيانغيو.

بعد أيام قليلة من مأدبة هونغمن، قاد شيانغيو الجيش للدخول إلى مدينة شيانيانغ، وكان جنوده الذين قد تعرضوا لاستغلال أسرة تشين دخلوا المدينة باستياء وسخط، ولم يغفروا الإمبراطور المستسلم زيينغ، بل قتلوه وغيره من 800 شخص في الأسرة الملكية. وعندما رأى هؤلاء قصر أبانغ الفاخر، خطر في بالهم أنه مبني على دمائهم ودموعهم.

أشعلوا النار على قصر أبانغ، ودامت النيران لثلاثة أشهر وتحول القصر إلى الأنقاض في النهاية.

ومنذ ذلك الحين، صعد شيانغيو إلى قمة السلطة، كأن كل العالم بين يديه، حتى أن الأمير هواي لدويلة تشيو اضطر إلى أن يخضعه، وعينه شيانغيو الأمير ييدي وهذا منصب اسمي وشكلي.

وبعد ذلك، قام شيانغيو بتقسيم البلاد الموحدة إلى 18 ولاية، واعتمد نفسه الحاكم المهيمن شيتشو، وبنى عاصمته في مدينة بنغتشنغ التي أصبحت الآن مدينة شيوزهو بمقاطعة جيانغسو.

فكّر شيانغيو لمدة مطولة حول كيفية التعامل مع خصامه الأقوى ليوبانغ، وهو قرر قبول رأي المستشار فانتسن لتعيينه كأمير هان لإشراف الأكثر من 40 محافظة في مناطق هانتشونغ وباشو النائية. وكان ليوبانغ غاضباً للغاية، حتى أنه أراد أن يهاجم شيانغيو ويقتله، لكن مستشاره شياوهو عارضه من فعل ذلك.

وقال، على الرغم من أن هذا المنصب ليس جيداً بالفعل، لكن هذه النتيجة أفضل من الموت على الأقل؟

وواصل في القول، إن قواتنا أضعف من قوات شيانغيو، وسندخل الطريق المسدود لو أصررنا على الهجوم والقتال. ولكن لو توليت هذا المنصب، يمكنك حشد إرادة الشعب وجمع أصحاب الكفاءة، لكي تكون مؤهلا للسيطرة على العالم. وقال المستشار تشانغليانغ أيضاً، لم تأت الفرصة بعد، وعلى معاليك تبني الصبر.

لم يكن لدى ليوبانغ أي خيار إلاّ الذهاب إلى عاصمة نانجنغ لولايته، التي هي الآن في شرق مدينة هانتشونغ بمقاطعة شنشي. وفي طريق ذهابه، قبل ليوبانغ اقتراح تشانغليانغ وأحرق الجسر بين منطقة قوانجونغ وولايته لإظهار ضعفه لشيانغيو، بما يشير إلى أنه لن يعود إلى الشرق للتنافس معه.

فهل تخلى ليوبانغ عن التقدم نحو الشرق بالفعل؟

بالطبع لا. وفي الواقع، عيّن ليوبانغ شياوخه كرئيس للوزراء وتساوشن وفانكواي وجوبو كجنرالات، وقام بتعزيز القدرة الذاتية سرا في محاولة لهزيمة شيانغيو. غير أن الجنود لم يفهموا فكرة ليوبانغ، بعد أن رأوا أن الجسر بين مسقط رأسهم والولاية الجديدة قد ألحراق، ولم يعرفوا العادات والتقاليد الجديدة في منطقة هانجونغ، فبدأوا شعروا بالحنين إلى الوطن، حيث فر بعضهم، مما أثار القلق الشديد لليوبانغ.

مما زاد قلق ليوبانغ هو خبر فرار رئيس وزرائه شياوخه، وهو كان غاضباً جداً لأن شياوخه أحد أهم مستشاريه، وإن فقدانه مثل قطع اليدين.

غير أن شياوخه له يفر بل ركب خيلاً لمطاردة أحد الجنرالات الهاربين، ومن كان هذا الجنرال بالضبط؟ وهو يستحق مطاردة شياوخه الذي لم يجد الوقت حتى لإبلاغ ليوبانغ.

كان هو هانشين المعروف كالجنرال الشهير عبر آلاف السنين.

قبل خدمة ليوبانغ، يمكن وصف حياة هانشين بأنها فاشلة. وهو من أهل مدينة هوايين وكان يعيش حياة فقيرة في سنواته الأولى، حيث سكن في بيت قائد الحراس المحلي، لكنه شعر بالاشمئزاز من زوجة القائد. واضطر إلى الصيد خارج المدينة في يأس، لكن الصيد لم يكن كافياً لحل إشكاليات الغذاء والكساء، ورأته امرأة عجوز كانت تغسل الملابس بجانب النهر وظنت أنه مسكين، فأعطته بعض الطعام بين حين وآخر.

قال هانشين مع الامتنان للعجوز، من المؤكد أنني سوف أرد الجميل عليك المستقبل.

قالت العجوز بغضب، أعطي لك الطعام بسبب أنك فقير، أكان السبب طلب الجميل منك؟

في الواقع، فإن هذا الكلام لم يهم هانشين كثيراً، لكنه تعرض لإهانة أكبر بعد ذلك جاءت من تحت المنشعب.

ذات يوم مر هانشين بالسوق حيث أوقفه فتى وقال له ببرود، على الرغم من كونك طويل القامة وقوي، ومعك سيف طول، لكنني أعرف أنك ضعيف جداً، واليوم لن تتمكن من مغادرة هذا المكان إما تطعنني بالسيف، إما تمر من تحت منشعبي؟

ماذا فعل هانشين؟ شدد المقبض واسترخى ببطء. وتحول وجهه فجأة إلى اللون الأحمر ثم هدأ ببطء. وبعد وقت طويل، نكب ومر من تحت منشعب الفتى، وضحك الفتى وجميع الناس في الشارع، حينما لم يتوقعوا أن هذا الرجل سوف يحقق إنجازات مذهلة في المستقبل.

بعد فترة وجيزة من تلك الإهانة، بدأ هانشين رحلته بهدوء.

ذهب إلى شيانغليانغ لخدمته في البداية، وخدم شيانغيو بعد وفاة الأخير، غير أنهما ليسا حكماء ولم يجدا كفاءة هانشين، فكان لا يمكن له إلاّ مواصلة رحلته بصمت.

في وقت لاحق ذهب هانشين لخدمة ليوبانغ، لكن الأخير لم يلاحظ موهبته. فهل سيقضي التاريخ عليه مثلما يقضي على الآخرين الذين ليست لديهم الأسماء؟ فكّر هانشين في هذا الموضوع ولم يستطع النوم في العديد من الليالي. غير أن اللؤلؤ يضيء دائما، حيث جاءت هانشين الفرصة عندما حاول مغادرة ليوبانغ.

وكان شياوخه هو الذي أتاه بالفرصة.

وهو جيد في اكتشاف أصحاب الكفاءة، وبعد معرفته لهانشين والتعامل معه، كان مقتنعا أن الرجل أمامه كفء واعد غير مسبوق، ثم اقترح على ليوبانغ تعيينه واستخدامه، غير أن كلامه لم يثر اهتمام ليوبانغ، لذلك قرر هانشين الحزين المغادرة بهدوء. وكان شياوخه قلقا للغاية بعد معرفة الخبر ولم يكن لديه وقت للإبلاغ إلى ليوبانغ قبل أن يركب الخيل لمطاردة هانشين، والتحق به في النهاية وقال له، لا يمكنك المغادرة، وإن أمير ليوبانغ يحتاج إلى مساعدتك لاستكمال قضية الهيمنة.

اقتنع هانشين وعاد مع شياوخه.

وبعد بضعة أيام، سمع ليوبانغ أن شياوخه قد عاد، فأصبح غاضباً وسعيداً في آن واحد، ثم استدعى شياوخه وسأله، لماذا هربت؟

قال شياوخه، لم أهرب بل قمت بمطاردة رجل هارب. وكان ليوبانغ مندهشا بعض الشيء وسرعان ما سأله، إن معسكر الجيش له هاربون كل يوم، ومن كان الرجل الذي طاردته؟

أجاب شياوخه، اسمه هانشين، وهو رجل كفاءة نادر لا مثيل له في العالم، يا زعيمي، إذا اكتفيت بكونك أمير ولاية خانجونغ، لن يكون هانشين فعالا للغاية، ولكن إذا أردت السيطرة على البلاد كلها، فلا بد من إيلاء الاهتمام الأقصى به، فماذا تريد ان تفعل؟

تساءل ليوبانغ، كيف يمكنني البقاء في ولاية هانجونغ طوال الوقت؟ وأنا أثق بك، فليكن هانشين الجنرال.

وقال شياوخه، إن منصب الجنرال لن يصل إلى المستوى المطلوب.

وقال ليوبانغ على الفور، إذن ما رأيك في الجنرال العام؟

شكر شياوخه زعيمه، ثم طلب ليوبانغ من حارسه لإخبار هاشين حول هذا القرار الجديد. وأوقفه شياوخه من فعل ذلك وقال، إن تعيين الجنرال العام أمر هام، ولا يمكن نسيان العادات والتقاليد مثل الأمور الهامة الأخرى، ويجب تبني الصدق والإخلاص واختيار تاريخ مبروك وإقامة طقوس كبيرة على شرف الجنرال العام.

رأى ليوبانغ أن كلام شياوخه صحيح فاتفق معه.

أقام ليوبانغ طقوس كبيرة وفاخرة لتعيين الجنرال العام، وقرر هاشين إظهار وتفعيل جميع مواهبه وكفاءته لشكر ليوبانغ على الاهتمام البالغ به، حيث ساعد ليوبانغ على تحليل الوضع في البلاد بالتفصيل وقال، إن الرجل الوحيد الذي يقدر على التنافس معك للسيطرة على البلاد هو شيانغيو، وعلى الرغم من أنه رجل شجاع، إن شجاعته غاشمة وهو لم يتمكن من تعيين أصحاب الكفاءة والحكمة، وعلى الرغم من أنه يتعامل مع الآخرين باحترام وصدق، إنه مثل امرأة ولا يعرف مكافأة الناس، حيث قام بالذبح والنهب أينما كان، وهو قد فقد ثقة الشعب منذ فترة طويلة، لذلك لم يكن من الصعب هزمه.

اقتنع ليوبانغ بكلام هانشين كثيراً، واقترح هانشين على ليوبانغ التصرف عكس شيانغيو، وعليه أن يعين السادة الفاضلين ويكافئ الأبطال وينافسه في نيل ثقة الشعب. وسأله ليوبانغ، كيف يمكن تحقيق ذلك؟

أشار هانشين إلى أن شيانغيو قد عين ثلاثة جنرالات مستسلمين لأسرة تشين كأمراء لثلاث ولايات في منطقة قوانجونغ، وذلك من أجل اعتراضك ومنعك من دخول العاصمة، ولأن هؤلاء الجنرالات قادوا شيانغيو لدخول منطقة قوانجونغ، فهم أكثر الناس المكروهين لدى شعب المنطقة، لذلك إن القضاء عليهم لا يساهم في نيل ثقة الشعب فحسب، بل أيضاً في وضع الأساس لمهاجمة شيانغيو.

كان ليوبانغ سعيداً للغاية بعد الاستماع إلى هذا الكلام، فقرر استعمال هذا التكتيك لبدء سلوك الطريق المؤدي إلى الهيمنة.

50
المنافسة بين تشو وهان

إذا لعبت الشطرنج الصيني من قبل، ستعرف أن هناك أربعة مقاطع صينية منقوشة على وسط اللوحة بمعنى «النهر الحدودي بين تشو وهان». فلماذا توجد هذه المقاطع على لوحة الشطرنج، وما هي القصة وراءها، وأين يقع هذا النهر الحدودي بين تشو وهان.

إذا أردت أن تعرف الأجوبة، فدعونا نتحدث أولا عن الشاعر روانجي في عهد أسرتي وي وجين، وهو كان يحب السفر والتجول على عربة البقرة، وكانت بقرته مشيت على الطريق القديم الذي كان مليئا بالطين والأعشاب ببطء، بينما كانت على متن العربة جرار الخمر، وهي تذبذبت مع تحرك العربة.

كان روانجي حرا وعشوائياً في المضي قدما. وتوقف للاستراحة وشرب بعض الخمر إذا تعب، وواصل في التقدم بعد الاستيقاظ من النوم. ولكن لكل طريق نهايته، فإذا وجد أن الطريق مسدودا في النهاية، فبكى في يأس وحزن قبل أن رجع وسلك طريقا آخر.

واصل روانجي سفره وتجوله على الطين وبين الأعشاب.

ذات يوم جاء إلى جبل قوانغوو لمدينة يينغيانغ بمقاطعة خنان، وكان هناك نهر في الجبل وعلى جانبيه بعض الآثار القديمة، حيث عرف أن جيش شيانغيو سبق أن تمركز في شرق النهر، أما جيش ليوبانغ فتمركز في غربه. وهو جاء هذا المكان في أواخر الخريف، حيث تساقطت أوراق الأشجار وتدفقت المياه في هذا النهر القديم في هدوء.

تردد روانجي في نفس المكان لمدة طويلة قبل أن تنهد، إذا لم يكن للعصر بطله، فأصبح الرجل العادي مشهوراً. ورغم العديد من التفسيرات للبطل في هذه الجملة، بلا شك أن ليوبانغ

وشيانغيو كانا مصدر تنهده، فما العلاقة بين هذا النهر والرجلين؟ وما العلاقة بين النهر وبين مقاطع النهر الحدودي بين تشو وهان على لوحة الشطرنج؟

كما ذكر سابقا أن ليوبانغ قد عين هانشين جنرالا عاما لجيشه.

بمساعدة هانشين وشياوخه، قام ليوبانغ بتعزيز قوة جيشه، وشعر بأن الوقت قد حان في عام 206 قبل الميلاد، لذلك قاد القوات لمهاجمة منطقة قوانجونغ واحتلها بسهولة. وكان سبب نجاحه هو استياء الشعب المحلي من التدابير القمعية التي اتخذه الجنرالات المستسلمين المحليين لأسرة تشين السابقة ضده، فضلاً عن تعاطفه مع ليوبانغ الذي سبق أن وضع ثلاثة مبادئ له، وكان الشعب لم يرغب في المقاومة بعد معرفة إن ليوبانغ قد جاء لاحتلال المنطقة.

عادت منطقة قوانجونغ إلى يدي ليوبانغ وشعر شيانغيو بالتهديد فقرر إرسال القوات للقتال مع ليوبانغ، ولكن قبل شن الهجوم اندلعت فوضى في ولاية تشي. وعلى أساس تحليل وتقييم الوضع، قرر شيانغيو قمع المتمردين في ولاية تشي أولا، الأمر الذي هيأ ظروفا ملائمة لنمو وتطور قوة ليوبانغ، الذي استغل الفرصة في صيف عام 205 قبل الميلاد ليحتل عاصمة بنغتشنغ لشيانغيو.

ازداد ليوبانغ تغطرساً بعد احتلال عاصمة بنغتشنغ، حيث أقام مآدب على شرف الجنرالات وشرب الخمر ليلاً ونهاراً، حينما بدأ شيانغيو العودة بعد معرفة سقوط عاصمته في يدي ليوبانغ على رأس جنود النخبة.

اندلعت معارك بين الجيشين في مناطق غوشوي وسيشوي، وخسر ليوبانج واضطر إلى التراجع، وطارده شيانغيو باستمرار حتى منطقة سويشوي، حيث فشل ليوبانغ من جديد وغرق جنوده البالغ عددهم أكثر من 100 ألف في النهر، حتى توقف تدفق المياه وانقطع النهر. وحقق شيانغيو الانتصار في كافة المعارك ضد ليوبانغ بعد ذلك، مما أدى إلى سقوط عدد لا يحصى من الضحايا والجرحى في جيش ليوبانغ، وحتى تم القبض على والده وزوجته من قبل شيانغيو.

فر ليوبانغ بجيشه المتبقي إلى مدينة تشنغقاو بولاية رونغيانغ، التي هي الآن المنطقة المحيطة بمحافظة قونغشيان بمقاطعة خنان. وفي ذلك الوقت، لم يكن لدى ليوبانغ بما يكفي من الإمدادات والجنود، فاضطر إلى طلب السلام من شياوغيو، لكن الأخير قبل نصيحة مستشاره فانتسن ورفض طلب ليوبانغ، بل قرر محاصرة ولاية رونغيانغ.

وكانت المحاصرة تصادف عملية الإنقاذ التي قادها شياوخه وهانشين لليوبانغ، فقرر الأخير تغيير تكتيكاته، المتمثلة في الدفاع عن ولاية رونغيانغ من جهة للقتال مع شيانغيو، ومن جهة أخرى بعث هانشين لمهاجمة ولايات وي وجاو ويان لتعزيز القوة الذاتية. ولكن إن المقاومة لم تكن سهلة، حيث تنهد ليوبانغ ذات يوم، متى يمكن توحيد البلاد المليء بالنزاعات والاضطرابات؟

تقدم المستشار تشينبينغ بنصيحته إلى ليو بانغ وقال، لا يوجد أي مسؤول موال ومستقيم سوى فانتسن وتشونغ ليمي في جيش شيانغيو، فيمكننا كسر العلاقات بينهما وشيانغيو بالذهب والفضة، سوف ننجح بفضل هذا التكتيك لأن شيانغيو هو رجل يشك كثيراً، ثم سيكون هزمه أمرا سهلا جداً.

وافق ليوبانغ وأعطى تشينبينغ 20 ألف كيلوغرام من الذهب لحسن استخدامه.

كما توقع تشينبينغ، وقع شيانغيو المتهورة في الفخ، حيث شك في تواطؤ فانتسن مع ليوبانغ، فلم يعتمد نصيحته في محاصرة ولاية رونغيانغ. وكان فانتسن غاضباً جداً من شك شيانغيو فيه وقال له، إن الوضع في البلاد ثابت الآن ولك قوات قوية وكبيرة وشجاعة، ومن المؤكد أنك ستكون المهيمن، غير أنني كبير السن فاسمح لي بأن أتقاعد وأرجع إلى بلدتي.

لم يمنعه شيانغيو بل وافقه بموقف بارد.

شعر فانتسن بأنه قد بذل قصارى جهده لمساعدة شيانغيو، لكن الأخير تعامل معه بمثل هذا الموقف البارد، كأن الدم الدافئة أصبحت باردة في الثلوج، وهو كان غاضباً ومنزعجا، ومات في الطريق إلى بلدته مرضا. وكان ليوبانغ سعيداً بمعرفة خبر وفاة فانتسن رغم أن جيشه ما زال أقل قوة من جيش شيانغيو، لكن الأخير رجل شجاع وليس حكيما، ولم يعد ليوبانغ خائفا منه.

في عام 203 قبل الميلاد، هاجم شيانغيو مدينة تشنغقاو ونجح ليوبانغ في الهروب من البوابة الشمالية للمدينة، وفي الوقت نفسه حقق هانشين انتصارات متتالية في ولايات وي ويان وجاو، فأمره ليوبانغ بالاستمرار في قهر الأراضي الجديدة وتوسيع القوة، وأمر الجنرال بينغيو بقطع الإمدادات لشيانغيو، واضطر الأخير إلى مهاجمة بينغيو بعد انقطاع الإمدادات، حيث انتهز ليوبانغ الفرصة لشن الهجوم المضاد واحتل مدينة تشنغقاو مرة أخرى.

ما إن هزم شيانغيو الجنرال بينغيو حتى عرف أن ليوبانغ قد احتل مدينة تشنغقاو، فاضطر إلى قيادة الجيش على الفور للوصول إلى منطقة قوانغوو التي هي الآن منطقة يينغيانغ بمقاطعة خنان، مما تشكلت المواجهة بين جيشي تشو وهان عبر نهر صغير، وكان في شرقه جيش تشو وفي غربه جيش هان.

مع تراجع المواد الغذائية والإمدادات، أراد شيانغيو إنهاء المعركة في أقرب وقت ممكن، فطرح فكرة القتال مع ليوبانغ بوحده وجها لوجه، غير أن ليوبانغ خائف من ذلك ولم يوافق. فأمر شيانغيو بنصب منصة مرتفعة ووضع والد ليوبانغ علية مكبد اليدين، وصرخ من بعيد إلى ليوبانغ، إذا لم تستسلم، فسأقتل والدك.

كان يبدو ليوبانغ غير مهتم بالأمر وقال، كنا وزراء أمير هواي واتفقنا أن نكون شقيقين، فأليس والدي والدك؟ وإذا استطعت قتل والدك وطهي الحساء من لحمه، فيرجى إعطائي كوباً من ذلك.

لم يكن لدى شيانغيو أي خيار أمام ليوبانغ المارق سوى قتل والده، ولكن قال شيانغبو عم شيانغيو، إن لم يكن التهديد فعالا، فإن قتل والد ليوبانغ سيكون عديم الفائدة، ومن الأفضل إقناعه بالقتال معنا مباشرة.

وافق شيانغيو وبعث مبعوثه وأمره بنقل كلامه لليوبانغ: إن المواجهة اللانهائية سبب فوضى البلاد، فمن الأفضل أن نتقاتل وجها لوجه مباشرة.

رفض ليوبانغ بشكل قاطع وقال، أتقاتل معك بالحكمة ولا بالقوة.

ذات مرة أجرى الرجلان الحديث عبر نهر قوانغوو، حيث عرض ليوبانغ الجرائم التي ارتكبها شيانغيو مثل قتل الأمير ييدي والمدنيين، مما أثار سخط شيانغيو الشديد، حيث أطلق سهاما على ليوبانغ وأصابه في الصدر. ولكن من أجل إرباك شيانغيو، انحنى ليوبانغ بشكل متعمد بغض النظر عن الألم الشديد ولمس أصابع قدمه وصاح، آه قد أصاب هذا السهم أصابع قدمي. ثم تراجع إلى الوراء بسرعة، ولكن سرعان ما انتشر خبر إصابته في الجيش كله، ومن أجل تهدئة الضباط والجنود، اضطر ليوبانغ إلى إجراء جولات تفقدية في كافة الثكنات، حيث وجد الناس أنه في حالة جيدة وأصبح جميعهم مرتاحين.

عرف شيانغيو خبر تفقد ليوبانغ في الجيش، وقد أصيب بخيبة أمل لعدم قتله بالسهام.

تزامن هذا الخبر مع انتصار هانشين في المعركة ضد جيش شيانغيو في منطقة تشي، وانتصار بينغيو في منطقة ليانغ وقطعه لإمدادات جيش شيانغيو، مما أثار قلقه، حينما بعث ليوبانغ مبعوثه لطلب السلام مع شيانغيو، شرط أن يطلق الأخير سراح والد ليوبانغ وزوجته، وأن يتخذ نهر قوانغوو كفاصل بين دويلة تشو ودويلة هان، وتقع دويلة تشو في شرقه ودويلة هان في غربه، ولم يكن أمام شيانغيو أي خيار سوى الموافقة.

وقد أنهى اتفاق الرجلين النزاع بين دويلتي تشو وهان الذي دام حوالي أربع سنوات، وتشكل «النهر الحدودي بين تشو وهان»، وجعل الاتفاق بينهما هذا النهر القديم العادي فاصلاً مشهوراً في التاريخ.

وفي وقت لاحق، انجذب كثير من الشعراء لزيارة هذا النهر، حيث قاموا باستعراض تاريخ الحرب بين تشو وهان وخلق القصائد المؤثرة، وعلى رأس هؤلاء الشعراء ليباي وهانيو، فضلاً عن روانجي الذي تنهد بجانب النهر، إذا لم يكن للعصر بطله، فأصبح الرجل العادي مشهوراً.

51

أغاني تشو من الاتجاهات الأربعة

وقف شيانغيو على ضفة نهر ووجيانغ مع خيله الجواد الأسود في الرياح الغربية الشديدة.

رفرفت ملابسه في الرياح، التي كانت مليئة ببقع الدم الداكنة، وعلى وجهه نوع من اليأس والعجز والحزن، ووقف بجانبه مسؤول شؤون النهر وأشار إلى القارب بالقرب منه قائلاً، يا المهيمن، فلتبعني لعبور النهر.

نظر شيانغيو إلى الأرض في الجانب المقابل لنهر ووجيانغ وأجاب بخفة، فما الفرق لو عبرت النهر؟

كان صوته منهكاً وقديما، وقال المسؤول، إن الضفة الشرقية صغيرة المساحة وقليلة السكان، ولكن على كل الأحوال فيها مئات آلاف السكان ولها مئات آلاف الكيلومترات من الأراضي، وإن الناس يدعمونك بشدة، فأرجو منكم عبور النهر معي، وإن هذا القارب هو الوحيد هنا، وحتى لو وصل جيش هان، لا يستطيع عبور النهر.

نظر شيانغيو إليه وقال بنظرة فارغة، قدت 8 آلاف جندي لعبور هذا النهر قبل سنين، ولكن قد توفي كلهم، حتى ولو كان الناس في الضفة الشرقية يتعاطفون معي ويدعمونني لأكون الإمبراطور، ولكن كيف أواجههم؟ عبور النهر، عبور النهر، لم يكن لدي أي سبب لعبور النهر.

حاول المسؤول مواصلة القول لكن شيانغيو أوقفه، وأهداه خيله وقال ببطء، رافقني هذا الخيل في كل الأماكن وهو شجاع وقوي للغاية ويمكن أن يركض 500 كيلومتر كل يوم، ولا أستطيع تحمل موته معي فأعطيه إياك الآن.

لم يكن أمام المسؤول أي خيار سوى صعود القارب بالخيل في يأس وحزن.

تحرك القارب نحو وسط النهر بعد لحظة، ونظر شيانغيو إلى خيله للمرة الأخيرة، ثم تراجع وواجه قوات هان القادمة، وهمس لنفسه، يمكن أن أموت شرط أن أموت في جو مهيب وعظيم، ثم هرع إلى قوات هان وانتحر بعد قتل مئات الأعداء. ولا نعرف ماذا كان يفكر في ذهنه في اللحظة الأخيرة لحياته؟ وهل خطر في باله خصامه ليوبانغ الذي فشل في الوفاء بالوعود؟

على كل الأحوال فشل شيانغيو وانتصر ليوبانغ في النهاية. دعونا نعُد إلى لحظة اتفاق الرجلين عند نهر قوانغوو، قرر شيانغيو الانتحاب بعد ذلك، غير أن ليوبانغ لم يلتزم بوعده، حيث أمر الجنرال العام هانشين بشن الهجوم ضد شيانغيو في عام 202 قبل الميلاد، وهزم شيانغيو مرة تلو الأخرى، ولم يكن لديه مجد الماضي، وسرعان ما انتفدت إمداداته.

وأمر هانشين جميع القوات بشن الهجوم من كافة الاتجاهات لمحاصرة شيانغيو في منطقة قايشيا.

حاول شيانغيو كسر واختراق المحاصرة على رأس عدد من الجنود والخيول، ولكن تراجعت ثقته أمام العدد اللانهائي من الجنود لجيش هان. وبعد فشل الاختراق مرارا وتكرارا، رجع شيانغيو إلى المعسكر في منطقة قايشيا، وأمر الجيش بتبني الحذر واليقظة لمنع الهجوم المفاجئ لجيش هان. ولاحظت المحظية المدللة لشيانغيو يوجي هواجسه، فرافقته لشرب الخمر لتخفيف الملل وقالت له، إن كل الأمور سوف تتحسن، وسأبقى دائما معك مهما كان الوضع.

استيقظ شيانغيو من الخمر في أعماق الليل، وأتت الرياح له بالأغاني الباردة من دويلة تشو.

كان شيانغيو مكتئباً وقال ليوجي، هل جيش هان قد هزمنا؟ ولماذا يوجد الكثير من الناس في الخارج يغنون أغاني تشو؟ ولم يكن في حسباني أنني سوف أقع في مثل هذه الحالة. ثم نظر إلى يوجي وغنى أغنية حزينة بصوت عال، أنا قادر على رفع الجبل الكبير بقوتي، وأتغلب على جميع الأبطال في العالم، غير أن الزمان والحظ لا يحبانني وحتى الخيل الجواد الأسود لم يرغب في التقدم إلى الأمام، فما العمل؟ يا يوجي يا يوجي، فماذا عليّ أن أفعل؟

تساقطت دموع شيانغيو بعد الأغنية، كما بكت يوجي في يأس وحزن. فهل البطل وصل إلى نهاية الطريق؟ سلمت يوجي على شيانغيو، ثم أخرجت سيفه وقتل نفسها، حيث أرادت الوفاء بوعدها المتمثل في عدم الفصل معه بهذا الموت البسيط.

دفن شيانغيو جثة يوجي، وقاد 800 جندي واخترق الحصار في ضوء قمر الليل.

وجد هانشين في الفجر أن شيانغيو قد فر بالفعل فأرسل 5000 جندي لملاحقته على الفور، ولم يبق مع شيانغيو سوى مائة جندي بعد عبور نهر هوايخه، واتبعه جيش هان عن كثب وراءه. ثم جاء شيانغيو إلى تقاطع الطريق، ورأى مزارعا فتقدم إلى الأمام وسأله، ما هو الطريق المؤدي إلى مدينة بينغتشنغ؟

اعترف المزارع بشيانغيو وكذب عليه وقال، إلى اليسار وامش على طول الطريق، وثق شيانغيو به وهرع إلى اليسار بسرعة، ولكن لم يكن هناك مدينة بينغتشنغ سوى بعض المستنقعات في الطريق، فرجع في يأس وصادق وصول جيش هانشين، واضطر شيانغيو إلى القتال معه.

شهد جيش شيانغيو قتلى وجرحى في الطريق، حيث لم يبق سوى 28 جندياً فقط في النهاية.

نظر شيانغيو إليهم وقال، إنني قد قاتلت لمدة ثماني سنوات وحقق انتصارات متواصلة في أكثر من 70 معركة. وهل ما زلتم تتذكرون كيف أصبحتُ مشهوراً عندما هزمتُ جيش تشين القوي في منطقة جولو؟ غير أنني اليوم محاط بجيش هان وتضللت في الطريق، ويبدو أن السماء تحب أن ترى وفاتي.

قام شيانغيو بتقسيم الجنود المتبقين إلى أربعة فرق، وقال لهم، دعوني أولا أقتل أحد جنرالاتهم، ثم تنتهزون الفرصة للاختراق. بعد ذلك هرع شيانغيو على الفور إلى جيش هان وقتل أحد جنرالاتهم، وكان جيش هان خائفا من أسلوبه المهيب، ونجح شيانغيو وجنوده في الفرار إلى الجبل الشرقي، حيث قسّم شيانغيو الأكثر من عشرين جندياً باق إلى ثلاثة فرق للدفاع عن معسكرهم.

وشن جيش هان هجومات عنيفة ضدهم.

كان شيانغيو شجاعا وقوياً للغاية في المعركة، حيث قتل جنرالا ومئات الجنود في جيش هان، كما دمّر درع جسده في نفس الوقت. وبعد القتال العنيف في المعركة الشرسة، لم يُقتل إلاّ جنديين لشيانغيو، حتى أصبح جيش هان معجباً بشجاعة وقدرة شيانغيو.

قاد شيانغيو الجنود الستة والعشرين المتبقين للوصول إلى ضفة نهر ووجيانغ، حيث رأى المسؤول المشرف لشؤون النهر الذي أحضر له قارباً صغيرا ودعاه إلى عبور النهر.

هل عبر شيانغيو النهر أم لا؟ أخيرا اختار المهيمن شيتشو (بمعنى زعيم دويلة تشو الغربية) عدم العبور وقتل نفسه في الرياح القاسية بجانب نهر ووجيانغ، وكانت الرياح تبكي ومياه النهر تتدفق كالعادة، وإن صراخ الخيول ودعوة المسؤول شكلت مقوماً من مقومات تنهد شيانغيو.

وقد شكل مشهد انتحار شيانغيو مضغه الأفواه من كل الأجيال المتعاقبة.

حيث قالت الشاعرة المشهورة في أسرة سونغ لي تشينجاو في قصيدتها، يجب أن يكون الرجل بطلا للناس عندما كان في قيد الحياة، ويجب عليه أن يكون بطلا للأشباح حتى ولو توفي، وما زال الناس يشتاقون لشيانغيو، فما سبب ذلك؟ لأنه رفض عبور النهر. وفي الواقع، تكمن مأساة شيانغيو في قبوله للواقع ونقضه القاطع للواقع، حيث كان يمكنه عبور النهر أصلاً، لكنه لم يكلف نفسه عناء القيام بذلك. وكان قلبه نبيلاً وحتى متعجرفاً، وهو أدرك أنه ليس سوى شخصية عادية لو عبر النهر، ولكن إذا لم يعبره، فسيظهر في العالم بطل كبير واقف بين السماء والأرض.

لذلك، ساهم الخيار الصعب لشيانغيو في الخروج بالمشهد المأساوي في النهاية، وهو قد حوّل حزنه ومأساته إلى مياه نهر ووجيانغ التي تدفقت عبر آلاف السنين، وأصبحت وفاته زاوية هامة في السجلات التاريخية، حينما أن هناك عدد لا يحصى من القصص قد اختفى في التاريخ مثل الأوراق المتساقطة.

في أي حال، قد توفي شيانغيو، مما أعلن انتهاء النزاع بين تشو وهان للهيمنة.

52

قضاء ليوبانغ ليوبانغ على المسؤولين الثلاثة

ترمز وفاة شيانغيو إلى انتهاء النزاع بين تشو وهان.

حقق ليوبانغ النصر، كما حقق طموحه لتوحيد البلاد، وبالطلب الجماعي من جميع الأمراء والوزراء، صعد ليوبانغ إلى عرش الإمبراطور رسمياً في عام 202 قبل الميلاد، وأسس أسرة هان وهي الأسرة الأولى بعد أسرة تشين، وأصبح ليوبانغ أول إمبراطور لأسرة هان يعرف باسم الإمبراطور قاوزو، كما تسمى أسرة هان التي أسسها ليوبانغ أسرة هان الغربية، للفصل مع أسرة هان الشرقية التي أسسها ليوشيو، حيث سنتطرق إلى قصته لاحقاً.

في البداية، اختار ليوبانغ مدينة لويانغ كعاصمة لأسرته، ثم قرر نقل العاصمة إلى مدينة تشانغآن.

كان ليوبانغ الذي وصل إلى سدة الحكم طموحا، حيث استضاف مأدبة في قصر العاصمة ذات يوم على شرف جميع المسؤولين، وعندما أصبح الجميع سكرانا، سأل لويانغ فجأة، يا الأمراء والجنرالات والوزراء، قولوا لي الحقيقة، وفي رأيكم كيف نجحت في تحقيق الهيمنة على البلاد، ولماذا فشل شيانغيو؟

قال الوزير وانغلينغ، على الرغم من أن جلالتكم رجل متعجرف ويحب إهانة الآخرين، لكنك تكافئ الآخرين وتشارك في السراء والضراء معهم بعد تحقيق النجاح في المعارك أو الاستيلاء على الأراضي، أما شيانغيو فهو يحسد الأكفاء، ولم يكافئهم حتى ولو حققوا النجاح لو استولوا على الأراضي، لذلك فشل في النهاية.

ابتسم ليوبانغ قليلاً وقال، تعرفون جانباً للأمر ولا تعرفون الجانب الآخر، وإن سبب نجاحي هو حسن توظيف واستعمال أصحاب الكفاءة، وعند الحديث عن التخطيط فإن تشانغليانغ أفضل مني، وعند الحديث عن الحكم وإسعاد الشعب وجمع الإمدادات فإن شياوخه أفضل مني، وعند الحديث عن فن الحرب والقتال، فإن هانشين أفضل مني، وهم أبطال وأهم أسباب نجاحي، أما بالنسبة لشيانغيو، فكان لديه مستشار واحد فقط وهو فانتسن الذي لم يتم تفعيل موهبته وقدرته بشكل كاف، مما أدى إلى فقدان شيانغيو للسلطة.

كما قال ليوبانغ، إن حسن توظيف واستعمال الناس هو سبب نجاحه، ولكن كيف أصبح مصير هؤلاء الأبطال بعد نجاحه؟

هل تتذكرون المستشار فانلي في فترة النزاع بين دويلتي وو ويو من أجل الهيمنة؟

كان لدى فانلي في خطابه إلى زميله وينجونغ تحليل دقيق للغاية حول الحكم والسلطة، حيث قال إن القوس الجيد سوف تختفي بعد قتل جميع الطيور، والكلاب سوف تقتل بعد القبض على جميع الأرانب، ورغم جدوى القوس الجيد والكلاب الماهرة، لن ينسى الإمبراطور تهديداتها. نعم، كان ليوبانغ لم ينس خطر القوس الجيد والكلب الجيد، ونصب أنظاره إلى القوس الجيد والكلب الجيد بعد وصوله إلى سدة الحكم، وكان هاشين هو أكبر مصدر لقلقه.

سبق لليوبانغ تعيين سبعة أمراء من غير عائلته في فترة النزاع بين تشو وهان، وكان أكثرهم شهرة هانشين أمير تشو وبينغيو أمير ليانغ وتشنغبو أمير هواينان، وحقق هؤلاء إنجازات عسكرية عظيمة لليوبانغ، غير أن الأخير ظل حذرا من كفاءتهم وقدرتهم.

بعد ذلك بوقت قصير، كشف ليوبانغ عن عيوب هانشين، ووجد أنه وفر المأوى لجونغ ليميهان الجنرال الهارب لشيانغيو، حيث قال البعض إن هانشين يريد التمرد، ثم سأل ليوبانغ وزراءه، يحاول هانشين التمرد الآن، فما العمل في رأيكم؟

طرح وزير ما بوحشية ضرورة القضاء على هانشين، غير أن الوزير تشنبينغ قال، إن هانشين جيد في ممارسة فن الحرب، فمن الخطير للغاية مواجهته في المعركة وجها لوجه، ومن الأفضل التعامل معه بالتكتيك.

استخدم الإمبراطور قاوزو تكتيك تشنبينغ وأجرى جولات تفقدية في البلاد ومر بولاية تشو، حيث اضطر هانشين إلى مقابلة الإمبراطور، وتم القبض عليه في كمين. ولم يفرض ليوبانغ عقوبات شديدة على هانشين بسبب مساهمته لأسرة هان، بل أمر برفع منصبه ولقبه كأمير لولاية تشو، وعيّنه وزيرا، مما رفع التهديد من هانشين.

ثم عاد هانشين إلى العاصمة مع ليوبانغ وتم وضعه تحت الإقامة الجبرية.

ذات مرة دردش الإمبراطور قاوزو مع هانشين وسأله، ما هو أقصى عدد الجنود الذي أتمكن من قيادته. قال هانشين، على الأكثر 100 ألف جندي. ثم سأل ليوبانغ، وأنت؟ أجاب هانشين بكل ثقة وفخر، العدد لا يحصى، وإن الأكثر الأفضل.

استمر الإمبراطور قاوزو في القول، الأكثر الأفضل، إذن لماذا نجحتُ في القبض عليك؟

كيف كانت إجابة هانشين؟ هل يمكنه أن يقول إن السبب هو وقح وغدر ليوبانغ؟ لم يقل ذلك بل قال بخفة، على الرغم من أن جلالتكم لم يكن رائعا في قيادة عدد كبير من الجنود للقتال، لكنك رائع في توظيف واستعمال أصحاب الكفاءة، وهذا سبب القبض عليّ، وإن السماء هي التي تقرر مصيري، بدلاً من الإرادة البشرية.

بدا أن هانشين قد خضع أمام المصير، لكنه حاول كسر القيود التي فرضها الإمبراطور قاوزو عليه بعد ذلك.

وماذا فعل هانشين؟

في ذلك الوقت، اعتذر هانشين عن حضور الاجتماعات اليومية في القصر الملكي بين حين وآخر بحجة المرض لتجنب رؤية الإمبراطور قاوزو، وذات يوم زاره الوزير تشنشي، وتجول هانشين معه في الفناء بوحدهما، وتنهد وسأل تشنشي، هل يمكنني أن أقول لك الكلام من صميم قلبي؟ وقال تشنشي، أنا على أتم استعداد للاستماع إليكم.

قال هانشين، قد كافأك الإمبراطور بولاية وعينك أميرا لها، وإن الجنود هناك هم الأقوى في البلاد، وإنك مسؤول موثوق به لدى الإمبراطور. وإذا قال أحد للإمبراطور إنك تريد التمرد للمرة الأولى، فإن الإمبراطور لن يصدق ذلك بالتأكيد. وإذا قال إنك تريد التمرد للمرة الثانية، فإن

الإمبراطور سوف يشك فيك، وإذا قال إنك تريد التمرد للمرة الثالثة، فإن الإمبراطور سيكون غاضباً جداً، وهو سوف يقاتلك نفسه، وفي ذلك الوقت سوف أنتهز فرصة الفراغ في العاصمة لمساعدتك، فما رأيك؟

لم يقل تشنشي شيئاً للحظة، ثم قال ببطء، أنا تحت أمركم.

تمرد تشنشي بعد سنوات قليلة حقاً، وأمر الإمبراطور قاوزو هانشين وبينغيو لمهاجمة تشنشي، غير أن الرجلين رفضا المرسوم بحجة المرض، واضطر الإمبراطور إلى قيادة الجيش نفسه لقمع التمرد. وبعد مغادرة الإمبراطور العاصمة، حاول هانشين التمرد ليتطابق مع تشنشي، لكن شياوخه لاحظ محاولة هانشين وخدعه للوصول إلى القصر وقتله.

كان السبب وراء صعود هانشين إلى منصب الجنرال العام وخدمة الإمبراطور قاوزو هو ترشح شياوخه، أما سبب وفاته فهو وقوعه في الفخ الذي حفره شياوخه، كما يقول المثل الصيني القديم، «النجاح بسبب شياوخه والفشل بسبب شياوخه أيضاً».

بعد فترة ليست طويلة من وفاة هانشين، تم القضاء على تشنشي من قبل الإمبراطور قاوزو نفسه.

سرعان ما أفيد الإمبراطور بأن أمير ليانغ بينغيو قد تمرد، وبحكم أنه لم يكن هناك أي دليل حقيقي فطرده الإمبراطور في المنفى في منطقة شو. وفي طريقه التقى بينغيو بالإمبراطورة لوهو، وهو بكى في يأس وحزن أمامها لطلب العفو، ووعدت الإمبراطورة بمساعدته، ولكن بعد رجوعها إلى العاصمة قالت للإمبراطور، لا يمكن إطلاق سراح النمر في الجبل، ويجب القضاء على بينغيو

لذا قتل الإمبراطور بينغيو.

بعد معرفة خبر وفاة هانشين وبينغيو، كان الأمير هواينان تشينغبو مندهشا وخائفا، وقرر التمرد حيث رأى أن مبادرته في التمرد أفضل من إمكانية القبض عليه من قبل الإمبراطور، وظن أنه نفسه قد يكون الإمبراطور بعد التمرد. ونجح تشينغبو في بعض المعارك واحتل مناطق جينغ وتشو، غير أن جيش الإمبراطور أقوى من جيشه بكثير، فهرب تشينغبو في ذعر بعد هزيمته وقُتل في طريقه.

بعد قمع وقتل المسؤولين الثلاثة الأقوياء، كان ليوبانغ سعيداً جداً، حيث استضاف مأدبة على شرف أهالي مسقط رأسه في محافظة بي، وعندما حان وقت الخمر، تذكر ليوبانغ واستعرض حياته على ظهور الخيول، فغنى أغنية مشهورة بعنوان «أغنية الرياح الشديدة»: تهب الرياح وتطير السحب، وكنت قد سيطرتُ على البلاد بقوتي ورجعت إلى بلدتي بمجدي. وبعد ذلك أصبح قلقا من جديد وهو كيفية الحصول على المحاربين الأقوياء للدفاع عن أراضي البلاد؟

53
الإمبراطورة لوهو القاسية

أصيب الإمبراطور قاوزو بسهام عندما كان يقمع المتمرد تشينغبو.

وفي وقت لاحق ازداد مرضه خطرا، وذات يوم استدعى الإمبراطور جميع المسؤولين المدنيين والعسكريين إلى المعبد الملكي، وأمر بقتل خيل أبيض، ثم رفع كأسه المليء بدم الخيل، وقال للجميع، من اليوم فصاعدا، لن يسمح لأحد بتولي منصب الأمير والوالي لو كان من غير عائلة ليو، ولن يسمح لأحد بتولي منصب المحافظ ما لم يكن له أي إنجاز، وسوف يتم ملاحقة المخالفين لهذا الاتفاق. ثم شرب نصف الدم ورش النصف الآخر على الأرض، وشرب جميع المسؤولين مثله لإظهار احترامهم وتقيدهم بالاتفاق.

تفاقمت الحالة الصحية للإمبراطور قاوزو بعد اتفاق الخيل الأبيض.

استدعت الإمبراطورة لوهو طبيباً رائعا لعلاج ليوبانغ، غير الأخير طرد الطبيب وقال، إنني كنت رجلا عادياً وفقيرا ونجحت في السيطرة على البلاد بسيفي البالغ طوله مترا، أليس هذا هو مصيري؟ وقد قررت السماء مصيري، فما يمكن أن يفعل الطبيب الرائع حتى ولو جاءني طبيب بيانتشو (أشهر طبيب في تاريخ الصين)؟

كانت الإمبراطورة لوهو امرأة طموحة أصلاً، ورأت أن ليوبانغ يشرف على الموت بسبب المرض الخطير، فبكت أمامه وسألته عن كيفية ترتيب الأمور بعد وفاته وقالت، بعد مفارقة جلالتكم عن الحياة، وفي حال وفاة رئيس الوزراء شياوخه، فمن يستطيع أن يحل محله؟

قال الإمبراطور قاوزو، الوزير تساوشن.

واصلت الإمبراطورة لوهو قولها، من يستطيع أن يحل محل تساوشن؟ فكّر الإمبراطور وقال، وانغلينغ، لكنه صادق مفرط في بعض الأحيان وهو بحاجة إلى المساعدة من تشنبينغ. وعلى الرغم من أن تشنبينغ ذكي وحكيم، من الصعب عليه قيادة الآخرين. وتوقف الإمبراطور للحظة وواصل القول، إن الوزير تشوبو رغم أنه ليس مثقفا، هو رجل محترم وحذر وهو أفضل مرشح للدفاع عن حكم الأسرة، فيمكن تعيينه جنرالا عاما للجيش في المستقبل. وحاولت الإمبراطورة لوهو مواصلة السؤال، لكن الإمبراطور رفض ذلك وقال، أما الترتيب بعد ذلك فلا داعي لك معرفته لأنك ستكونين قد توفيت بحلول ذلك الحين.

بعد ذلك بزمن غير طويل، توفي الإمبراطور قاوزو في قصر تشانغله (قصر السعادة الدائمة) في يوم من الأيام الصيفية الحارة.

توفي الإمبراطور في عام 195 قبل الميلاد، لكن الإمبراطورة لوهو لم تعلن خبر وفاته، بل استدعت سرا شن شيتشي الوزير الأكثر ثقة لها وقالت له، إن جميع الجنرالات والوزراء على غرار الإمبراطور الراحل كانوا حرافيش من الطبقة المتدنّية أصلاً، ولكن أصبح الإمبراطور مهيمن البلاد، والأخرين أصبحوا الوزراء تحته، وهم في الحقيقة مستاؤون، ولم يكن بإمكانهم مساعدة الإمبراطور الشاب عن طيب خاطر، وأود أن أغتنم الفرصة لقتلهم جميعا.

اتفق شن شيتشي على الإمبراطورة، ثم استنجد بشقيقها لقتل الوزراء.

ومع ذلك لم يكن هناك جدار في العالم يمكن وقف الرياح، حيث انتشرت مؤامرة الإمبراطورة لوهو تدريجياً، وسرعان ما تم إفشاء الخبر إلى الجنرال ليشانغ، ثم زار الأخير الوزير شن شيتشي قائلاً، قد سمعتُ أنه قد مضت أربعة أيام على وفاة الإمبراطور، وبدلا من إعلان خبر وفاته، تآمرت الإمبراطورة لوهو لقتل الوزراء الفاضلين، وإذا سمعوا عن هذه المؤامرة، فمن المؤكد أنهم سوف يجرؤون على الانتقلاب، حيث ستقع البلاد في فوضى كبيرة، ولن تتمكن من التخلص من العقوبات.

أصيب شن شيتشي بالذعر ثم هرع إلى القصر الملكي لزيارة الإمبراطورة لوهو وأخبرها بكلام الجنرال ليشانغ كله.

اضطرت الإمبراطورة لوهو إلى تغيير خطتها الأصلية في يأس وأصدر نعياً للجمهور، ثم ساعدت ابنها ليويينغ على تسلم العرش ليكون الإمبراطور هوي، وهي أصبحت إمبراطورة أرملة، وكان ابنها في السابعة عشر من العمر عند وصول سدة الحكم وهو ضعيف في طبيعته، حيث سقطت كل السلطة في البلاط الإمبراطوري في يد الإمبراطورة الأرملة لوهو.

وكان أكثر من أرادت الإمبراطورة الأرملة قتله هي السيدة تشي والأمير رويي.

في سنواته الأخيرة، كان الإمبراطور الراحل قاوزو يحب محظيته السيدة تشي كثيراً، ويحب ابنهما الأمير رويي على وجه الخصوص، واعتقد أنه كان يشبه نفسه إلى حد كبير، حتى أراد إلغاء الأمير ليويينغ وتعيين رويي أميرا لتسلم العرش بعد وفاته، ولكن قد عارضه جميع الوزراء بشدة، واضطر إلى التخلي عن هذه الفكرة.

ظلت الإمبراطورة الأرملة لوهو مستاءة من هذا الأمر، فأمرت بالقبض على السيدة تشي وعاقبت نفسها كعبد، وأمرتها بالقيام بالعمل الشاق ليلاً ونهاراً في زي السجن، ثم استدعت ابنها رويي إلى العاصمة من أجل القضاء عليه. وكان الإمبراطور هوي رحيما وأدرك أن والدته على استعداد لقتل شقيقه، فذهب نفسه لمقابلة رويي في منطقة باشيانغ ودعاه إلى الإقامة والأكل في القصر الملكي مع نفسه، وذلك من أجل حمايته.

وكانت هذه الطريقة فعالة حقاً، حيث لم تتمكن الإمبراطورة الأرملة من العثور على فرصة لقتل رويي. ولكن ذات يوم، ذهب الإمبراطور هوي للصيد في الصباح الباكر، وكان رويي الصغير السن لم يحب الاستيقاظ من النوم فاعتذر عن مرافقة الإمبراطور، وأخذت الإمبراطورة الأرملة لوهو الفرصة وقتلته بكأس من النبيذ السام. وبعد عودة الإمبراطور هوي إلى القصر، وجد أن رويي قد مات وانفجر بالبكاء في حزن.

بعد موت رويي، تعاملت الإمبراطورة الأرملة مع السيدة تشي بطريقة أكثر وحشية، حيث أمرت بقطع يديها وقدميها وإغلاقها في مكان قذر. وذات مرة رأى الإمبراطور هوي امرأة قبيحة ومروعة، وسأل المرافقين عن هويتها ووجد أنها السيدة تشي بدهشة، وهو بكى في خوف شديد ومرض بعد ذلك لفترة طويلة.

أرسل الإمبراطور هوي عندما كان مريضا رسالة إلى والدته وقال فيها، إن تصرفاتك غير إنسانية حيث وضعتِ السيدة تشي في حالة مأسوية ومسكينة للغاية، وأنا بصفتي ابنك لم يعد لديّ أي سبب لمواصلة حكم البلاد.

بعد شفاء الإمبراطور هوي، لم يعد مهتما بشؤون الدولة حقاً، بل انغمس في المتعة والشرب طوال الوقت.

54
دفاع تشوبو عن حكم أسرة هان

كان الإمبراطور هوي منغمساً في الخمر كل يوم وتوفي بسبب الاكتئاب في السنة السابعة منذ توليه العرش.

بعد وفاة الإمبراطور هوي، استمرت الإمبراطورة الأرملة لوهو في السيطرة على الحكم والسلطة، وأحضرت رضيعا وقتلت والدته، وادّعت أن الرضيع ابن الإمبراطور هوي والإمبراطورة تشانغ، ثم اعتمدت الرضيع إمبراطوراً جديداً عرف بالإمبراطور شاو. وبعد ذلك أرادت الإمبراطورة الأرملة تعيين أبناء عائلتها ولاة من أجل ترسيخ مكانتها.

لذا استدعت جميع الوزراء لمناقشة الأمر، وسألت رئيس الوزراء اليساري وانغلينغ أولا، أريد تعيين أبناء عائلة لو ولاة، وما رأيك في ذلك؟ عارضها وانغلينغ العادل والمستقيم على الفور وقال، لا يمكن، توصل الإمبراطور الراحل قاوزو معنا إلى اتفاق الخيل الأبيض، على أنه لا يمكن تولي منصب الولاة إلاّ من قبل أبناء عائلة ليو، ويجب ملاحقة جميع المخالفين، والآن تريدين مخالفة الاتفاق، وأرفض فكرتك رفضا قاطعا.

لم تكن الإمبراطورة الأرملة محبطة، فسألت رئيس الوزراء اليميني تشنبينغ والجنرال تشوبو، وهما كانا يعرفان التقدم والتراجع وضرورة تجنب المواجهة المباشرة مع الإمبراطورة الأرملة، فقالا، إننا لم نر أي مانع في تعيين أبناء عائلة لو ولاة.

كانت الإمبراطورة الأرملة سعيدة جداً بكلامهما.

بعد انتهاء الاجتماع، اتهم وانغلينغ كلا من تشنبينغ وتشوبو قائلاً، فهل لم تكونا موجودين عند اتفاق الخيل الأبيض قبل سنين؟ ولماذا يخالفان الاتفاق؟

أجاب الرجلان، إنك أفضل منا في المقاومة في القصر الملكي، وأننا أفضل منك في المقاومة في المستقبل.

لم يقل وانغلينغ شيئاً.

وهل نجح تشنبينغ وتشوبو في المقاومة بعد ذلك؟ دعونا نواصل القصة.

في غضون أيام قليلة، قامت الإمبراطورة الأرملة بإبعاد وانغلينغ من منصب رئيس الوزراء اليساري وتعيينه أستاذا للإمبراطور شاو الصغير، ورفض وانغلينغ ذلك بحجة المرض، وطلب التقاعد والرجوع إلى مسقط رأسه. واتفقت الإمبراطورة الأرملة على ذلك، ثم عيّنت تشنبينغ رئيساً يمينياً للوزراء، وعينت الوزير المفضل لها شي تشيشانغ رئيساً يسارياً للوزراء، ثم عيّنت أبناء عائلتها ولاة في مناطق لو وليانغ وجاو ويان. وبعد ذلك ومن أجل تجنب المخاطر، سلّمت السلطة العسكرية إلى أبناء عائلتها أيضاً.

نشأ الإمبراطور شاو تدريجياً وعرف أن الإمبراطورة الأرملة هي التي قتلت والدته، فتساءل بغضب أمامها، لماذا قتلتِ والدتي؟ سوف أنتقم لها عندما أكبر.

من أجل القضاء على المخاطر، قتلت الإمبراطورة الأرملة الإمبراطور شاو، وعنيت ولدا صغيرا اسمه ليوهونغ إمبراطوراً، وهي واصلت ممارسة الحكم على قمة السلطة، غير أنها ليست مطمئنة إلى حد ما، وازداد عدم الائتمان في قلبها بسبب أمرين بعد ذلك.

ذات يوم، نظر كل الناس في عاصمة تشانغآن إلى السماء، حيث توقف المشاة على الشوارع والزبائن في دكاكين الخمر، وكانت الشمس المشرقة اختفت تدريجياً في الظلال الداكنة، وأصبح النهار داكنا ببطء.

بعد لحظات قليلة، ظهرت الشمس من جديد كأنه لا شيء قد حدث.

نعلم أن هذه الظاهرة كانت كسوف الشمس، ولكن في الأزمنة القديمة، كانت هي عبارة عن الفأل الشرير الذي يهدد السلطة الإمبراطورية، وفي ذلك الوقت، كان هناك العديد من المناقشات في مدينة تشانغآن، وأصبحت الإمبراطورة الأرملة لوهو عاجزة أمام تلك المناقشات، وحتى ظهر بعض الذعر في قلبها، وهي قالت لخادماتها، ربما إنني سبب تلك الظاهرة المروعة.

وفي مناسبة أخرى، خرجت الإمبراطورة الأرملة للعبادة. وفي طريق رجوعها رأت شيئاً بعيداً مثل كلب أسود هرع فجأة نحوها، ثم شعرت بألم طفيف قبل اختفاء الكلب، وما كان هذا الشيء بالضبط؟

استدعت الإمبراطورة الأرملة العرافة، وقال الأخير إن ذلك الشيء هو شبح الأمير رويي.

أصيبت الإمبراطورة الأرملة لوهو بالمرض منذ ذلك الحين، وتفاقمت حالتها الصحية بعد ذلك باستمرار، وتوفيت في السنة الثامنة منذ توليها الحكم، وقبل وفاتها، عينت أبناء عائلتها قادة للقوات الشمالية والجنوبية وقالت لهم، قد أثار تعيينكم استياء الوزراء الآخرين، وهم قد يتمردون بعد وفاتي، فآمركم بالدفاع عن القصر الملكي بالقوة ولا تقوموا بالحداد لي.

كرّست الإمبراطورة الأرملة لوهو نفسها في حماية حكم عائلتها، غير أن تطور الوضع انحرف عن تصورها، حيث قام ليوجانغ حفيد الإمبراطور الراحل قاوزو بإيفاد شقيقه ليوشيانغ أمير منطقة تشي بعد وفاة لوهو، وطلب منه مهاجمة مدينة تشانغآن والقضاء على أبناء عائلة لو، ثم تقدم الأمير ليوشيانغ نحو المدينة على رأس جنوده.

بعثت عائلة لو الجنرال قوانغيينغ لمهاجمة ليوشيانغ.

وقاد الجنرال قوانغيينغ جيشه للوصول إلى منطقة يينغيانغ، حيث فكّر، إذا حاربتُ ليوشيانغ، فألستُ متواطئا لعائلة لو؟ فقرر التعاون مع ليوشيانغ لمواجهة عائلة لو، ثم أرسل مبعوثه للاتصال بليوشيانغ سريا للانتظار للفرصة السانحة لمهاجمة أبناء عائلة لو معا.

في هذا الوقت، كان تشوبو بصفته جنرالا للجيش لم يستطع السيطرة على الجيش، وحتى لم يتمكن من دخول بوابة الثكنات، ثم توصل مع تشنبينغ إلى طريقة للتعامل مع أبناء عائلة لو، وهو سمع أن ليجي ابن الوزير ليشانغ صديق عزيز للولو أحد أبناء عائلة لو، فأمر بخطف ليشانغ، وطلب من ليجي إقناع لولو على تسليم ختم الجنرال العام.

كان ليجي ابنا بارا فاضطر إلى زيارة لولو في يأس وقال له، إنك بصفتك أميرا لمنطقة جاو، ولكن ما زلت تبقى في مدينة تشانغآن، مما أثار استياء الوزراء، فمن الأفضل أن تعود إلى منطقة جاو، حيث سينسحب أمير منطقة تشي ليوشيانغ.

اتفق لولو مع ليجي وسلّم السلطة العسكرية إلى تشوبو، غير أن شقيقه لوتشان من عائلة لو كان قد خطط للتمرد مع مواليه جياشو، وبعد ذلك سمع تشوبو عن هذا الخبر.

بعد أن حصل تشوبو على ختم الجنرال العام، استعجل في الفرار إلى معسكر الجيش في الشمال، وصاح من على المنصة العالية، يا جماهير، وإذا كنت على استعداد للخضوع أمام أوامرها فأظهر ذراعه اليمنى، وإذا أردت الدفاع عن حكم أسرة ليو، فأظهر ذراعك اليسرى.

أظهر جميع الجنرالات والجنود في المعسكر ذرعانهم اليسرى للدفاع عن حكم عائلة ليو.

فرض تشوبو سيطرته على الجيش الشمالي بهذه الطريقة، غير أن الجيش الجنوبي ما زال بين يدي لوتشان، الذي لم يعلم أن تشوبو قد سيطر على الجيش الشمالي بعد في ذلك الوقت، وهو هرع بتهور إلى القصر الملكي لاختطاف الإمبراطور، حيث شن تشوبو وليوجانغ هجومات عليه، وهو قُتل في المعركة العنيفة.

واصل تشوبو في مطاردة فلول جيش عائلة لو ونجح في القضاء عليهم جميعا.

لم يخيب تشنبينغ وتشوبو أمل الإمبراطور الراحل قاوزو، والتزما بوعودهما أمام وانغلينغ، وحققا إنجازات عظيمة في الدفاع عن حكم عائلة ليو، وقام الوزراء بالقضاء على قوى عائلة لو، والإطاحة بالإمبراطور ليوهونغ بتعيين الإمبراطورة الأرملة لوهو، ودعوة ابن الإمبراطور الراحل قاوزو الأمير ليوهنغ إلى تسلم العرش.

في عام 179 قبل الميلاد، وصل ليوهنغ إلى سدة الحكم وأصبح الإمبراطور وين.

يقال إن اليوم الذي نجح تشوبو في قمع المتمردين والدفاع عن حكم أسرة ليو صادف منتصف الشهر الأول حسب التقويم القمري الصيني التقليدي. ومن أجل الاحتفال بهذا اليوم، أصدر الإمبراطور وين مرسوماً يقضي بأن يكون يوم منتصف الشهر الأول عيد الفانوس وأن يخرج الإمبراطور من القصر في ليل هذا اليوم لمشاركة الشعب في السراء والسعادة. وبطبيعة الحال قد تغيرت عادات هذا العيد مع مرور الوقت وتناوب السلطة، حتى قد نسي العديد من الناس القصد الأصلي له، لكن السعادة قد تناقلت حتى الآن، وتقوم كل العائلات بإضاءة الفوانيس وممارسة رقص التنين والأسد بمناسبة هذا العيد، وهو الآن ما زال عيداً تقليديا مهما في الصين.

55

الجيشتحت راية تشو يافو

هل ما زلت تتذكر سور صين العظيم الذي بناه الإمبراطور الفاتح لأسرة تشين على حساب الموارد البشرية اللانهائية؟ وكان هدف بنائه هو مقاومة قبائل الهون، فهل نجح السور الذي امتد من منطقة لياودونغ شرقا إلى منطقة لينتاو غرباً في مقاومتها؟

هذا هو سؤال مثير للجدل، ولنعلقه في الوقت الحالي.

ما نعرفه هو أنه في بداية عهد أسرة هان الغربية، أصبحت قبائل الهون أقوى فأقوى تحت قيادة زعيمها مودو، الذي قادها لهزم قبيلة دونغهو شرقا وقبيلة دينغلينغ شمالا وقبيلة دارودي غربا، وأصبحت منطقة النفوذ لقبائل الهون البدوية كبيرة للغاية، والتي كانت تتاخم شبه الجزيرة الكورية شرقا، وتغطي الهضبة المنغولية وتتاخم منطقة قبيلة ديتشيانغ غرباً ومنطقة هوتاو جبونا حتى شمال مناطق شانشي وشنشي.

وكيف يمكن لقبائل الهون القوية التمركز بهدوء في الزاوية الشمالية الغربية من أسرة هان؟

وكان لا مفر من الاحتكاك والمواجهة بين الجانبية القويين، ويمكن القول إن الموضوع الرئيسي المستمر في خلال حكم أسرة هان الغربية هو التكامل والمواجهة بين أسرة هان وقبائل الهون، حيث حدث العديد من القصص الرائعة التي سيتم التطرق إليها في الفصول التالية.

في البداية، كانت أسرة هان في وضع غير مؤات في مواجهة قبائل الهون، وإن أخطر وضع كان ربما «محاصرة بايندنغ». وفي عام 200 قبل الميلاد، قاد الإمبراطور قاوزو جيشه لمهاجمة هان

وانغشين قد استسلم لقبائل الهون، لكنه وقع في محاصرة الأعداء في جبل بايندنغ لسبعة أيام، وتخلص من المحاصرة في النهاية بفضل التكتيك البارع لوزير هتشنبينغ.

كان من الصعب لأسرة هان هزم قبائلالهون، فكيف التصدي لغزوها؟

من أجل أخذ الراحة وتوفير القوة، تبنى الإمبراطور قاوزو اقتراح المستشار روانجينغ المتمثل في الزواج مقابل السلام، حيث زوّج الإمبراطور قاوزو ابنته مع زعيم قبائل الهون مودو، وقدمت أسرة هان لقبائل الهون عددا كبيرا من القطن والحرير والحبوب والنبيذ الجيد كل عام. ومنذ ذلك الحين، اتفقت أسرة هان وقبائل الهون على أن تصبحا أخوين والحدود بينهما هي سور الصين العظيم، وتراجعت حدة التوتر بين الجانبين بشكل مؤقت.

سياسة الزواج مقابل السلام منعت وقوع الاحتكاك والحرب الواسعة النطاق بين أسرة هان وقبائل الهون، واستمرت هذه السياسة حتى عهد الإمبراطور وين، ولكن من المثير للقلق أن قبائل الهون كثيراً ما انتهكت الاتفاق وغزت الحدود لأسرة هان وضايقت الناس والمواشي ودمرت المحاصيل.

في عام 158 قبل الميلاد، تأثر زعيم قبائل الهون بالإشاعة وشن هجوم على أسرة هان، وقام جنودها بأعمال النهب والقتل والإحراق في منطقتي شانغجون ويونجونغ، التي هي الآن مناطق شنشي ومنغوليا الداخلية، والغزو المفاجئ لقبائل الهون جعل الشعب المحلي في وضع خطير للغاية، وسارع ضباط الحدود إلى إبلاغ الإمبراطور وين.

أمر الإمبراطور وين ثلاثة جنرالات بقيادة القوات لحماية الحدود ومقاومة الغزو على الفور. وفى نفس الوقت، أمر ثلاثة جنرالات آخرين للمرابطة بالقرب من مدينة تشانغآن لضمان استقرار العاصمة، حيث رابطت قوات الجنرال ليولي في منطقة باشانغ، ورابطت قوات الجنرال شولي في منطقة جينغمن، ورابطت قوات تشو يافو في منطقة شيليو. وكان الإمبراطور وين يعلم أن الجنود كانوا مجتهدين ومرهقين في الاستعداد للحرب، ومن أجل رفع المعنويات، قرر الإمبراطور زيارة الثكنات بالقرب من مدينة تشانغآن.

جاء أولا إلى منطقة باشانغ، حيث تلقى ترحيباً حارا من قبل الجنرال ليولي وجميع الجنود على طول الطريق. ثم ذهب إلى منطقة جينغمن، حيث تلقى ترحيباً حارا من قبل الجنرال شولي

وجميع الجنود، وكان الإمبراطور سعيداً للغاية بحسن الاستقبال والترحيب في المنطقتين.

غادر الإمبراطور وين منطقة جينغمن، ولم يكن في حسبانه أنه تلقى ترحيباً مختلفا في منطقة شيليو.

بدلا من الترحيب الحار، كان معسكر منطقة شيليو تحت حراسة شديدة، حيث أوقف حراس البوابة الضابط المتقدم للفريق الملكي، وكان الأخير غاضباً جداً وقال بصوت عالٍ، إن الإمبراطور قد وصل وافتحوا البوابة بسرعة.

قال الحراس بجد، إننا تحت أمر الجنرال تشو يافو فقط في المعسكر، ليس أمر الإمبراطور. ولم يأمر الجنرال بفتح البوابة، فلا يمكننا سماحكم بالدخول.

اضطر الضابط المتقدم إلى إبلاغ الإمبراطور عن الأمر، وطلب الإمبراطور منه إظهار الختم الملكي للجنرال تشو يافو، وإخباره أن الإمبراطور جاء لتحية الجنود.

أمر الجنرال تشو يافو بفتح بوابة المعسكر بدون استعجال بعد رؤية الختم الملكي، حيث أوقف الحراس الفريق الملكي من جديد وقالوا، حسب قواعد المعسكر، لا يمكن عربات الخيول التحرك بسرعة، والرجاء منكم التقدم ببطء. وكان المرافقون للإمبراطور غاضبين للغاية، لكن الإمبراطور أمرهم بالتقيد بالقواعد العسكرية والسير ببطء.

لم يكن هناك ترحيب حار في المعسكر، حيث ما زال الجنود يرتدون دروعهم ويقفون في أماكنهم ويمارسون التدريبات العسكرية، وتقدم الجنرال تشو يافو إلى الامبراطور وانحنى أمامه قائلاً، إنني اليوم أرتدي الدرع في المعسكر، فلا يمكنني أن أركع أمامكم، وأرجو من جلالتكم العفو وأتقابل معكم بهذه الطريقة العسكرية.

اعتقد جميع الأتباع أن تشو يافو ليس سوى جنرالاً منخفض المستوى، لكنه تعامل مع الإمبراطور بمثل هذه الطريقة غير المقبولة، ومن المؤكد أن الإمبراطور سيكون غاضباً جداً. ولم يكن في حسبانهم أنه لم يغضب، بل انحنى قليلاً أمام الجنرال تشو يافو لتحيته، ثم سلّم على جميع الجنود في المعسكر وشجّعهم على الاستعداد للحرب، ثم غادر المعسكر بفريقه. وكانت قوات الجنرال تشو يافو مرتبة وجادة للغاية في كل هذه العملية.

في طريق العودة إلى مدينة تشانغآن، قال الإمبراطور وين لأتباعه، إن تشو يافو يمكن أن يصبح جنرالا كبيرا بجديته في إدارة الجيش، وإذا كان كل الجنود في البلاد مثل جنوده، فكيف يجرؤ العدو على غزونا؟ وعلى الرغم من الترحيب الحار في منطقتي باشانغ وجينغمن، إلاّ أن الأوامر العسكرية هناك لم تكن صارمة، فكيف يمكن الجنود المقاومة في حال اعتداء الأعداء؟

بعد الاستماع إلى كلامه، فهم الأتباع أهمية تجربة الجنرال تشو يافو.

بعد فترة وجيزة، حقق جيش أسرة هان النجاح في مقاومة قبائل الهون ورجع إلى العاصمة من الجبهة الأمامية وعادت القوات المترابطة بالقرب من العاصمة كذلك. واكتشف الإمبراطور وين كفاءة تشو يافو من خلال زيارته الميدانية، وقرر إيلاء مزيد من الاهتمام به وتعيينه قائدا عاما للحراس لمدينة تشانغآن، ولم ينس تذكير ابنه ليوتشي قبل وفاته أن تشو يافو صاحب الكفاءة ويمكن تعيينه جنرالا عاما للجيش لتهدئة أي اضطراب في البلاد في المستقبل.

بعد أن وصل ليوتشي إلى سدة الحكم كالإمبراطور جينغ، قام بترقية منصب تشو يافو، ولم يخيب الأخير أمل الإمبراطور، حيث نجح في قمع تمرد الدويلات السبع على رأسها وو وتشو.

56
تمرد الدويلات السبع

لا نعرف ما إن خطر في بال تشاوتسو حواره مع والده أو لا.

ذات سنة، استغرق والد تشاوتسو وقتا عصيباً وطويلاً وجاء من بلدته إلى بيت ابنه في عاصمة تشانغآن، وفور وصوله ولم يسترح حتى لدقيقة واحدة ولم يشرب أي ماء لتخفيف جفاف الحلق، استعجل في تساؤل ابنه قائلاً، لم يمض وقت طويل على وصول الإمبراطور إلى سدة الحكم، ولك منصب مهم في القصر، فكيف اقترحتَ على الإمبراطور استرجاع مناطق النفوذ للأمراء، الأمر الذي قد يؤثر بالعلاقات بين الإمبراطور والأمراء، وما سبب هذا؟

أجاب تشاوتسو بهدوء، كنت قد توقعت النتيجة بالفعل، ولكن إن لم أفعل ذلك، كيف يمكن ضمان استقرار العرش وديمومة حكم عائلة ليو؟

شاهد والده الثبات والصدق من عيني ابنه وتنهد وقال، نعم سيكون حكم عائلة ليو مستقرا، لكن عائلتنا على الأرجح ستسقط في الهاوية.

بعد ذلك تحول والده وغادر، وسمع تشاوتسو صوت والده الخفيف، كان الأخير قال، لن أتحمل رؤية وفاتك، وجئتك هذه المرة لتوديعك.

ما إن عاد والد تشاوتسو إلى بلدته حتى شرب الخمر السام لقتل نفسه وقال، لا أريد أن أرى الكارثة.

بعد أكثر من 10 أيام من وفاة والد تشاوتسو، تمردت سبع دويلات على رأسها وو وتشو، ولوح الجنود المتمردون برايات وهتفوا «تصفية تشاوتسو» وتقدموا نحو مدينة تشانغآن. وتم إعدام تشاوتسو في مدينة تشانغآن بالفعل في النهاية.

ما كان سبب وفاة تشاوتسو ووالده؟ دعونا نحكِ القصة ببطء.

الإمبراطور قاوزو قام بتقسيم أراضي البلاد في صفوف أبناء عائلة ليو في عهد حكمه، ولهؤلاء الأمراء أراض وقوات في مناطق نفوذهم، وأصبحوا يتجاهلون الإمبراطور فوقهم مع مرور الوقت، وأصبح بعضهم أغنياء وأقوياء في عهد حكم الإمبراطور جينغ، وخاصة ليوبي أمير دويلة وو، وكانت دويلته قوية ومتقدمة بسبب تطور صناعة النحاس والملح، وازداد ليوبي تغطرساً حتى رفض زيارة الإمبراطور جينغ في مدينة تشانغآن.

ربما لا يوجد أي إمبراطور في العالم يمكن تحمل مثل هذا الوضع، فما العمل؟

هناك طريقة وهي استرجاع مناطق النفوذ.

طُرحت هذه الخطة من قبل تشاوتسو الذي رأى إمكانية كبح الأمراء المتغطرسين عبر استرجاع أراضيهم تدريجياً. وفي عام 157 قبل الميلاد، وصل الإمبراطور جينغ إلى سدة الحكم، وقام بمواصلة تطبيق تجربة والده لإنعاش البلاد ووضع تشاوتسو في موضع هام من أجل تعزيز الحكم، وعيّنه مستشارا ثم رئيساً للتنظيم والمراقبة، وقد طرح تشاوتسو العديد من سياسات الحكم المعجبة لدى الإمبراطور جينغ.

بعد شغل منصب رئيس التنظيم والمراقبة، وجد تشاوتسو تدريجياً أن الأمراء الأقوياء تهديد للحكم، ثم قال للإمبراطور جينغ، يا صاحب الجلالة، إن ليوبي أمير دويلة وو لم يزركم قط في مدينة تشانغآن، ويمكننا تجريمه حسب القواعد القديمة، ناهيك عن أنه قام بتنقيب مناجم النحاس وصنع العملة المعدنية واستخراج الملح من خلال مياه البحر والتجنيد باستمرار، فيجب علينا استرجاع أراضيه تدريجياً.

تردد الإمبراطور وقال، سوف تتراجع قوته بهذه الطريقة، ولكن أخشى أنه سوف يتمرد، فما العمل لو تمرد بالفعل؟

قال تشاوتسو، إن ليوبي حاول التمرد قبل مدة في الحقيقة، وإذا لم نسترجع أراضيه، هو سوف يزداد قوة وخطورة، أليس كذلك؟

أدرك الإمبراطور جينغ أن كلام تشاوتسو صحيح، ووافق على استرجاع أراضي الأمراء.

من أجل تجنب المواجهة المباشرة مع دويلة وو القوية، مدّ الإمبراطور جينغ يده ضد الدويلات الصغيرة أولا، واسترجع بعض المحافظات التابعة لها خلال وقت قصير. وأمام الوضع غير المؤاتي، تمردت دويلة وو والدويلات الست الأخرى تسو وجاو وجياودونغ وجياوشي وززتشوان وجي في عام 154 قبل الميلاد.

هذا هو «تمرد الدويلات السبع» الشهير في التاريخ.

قاد ليوبي أمير دويلة وو القوات المشتركة الضخمة للدويلات السبع للتقدم نحو مدينة تشانغآن وطلب من الإمبراطور جينغ قتل تشاوتسو، وكان الإمبراطور قلقا جداً واستدعى الوزراء للمناقشة، وكان بعضهم حاسدا من كفاءة تشاوتسو فقالوا، إن تشاوتسو هو السبب الأساسي لتمرد الدويلات السبع، ومن المؤكد أنها ستنسحب في حال قتل تشاوتسو.

تردد الإمبراطور ثم فكّر، يمكن تحقيق الاستقرار في حال قتل تشاوتسو، فلماذا هذا التردد؟ ثم قرر قتله، غير أن الأخير الذي كرّس نفسه لخدمة أسرة هان قلباً وقالباً لم يكن له أي علم لمصيره. وذات يوم بعث الإمبراطور حارسه لاستدعاء تشاوتسو. وفي منتصف الطريق، أعلن الحارس مرسوم الإمبراطور، وأمر الجنود بالقبض على تشاوتسو وقتله.

هذا هو سبب مقتل تشاوتسو، حيث توقع والده هذا المشهد، فهرع إليه لإقناع، لكنه لم ينجح في ذلك، فعاد إلى بلدته وشرب الخمر السام.

هل انسحبت القوات المشتركة المتمردة بعد وفاة تشاوتسو؟

طلب الإمبراطور جينغ انسحاب قوات الدويلات السبع فور مقتل تشاوتسو، ولكن كيف يمكن ذلك وقد حقق أمير دويلة وو انتصارات متتالية؟ وكان شعار «قتل تشاوتسو» ليس سوى حجة للتمرد، ولم يكن هناك أي احتمال للانسحاب.

قال الوزير دنغ للإمبراطور الذي تطلع إلى انسحاب القوات المتمردة، إن تمرد أمير دويلة وو مخطّط قبل مدة، وكيف ذلك خطأ تشاوتسو؟ وقد قتل جلالتكم هذا الرجل الوالي، وأخشى أن لا أحد يجرؤ على خدمة عائلة ليو بولاء في المستقبل. وأدرك الإمبراطور جينغ ذلك فجأة، ولكن قد فاته الأوان.

وأخيرا، تذكر الإمبراطور جينغ الكلمات الأخيرة لوالده، وأمر الجنرال تشو يافو لمقاومة المتمردين.

تجنب تشو يافو كمين أمير دويلة وو، ولم يواجه القوات المشتركة لدويلتي وو وتشو بشكل مباشر، بل بعث فريقا من الجنود للوصول إلى ورائها لقطع إمداداتها، ثم شن تشو يافو هجوماً عنيفاً ضد القوات المشتركة لدويلتي وو وتشو ونجح في القضاء عليها، وقتل أمير دويلة وو وقطع رأسه.

بعد فشل القوات المشتركة لدويلتي وو وتشو، سرعان ما تشتتت القوات المشتركة للدويلات الخمس الأخرى.

هكذا تم قمع تمرد الدويلات السبع خلال أقل من ثلاثة أشهر، واستفاد الإمبراطور جينغ من الدرس الفاشل وقام بوضع قوانين وقواعد للحد من صلاحيات الأمراء إلى حد كبير، التي اقتصرت في جمع الضرائب داخل مناطقهم، ولم يعد للأمراء حق التدخل في الشؤون السياسية. ومنذ ذلك الحين، تم تعزيز وترسيخ الحكم المركزي لأسرة هان بشكل أكبر.

57

وي تشينغ وهوتشوبينغ

ذُكر في الفصل السابق أن تشو يافو نجح في قمع تمرد الدويلات السبع، لكن المخاطر الخارجية ما زالت موجودة.

لنصب أعيننا نحو قبائل الهون. ومنذ بداية عهد أسرة هان الغربية، ظلت قبائل الهون مثل جار غير ودي أثار احتكاكات وصراعات مستمرة مع أسرة هان، حيث كانت الأخيرة ظلت في وضع ضعيف خلال الفترة بين حكم الإمبراطور قاوزو وحكم الإمبراطور جينغ، غير أن الوضع أصبح مختلفا بعد وصول الإمبراطور وو إلى سدة الحكم، الذي غير السياسات القديمة، وأخذ زمام المبادرة لمهاجمة قبائل الهون، حيث برز عدد من الجنرالات المشهورين المتألقين، على رأسهم وي تشينغ وهو تشوبينغ.

لا أعرف ما إذا كنتَ فكرتَ فيما ستحققه في المستقبل عندما كنت فتىا.

هل تريد أن تكون نجما سينمائياً ملفتا للأنظار، أم كاتباً غزير الإنتاج، أم جندياً يحرس حدود الوطن الأم، أم معلما يقف على منصة التدريس؟

على كل الأحوال كان هذا هو تصورات فقط، ونادرا ما يمكننا اختراق ضباب الوقت ورؤية المستقبل بوضوح، ويتميز المستقبل بالسحر بسبب هذا الاحتمال غير المعروف.

كما هو الحال مع وي تشينغ، وكان هذا الفتى الصغير لم يتوقع مدى نجاحه في المستقبل. وكان عليه الاستيقاظ من النوم عندما لم تكن السماء ساطعة، وذلك من أجل قيادة الأغنام إلى التلال أو الوديان المغطاة بالأعشاب، وهذه مهمة كلفه بها والده. وأمام الأغنام الحرة التي تأكل الأعشاب

في ضوء الشمس المشرقة، شعر وي تشينغ بحزن بعض الشيء، حيث لم يعرف كيف سيكون مستقبله.

ولد وي تشينغ في أسرة متواضعة، وكان إخوته غير مبالين به. وبسبب كثرة الإخوة، لم يكن لدى والده أي وقت للاعتناء به، فتركه لتربية الأغنام كل يوم. لكن وي تشينغ كان غير راغب في فعل ذلك، غير أنه ليس له أي خيار بديل. وبعد ذلك بوقت قصير، مر وي تشينغ بسجن منطقة قانغتشوان، حيث حدق به أحد السجناء لفترة طويلة وقال له فجأة، إن حياتك ستكون فاخرة ونبيلة للغاية وأنت ستشغل منصباً عالياً جداً في المستقبل.

انفجر وي تشينغ في الضحك بعد سماع هذا الكلام وقال، إنني لست سوى ابن خادم، وسأكون مرتاحا للغاية ما دمت أتخلص من اللوم والتعذيب في المستقبل، وكيف أجرؤ على شغل منصب عال؟

كانت أمنية وي تشينغ الفتى هي التخلص من اللوم والتعذيب، حيث لم يكن لديه أي علم بأنه سوف يسلك طريقا ليكون مسؤولا بارزا في المستقبل، وكان المفتاح لفتح هذا الطريق هو أخته السيدة وي زيفو.

ذات سنة أصبحت السيدة وي زيفو معجبة جداً لدى الإمبراطور وو، وهذا نقلة نوعية في حياة وي تشينغ، حيث تم تعيينه مسؤولا من المستوى المحلي إلى المستوى الولائي حتى المستوى المركزي، وفي عام 129 قبل الميلاد، تم تعيينه جنرالا للجيش، بما فتح حياته على ظهور الخيل لمدة عشر سنوات.

يمكن القول إن العديد من الناس في البداية لم يكونوا متفائلين مثل بوي تشينغ الذي يعتقد أنه كان محظوظا بسبب أخته. غير أنه رجل ولد لينتمي إلى ساحة المعركة، حيث حقق إنجازات عسكرية استثنائية مرارا وتكرارا.

في عام 129 قبل الميلاد، قاد الجنرالات وي تشينغ وقونغسون خه وقونغشو آو ولي قوانغ الجيش لمقاومة جيش قبائل الهون المعتدي لأسرة هان في أربعة أماكن، ولكن خسر قونغشو آو أكثر من سبعة آلاف جندي، وتم القبض على لي قوانغ أسيرا ثم هرب في منتصف الطريق، وعاد قونغسون خه بدون أي نجاح، وكان وي تشينغ الذي انطلق في رحلته العسكرية الأولى هو الوحيد

لتحقيق الانتصار، وعلى الرغم من أن الآخرين أفضل منه من حيث التجربة والممارسة، هو كان شجاعا وهادئاً على نحو غير عادي ونجح في المعركة ضد قبائل الهون في مدينة لونغتشنغ وقتل وقبض على مئات عناصرها. وكان الإمبراطور وو سعيداً جداً بنجاحه وعينه جنرال قوانيهو.

كانت معركة لونغتشنغ لها أهمية فوق عادية في تاريخ الحرب بين أسرة هان وقبائل الهون، حيث حققت أسرة هان الانتصار للمرة الأولى في الحرب ضد قبائل الهون، وكسرت الشائعات بأن قبائل الهون قوية لدرجة أنها لا تقهر. ومنذ ذلك الحين، حققت أسرة هان سلسلة من الانتصارات تحت قيادة وي تشينغ.

كان أبرز هذه الانتصارات حصل في عام 124 قبل الميلاد، حيث قاد وي تشينغ ثلاثين ألف جندي لمهاجمة معسكر رئيس الوزراء اليساري لقبائل الهون في الليل، وهرع الأخير إلى الهروب بمحظيته وجنوده النخب في ذعر، وقبض وي تشينغ على أكثر من 15 ألف عنصر لقبائل الهون كأسرى. وبهذه الطريقة، حصل وي تشينغ على احترام الآخرين مع المآثر العسكرية المتكررة. ولم نعرف ما إذا خطر في باله كلام السجين في منطقة قانغتشوان بهد نجاحه، حيث أصبح ما رآه مستحيلاً في السابق حقيقة الآن.

بعد الحديث عن قصة وي تشينغ، دعونا نواصل الحديث عن قصة جنرال مشهور آخر هو تشوبينغ.

كان هو تشوبينغ ابن أخ وي تشينغ، وبرزت شجاعته وقدرته على الدفاع عن النفس عندما كان في السنة العاشرة في عمره. وفي عام 123 قبل الميلاد، رافق هو تشوبينغ عمه وي تشينغ لمهاجمة قبائل الهون في السنة الثامنة عشرة من العمر، واعتز بهذه الفرصة كثيراً، وقاد 800 جندي للبحث عن القوات الرئيسية لقبائل الهون، ورأى مخيماتها بعيداً بعد قطع مئات الكيلومترات.

فما العمل؟ هل يمكن هزم القوات الرئيسية لقبائل الهون بثمانمائة جندي؟

قرر هو تشوبينغ التسلل سرا إلى معسكر العدو بعد التفكير المعمق، واكتشف مخيم قائد قوات القبائل ثم اخترق وقتله طعنا، ووقع معسكر العدو في فوضى على الفور، وواصل هو تشوبينغ في المهاجمة وقبل ألفي عنصر وقبض على أسيرين وهما عم زعيم قبائل الهون ورئيس وزرائه، وأخذهما إلى معسكره. ومن أجل تكريم هذا النجاح الكبير، عينه الإمبراطور وو جنرال قوانجون.

في ربيع عام 121 قبل الميلاد، أمر الإمبراطور وو هو تشوبينغ بقيادة عشرة آلاف جندي لمهاجمة قبائل الهون من أجل السيطرة على ممر خشي، وكان هو تشوبينغ شجاعا للغاية وأدار القوات بشكل صحيح، ولم ينجح في الاستيلاء على منطقتي هونياه وشيوتو فحسب، بل أيضاً قتل أمير جهلان وأمير لوهو لقبائل الهون وقبض على ابن أمير هونياه والعديد من المسؤولين، وكانت قوات قبائل الهون متشتتة وفاشلة بشكل تام.

في عام 119 قبل الميلاد، قاد وي تشينغ وهو تشوبينغ 50 ألف جندي كلا على حدة لمهاجمة قبائل الهون، وانطلق الأول من مقاطعة دينغشيانغ التي هي الآن منطقة منغوليا الداخلية الذاتية الحكم، وانطلق الأخير من مقاطعة داي، حيث ركز هو تشوبينغ على محاربة القوات الرئيسية لقبائل الهون، أما وي تشينغ فهو قام بكبح جنودها من الجانبين.

استخدم هو تشوبينغ عناصر الهون المستسلمين بجرأة في هذه المعركة، وطلب منهم فتح الطريق في الأمام. وانطلقت قواته من مقاطعة داي نحو الشمال، وقطعت أكثر من عشرة كيلومترات وعبرت جبل ليهو ونهر قونغلو، وهزمت رئيس الوزراء اليساري لقبائل الهون وسيطرت على إمداداتها الغذائية، وقضى هو تشوبينغ على 70 ألف عنصر عدو بشكل غير متوقع في المعركة الشرسة.

وأخيرا ترأس هو تشوبينغ مراسم العبادة في جبل لانغجوشو لشكر الآلهة وحداد الشهداء وتكريم الأبطال، ثم عاد إلى العاصمة.

كان غزو قبائل الهون مصدر القلق للإمبراطور وو، لكن القبائل لم تعد تهديداً بعد الانتصارات المتكررة التي حققها هو تشوبينغ، فقرر الإمبراطور منحه مكافآت سخية، حيث أمر الحرفيين المهرة ببناء قصر فاخر لتكريم هو تشوبينغ. وبفضل الجهود الكبيرة للحرفيين، تم إنجاز بناء هذا القصر.

ثم استدعى الإمبراطور هو تشوبينغ وقال له، حققتَ إنجازات بارزة في مقاومة قبائل الهون، لذا قررتُ مكافأتك بقصر، وأنا لا أعرف ما إذا كنت راضياً من ذلك؟

لقد تأثر هو تشوبينغ كثيراً ولكن رفض المكافأة قائلاً، كيف أتوطّن في القصر في أمان ولم أقض على قبائل الهون كلها بعد؟

تناقلت روح هو تشوبينغ المتمثلة في خدمة العائلة الكبيرة قلباً وقالباً بغض النظر عن العائلة الصغيرة بين الأجيال المتعاقبة عبر العصور. وفي عام 117 قبل الميلاد، توفي هو تشوبينغ في السنة الرابعة والعشرين من عمره، وكان الإمبراطور وو حزينا جداً من فقدان هذا الجنرال القوي، فأمر ببناء ضريح ضخم له وتكريمه بمنصب جنرال جينغهوان.

58

رحلة تشانغ تشيان إلى المناطق الغربية

من الصعب على الناس في العصر الحديث تقدير مصاعب المسافرين القدماء.

حيث لم يعرفوا الاتجاه عند الانطلاق، وغالباً ما قاموا بإزالة الشوك والبحث ببطء عن الطريق والتقدم ببطء إلى الأمام، ولم يكن لهم أي علم بما إذا كان الطريق خطيرا أو مستقيما، أو ما إذا كان سيول أو وحوش أو ناهبون؟ أو ما إذا كان بلاد العجائب أو قرية وأكل لذيذ أمامهم؟ حيث سافروا بين الأنهار والجبال بلا ملل.

وبالطبع، من الممكن التغلب على الصعوبات الخارجية، ولكن يصعب التعامل مع الخوف والارتباك والضعف في الداخل. ولنتصور مدى حزن المسافرين لو حوصروا في الكهف في الأمطار الهاطلة بالليل، ومدى الحزن واليأس لو جلسوا حول النار الضئيلة في البرية في صوت الوحوش.

من الصعب تصور مدى قوة الروح والمعنوية من أجل التغلب على العقبات العديدة لتحقيق الحلم خطوة بعد خطوة، وفي عهد حكم الإمبراطور وو، كان هناك مغامر يستحق الاحترام والتقدير وهو تشانغ تشيان.

سافر تشانغ تشيان من بلد إلى آخر للتواصل والتبادل مع المناطق الغربية، وفتح منظورة أوسع لشعب أسرة هان وقناة تربط بين القديم والحديث بقوته الخاصة. ودعونا الآن نتحدث عن قصصه.

ذات سنة، أخذ الإمبراطور وو صورة وجيزة عن المناطق الغربية من عناصر قبائل الهون المستسلمين، وتشير المناطق الغربية أساساً إلى منطقة شينجيانغ والمناطق غربها الآن. ويقال إن

زعيم مودو لقبائل الهون سبق أن غلب على دويلة روجي، واضطر سكان الأخيرة إلى النزوح إلى المناطق الغربية وهم كانوا يكرهون قبائل الهون كثيراً، وإذا كان أي شخص يمكن أن يساعدهم، فسوف ينتقمون قبائل الهون بالتأكيد.

تصور الإمبراطور وو أن الأمر فرصة سانحة للاتحاد مع دويلة روجي لمهاجمة قبائل الهون معا.

وكانت دولة روجي تقع في غرب قبائل الهون. وأصدر الإمبراطور وو مرسوماً لتجنيد مبعوث لزيارة المناطق الغربية للاتصال مع دولة يودي التي لم يعرف موقعها بالضبط. وكان الجميع يعلم أن المسافة طويلة للغاية وهناك العديد من المصاعب والعراقيل في الطريق، خاصة أن قبائل الهون واقعة على الطريق المؤدي إلى دولة روجي. لذلك كان لا أحد يجرؤ على الاستجابة بالمرسوم.

برز رجل شجاع من بين الحشود المتراجعة.

كان اسمه تشانغ تشيان، وهو رجل شجاع وحكيم وكان حارس الإمبراطور، وإن شجاعته شجعت بعض المحاربين الآخرين لقبول الدعوة، بمن فيهم تانغ ييفو أهل قبائل الهون الذي كان يسكن في مدينة تشانغآن.

في عام 138 قبل الميلاد، عيّن الإمبراطور وو تشانغ تشيان مبعوثا له للانطلاق من منطقة لونغشي بأكثر من مائة شخص بمن فيهم تانغ ييفو من أجل الاتصال بدولة روجي. وتم اعتراضها في منتصف الطريق من قبل عناصر قبائل الهون، ولم يُقتل تشانغ تشيان، بل وُضع في الإقامة الجبرية مع تانغ ييفو، لكن تشانغ تشيان لم ينس رسالته، حيث ظل يبحث عن الفرصة للفرار خلال أكثر من عقد من الزمان. وحتى يوم من الأيام جاءته الفرصة، حيث سرق تشانغ تشيان وتانغ ييفو حصانين وفرّا سرا.

عزم الرجلان التقدم نحو دولة روجي باستمرار، وكان سفرهما شاقا وصعباً للغاية ويتميز بكثرة الرياح وأشعة الشمس وقلة الملابس والأغذية، واضطر الرجلان إلى استخدام القوس والسهم للقبض على بعض الطيور والحيوانات البرية لمواصلة الحياة.

وذات يوم وصل الرجلان إلى دولة دايوان الواقعة في منطقة آسيا الوسطى، وهما استطاعا تكلم اللغة الهونية فلم يجدا صعوبة في التبادل مع أهالي دولة دايوان. وكان ملك الدولة عرف منذ زمن طويل أن أسرة هان التي تقع في جنوب شرقي بلاده قوية وغنية، فهو سعيد جداً بزيارة تشانغ تشيان، وكرّمه وتانغ ييفو بأفضل أنواع النبيذ واللحوم.

وعرّفه تشانغ تشيان على هدف زيارته للمناطق الغربية.

وكان ملك دولة دايوان متحمساً للغاية، حيث أمر الناس بمرافقة تشانغ تشيان للوصول إلى منطقة كانغجو التي تقع الآن بين بحيرة بلقاش وبحر آرال، والوصول إلى دولة روجي في نهاية المطاف، حيث وصل تشانغ تشيان إلى وجهته النهائية بعد أكثر من عشر سنوات.

انتقلت دولة روجي إلى دولة داشيا التي هي الآن في شمال أفغانستان بعد هزيمتها أمام قبائل الهون، وغيّرت تسميتها إلى دويلة دا روجي، التي قد تكيفت مع خصوصيات المنطقة الجديدة، وعاش أهاليه في أمان وسعادة، فلم تكن لها أي غربة في الانتقام، ولم يرد ملكها على تشانغ تشيان بعد توضيح الأخير لقصده، ولم ينجح تشانغ تشيان بعد تكرار تفسيره، فاضطر إلى مغادرة دولة دا روجي للرجوع إلى أسرة هان.

كان من المؤسف جداً وقد تم اعتراض تشانغ تشيان وتانغ ييفو ووضعها قيد الإقامة الجبرية من جديد من قبل قبائل الهون في طريق رجوعهما، ووقعت القبائل في فوضى لحسن الحظ بعد وفاة زعيمها مرضا بعد عام، وانتهز تشانغ تشيان وتانغ ييفو الفرصة ونجحا في الفرار.

اخترق الرجلان الغبار الكثيف والرياح الشديدة، وعادا إلى مدينة تشانغآن.

واستغرقت رحلتهما إلى المناطق الغربية 13 عاما، وعادا بوحدهما حينما كان هناك أكثر من مائة شخص في وقت الانطلاق. وكان الإمبراطور وو متأثراً جداً بالإنجازات الكبرى لتشانغ تشيان، وعيّنه مستشارا للبلاد.

قال تشانغ تشيان للإمبراطور، يا جلالتكم، قد رأيت في دولة داشيا ما أُنتج في مقاطعة سيتشوان لبلادنا من قضيب الخيزران والقماش الدقيق، ويقال إن هذه المنتجات وصلت إلى دولة

داشيا عبر تجار دولة الهند، ففي المستقبل يمكننا الوصول إلى دولة داشيا عن طريق مقاطعة سيتشوان، وسيكون السفر آمن وأسهل.

كما قال تشانغ تشيان إن دولة دايوان ودولة داشيا غنيتان بالموارد الطبيعية وهما على استعداد للتواصل مع أسرة هان، فقرر الإمبراطور وو بعثه لزيارة المناطق الغربية من جديد لإظهار القوة والغناء لأسرته من أجل إخضاع المناطق الغربية.

انطلق تشانغ تشيان من مقاطعة سيتشوان، وقسم مرافقيه إلى أربعة فرق للبحث بشكل منفصل عن الطريق المؤدي إلى دولة الهند، ولكن تم اعتراضهم جميعا في منتصف الطريق من قبل القبائل المحلية، فاضطر تشانغ تشيان إلى العودة إلى مدينة تشانغآن في يأس.

في عام 121 قبل الميلاد، قاد هو تشوبينغ الجيش لمهاجمة قبائل الهون، وحقق انتصارا كبيرا بفضل تشانغ تشيان الذي كان يعرف الطريق والتضاريس بشكل جيد. وبعد هزيمة قبائل الهون، توقفت دول المناطق الغربية في تقديم الجزية إليها، بل قررت الخضوع أمام أسرة هان. ثم قرر الإمبراطور وو بعث تشانغ تشيان لزيارة المناطق الغربية على الفور للمرة الثالثة.

في عام 119 قبل الميلاد، انطلق تشانغ تشيان لعقد علاقات الصداقة مع دول المناطق الغربية بهدايا مثل الذهب والفضة والحرير والقماش والأبقار والأغنام، ووصل إلى دولة ووسون التي هي الآن منطقة شينجيانغ، ورابطها بشكل مؤقت وأرسل مرافقيه لمواصلة زيارة دول داوان وكانغجو وداشيا. واستضاف ملك دولة ووسون تشانغ تشيان بحماس، وقرر بعث مبعوثيه لزيارة مدينة تشانغآن لمشاهدة غناء أسرة هان بأم أعينهم.

لذلك عاد تشانغ تشيان بمبعوثي دولة ووسون إلى مدينة تشانغآن، واندهشوا بمدى ازدهار وغناء أسرة هان للغاية وعادوا إلى دولتهم وأخبروا ملكهم بما رأوه وسمعوه. وبهذه الطريقة تم عقد علاقات الصداقة بين أسرة هان ودولة ووسون. وتوفي تشانغ تشيان من المرض في الرحلات المتعبة المتكررة. وعاد مرافقوه إلى أسرة هان على التوالي برغبات دول المناطق الغربية في تعزيز أواصر الصداقة مع أسرة هان.

ومنذ ذلك الحين ازداد التواصل بين أسرة هان ودول المناطق الغربية كثافة.

حيث دخلت منتجات المناطق الغربية إلى أسرة هان مثل العنب والبرسيم والجوز والرمان والثوم تدريجياً، وفي المقابل صُدرت العديد من المنتجات والبضائع من أسرة هان إلى المناطق الغربية، ومن خلالها إلى كل أنحاء العالم، وكان أشهر تلك المنتجات والبضائع هو الحرير، ويقال إنه في عام 48 قبل الميلاد، ذهب بومبيوس الكبير إلى المسرح وكان رداؤه الحريري الفاخر أثار إعجاب كل الجمهور، حيث أن الرومان القدماء غير قادرين على مقاومة سحر الحرير اللطيف والمريح والباهر، وسرعان ما أصبح الحرير مشهوراً في روما. ومنذ ذلك الحين، تدفق الحرير الصيني إلى الغرب دون انقطاع، حيث سمي الطريق الذي فتحه تشانغ تشيان بين أسرة هان والمناطق الغربية «طريق الحرير».

59

سيما تشيان: مؤلف سجل كبار الشخصيات في التاريخ

كيف عرفتَ ما حدث على هذه الأرض؟

إن أبسط طريقة هي الاعتماد على كتب التاريخ.

وإن كتب التاريخ هي سجل. كما قلنا من قبل إن هناك العديد من الناس قد عاشوا على الأرض التي تقف عليها الآن، واختلف من شخص إلى آخر مزاجه وشخصيته، وتركوا بكاءهم وضحكهم وبصماتهم على هذه الأرض ولم يعودوا موجودين الآن.

إن إحدى الطرق لتسجيل هذه البصمات هي كتب التاريخ، ومن كان يؤلفها بالضبط؟ وما كانت دوافعهم؟ الآن لنتحدث عن مؤرخ عظيم في تاريخ الصين وهو سيما تشيان.

ولد سيما تشيان في عام 145 قبل الميلاد وكان تاريخ وفاته غير معروف، ولقبه زيتشانغ، وهو مؤرخ وكاتب مشهور في تاريخ الصين.

كان جد سيما تشيان مسؤول المؤرخين، ووالده سيما تان بارعا في علم الفلك والرياضيات والتاريخ والفلسفة، وهو باحث شهير في أوائل عهد أسرة هان، حيث عيّنه الإمبراطور وو مسجلا لتاريخ أسرة هان، وألّف سيما تان كتاب ¡°حول جوهر أفكار المذاهب الفكرية الستة¡± حيث علّق حول نقاط القوة والضعف للمذاهب الفكرية الرئيسية الستة وهي الين واليانغ والكونفوشيوسية ومو مينغ وفا والطاوية في فترة الدويلات المتحاربة. وتأثر سيما تشيان بروح والده المستقيمة والعادلة وجديته في الدراسة.

بدأ سيما تشيان التعلم من والده بجد واجتهاد في السادسة من العمر، وسرعان ما كان يتقن «زو جوان» و «قويو». وبعد بضع سنوات بدأ سيما تشيان تعلم «ربيع وخريف قونغيانغ» من

الأستاذ دونغ تشونغ، ثم تعلم «قووين شانغشو» من الأستاذ كونغ آنقو، مما أرسى أساساً متينا له لتأليف «سجل كبار الشخصيات في التاريخ».

في العشرين من عمره، غادر سيما تشيان العاصمة وسافر إلى الخارج لاستكشاف المواقع التاريخية وجمع الحقائق التاريخية.

ارتحل سيما تشيان بين الجبال والأنهار، حيث جاء إلى ضفة نهر ميلو لحداد الشاعر تشويوان، ومر بمدينة تشانغشا لمقاطعة هونان لزيارة البيت القديم للسياسي البارز جياي لأسرة هان الغربية، وزار منطقة كوايجي لمقاطعة تشجيانغ لاكتشاف موقع اجتماع الزعيم شون مع زعماء القبائل، وزار بلدة البطل هانشين لأسرة هان، وزار بلدة كونفوشيوس مدينة تشوفو وإلخ.

تبدأ رحلة بألف ميل من قراءة ألف كتاب، وعززت الكتب مع كفاءة ومعرفة سيما تشيان، وعززت الرحلات من آفاقه، حيث تم تعيينه مسؤول لانغجونغ عندما رجع إلى مدينة تشانغآن، ومع ذلك طمح أن يكون مسؤول المؤرخين.

في عام 108 قبل الميلاد، تسلم سيما تشيان منصب والده، حيث بدأ قراءة الكتب والمؤلفات في المكتبة الملكية وجمع المواد التاريخية والاستعداد لكتابة «سجل كبار الشخصيات في التاريخ»، غير أنه تورط في «حادثة ليلينغ» بعد خمس سنوات، واضطر إلى وقف تأليفه.

ذات سنة قاد الجنرال ليلينغ لمحاربة قبائل الهون وحقق الانتصار الكامل، ولكن سرعان ما شنت قبائل الهون هجومات مضادة، وقبضت على ليلينغ بسبب نقص الإمدادات، واستسلم ليلينغ في يأس، وكان الإمبراطور وو غاضباً للغاية من استسلامه ودعا المسؤولين المدنيين والعسكريين للمناقشة حول التدابير المضادة.

انتقد جميع الوزراء ليلينغ، غير أن سيما تشيان الذي احترم ليلينغ كثيراً قال إن الجنرال رجل عادل ومستقيم، وليس له أي خيار أفضل من الاستسلام، واضطر إلى الاستسلام أمام مثل ذلك الوضع.

ازداد غضب الإمبراطور وو بعد الاستماع إلى سيما تشيان، وأمر بوضعه في السجن وفرض عليه عقاب الإخصاء الذي يُعتبر نوعاً عن الإهانة الكبرى لأي مرء في العالم، حتى حاول

سيما تشيان الانتحار، لكنه تنهد وقال، هذا خطئي، وقد تعرض جسدي للضرر. وازدادت شجاعته بعد خطر قصص الحكماء القدماء في ذهنه.

نعم، ترى:

لم يؤلف الأمير وين لمملكة تشو كتاب «تشويي» قبل وضعه في السجن، ولم يؤلف كونفوشيوس كتاب «الربيع والخريف» قبل محاصرته في دويلتي تشن وتساي، ولم يؤلف تشويانغ كتاب «ليساو» قبل وضعه في المنفى، ولم يؤلف زوتشو كتاب «قويو» قبل فقدان نظرته، ولم يؤلف سون بينغ كتاب «فن الحرب» قبل فقدان ركبتيه بسبب التعذيب.

قرأ سيما تشيان في السجن الكتب والمؤلفات الذي كتبها أو ألفها أو نظمها الحكماء القدماء، حيث لمس مشاعرهم وعواطفهم التي لا يوصف بها من تلك الكلمات والجمل البسيطة، وحقق كل هؤلاء الحكماء إنجازات عظيمة في وقت ضيق.

لذلك عزم سيما تشيان على العيش بعناد لإكمال «سجل كبار الشخصيات في التاريخ».

في عام 96 قبل الميلاد، تم إطلاق سراح سيما تشيان من السجن واستمر في الكتابة. وفي السنة الخامسة والخمسية من العمر، أنجز سيما تشيان بعد معاناته من عقاب الإخصاء والسجن إكمال كتاب «سجل كبار الشخصيات في التاريخ»، وسجل هذا الكتاب المشهور داخل الصين وخارجها تاريخ الصين الذي امتد من حكم زعيم ياو حتى حكم الإمبراطور وو لأسرة هان، بما يفتح آفاق تسجيل التاريخ بأسلوب السيرة الذاتية.

أشاد السيد لو شون بأن كتاب «سجل كبار الشخصيات في التاريخ» قمة السجلات التاريخية مثل كتاب «ليساو» بدون الإيقاع.

قد سجل سيما تشيان في كتابه التاريخ لثلاثة آلاف سنة بكلمات عادلة ومعتدلة وغير مجاملة ومبالغة، وكشف فيه حقائق الحكم القمعي والقاسي للعديد من الأباطرة والمسؤولين، وحتى كشف حقيقة انغماس الإمبراطور المؤسس لأسرة هان الغربية ليوبانغ في الخمر والحسناوات.

لا بد أن نقول إن كتاب ¡°سجل كبار الشخصيات في التاريخ¡± لسيما تشيان هي مؤلف تاريخي عظيم، وهو مفعم بالحماس وضبط النفس واليقظة، وبالاستمرارية من البداية حتى النهاية

والتفاصيل الدقيقة. في الوقت نفسه، تكمن وراء هذا الكتاب روح سيما تشيان المتمثلة في عدم خوف المصاعب والمتاعب وتبني الجرأة والشجاعة أمام الإهانة، وهي روح تتألق عبر آلاف السنين.

60

مساعدة هو قوانغ على الحكم

ربما علم الإمبراطور وو المسن بالفعل أنه لم يكن هناك الكثير من الوقت المتبقي له في الدنيا، فأمر بإهداء لوحة لهو قوانغ.

كان عنوان اللوحة «مساعدة جوقونغ الأمير تشنغ على الحكم»، كما قلنا في السابق إن الأمير وو لدويلة تشو توفي بعد فترة وجيزة من قتل الحاكم جو، وقبل وفاته كلّف مستشاره جوقونغ بمساعدة ابنه الأمير تشنغ الصغير على الحكم، وكرّس جوقونغ نفسه وبذل قصارى جهده للمساعدة، وأصبحت قصته فقرة جميلة في سجلات التاريخ.

لماذا أعطى الإمبراطور وو هذه اللوحة لهو قوانغ؟

لأنه كان يواجه نفس المعضلة، وكان ابنه ليو فولينغ صغير السن، وهو قلق جداً من الشخصية الذي يمكن مساعدة الإمبراطور المستقبلي على الحكم. وعلى غرار الأمير وو بمملكة تشو قبل ألف سنة، نظر الإمبراطور وو إلى الوزراء في القصر وفكر لفترة طويلة، وفي النهاية نصب نظرته إلى شخص واحد.

كان هذا الشخص هو هو قوانغ.

إن هو قوانغ لقبه زي مينغ، وهو الأخ الصغير للجنرال هو تشوبينغ، وأصبح خادماً للإمبراطور وو في العاشرة من العمر، وكان الإمبراطور معجباً بنزاهته وصدقه كثيراً، فعيّن هو قوانغ مسؤولا للخدمة، وبعد ذلك بفترة وجيزة، عيّنه مسؤولا لإدارة خيول الإمبراطور وبوابات القصر.

تعززت ثقة الإمبراطور بهو قوانغ باستمرار، وأخيرا أعطي اللوحة «مساعدة جوقونغ الأمير تشنغ على الحكم».

في عام 98 قبل الميلاد، وصل ليو فولينغ الذي كان عمره ثماني سنوات فقط إلى الحكم. وحسب المرسوم للإمبراطور وو الراحل، يساعد الجنرال العام هو قوانغ الإمبراطور الشاب في إدارة شؤون البلاد. وبعد أن استوعب هو قوانغ السلطة، أصبح أكثر إصرارا واجتهادا، حيث وضع سياسات التعافي والحد من العبء على الناس والتمييز بين المكافأة والمعاقبة، بما ازدادت مصداقيته ومكانته في أذهان الناس.

ومع ذلك، كان هناك عدد من الوزراء غير راضين عن هو قوانغ، وخاصة الجنرال اليساري شانغقوان جي.

كان ابن شانغقوان جي زوج ابنة هو قوانغ، غير أن العلاقات بينهما ليست جيدة، حيث طمح شانغقوان جي استبدال هو قوانغ من أجل الاستيلاء على السلطة. ومن أجل تحقيق هذا الهدف، وبمساعدة دينغ وايرن أهل مدينة هوجيان، استنجد شانغقوان جي بأخت الإمبراطور الأميرة قايتشانغ لتزويج الإمبراطور بحفيدته البالغة من العمر ست سنوات.

أصبحت تلك البنت زوجة الإمبراطور بعد وقت قصير، بما عزز مكانة شانغقوان جي، وهو لم ينس مساعدة دينغ وايرن وظل يبحث عن فرصة لرد الجميل عليه. وذات مرة، ناقش شانغقوان جي مع هو قوانغ حول إمكانية تعيين دينغ وايرن رئيساً للمحافظة، غير أن هو قوانغ رفضه بشكل قاطع.

وقال هو قوانغ إن أسرة هان فيها قواعد منذ الإمبراطور قاوزو حول منع تعيين من لم تكن له إنجازات رئيساً للمحافظة.

مهما كانت طرق الطلب لشانغقوان جي، فإن هو قوانغ لم يوافقه، مما عزز كراهيته وحتى أثار استياء الأميرة قايتشانغ. ثم اتحد شانغقوان جي مع ابنه شانغقوان آن والأميرة قايتشانغ من أجل تأطير هو قوانغ، غير أن الأخير ظل حذرا، فمن الصعب عليهم إيجاد فرصة.

ذات يوم استعد هو قوانغ لإجراء جولة تفقدية في الجيش، ثم استدعى عقيداً إلى بيته. وانتهز شانغقوان جي الفرصة ورفع تقريرا للإمبراطور باسم ليودان أمير مقاطعة يان من أجل تأطير هو قوانغ، وقال فيه إن هو قوانغ ركب نفس مستوى عربة الخيول مع الإمبراطور في جولته التفقدية في الجيش، وهو متعجرف جداً وقام باستدعاء عقيد إلى بيته سرا، وقد ازداد طموح هذا الرجل، وهو قد يتمرد. وأنا على استعداد للعودة إلى مدينة تشانغآن للدفاع عن جلالتكم.

قرأ الإمبراطور جاو التقرير وفكر في الأمر ثم وضع التقرير جانبا.

في اليوم الثاني لم ير الإمبراطور هو قوانغ في الاجتماع الصباحي، واستغرب وسأل، أين الجنرال العام هو قوانغ؟

أجاب شانغقوان جي على الفور بأن الجنرال سمع عن تقرير أمير مقاطعة يان، فلم يجرؤ على حضور الاجتماع.

أمر الإمبراطور باستدعاء هو قوانغ إلى القصر على الفور.

وصل هو قوانغ إلى القصر وخلع قبعته وركع أمام الإمبراطور قائلاً، أرجو من جلالتكم تجريمني.

رفع الإمبراطور يده قليلاً وحث هو قوانغ على ارتداء القبعة وقال، إنني أعرف أن هذا التقرير المزور يهدف إلى تأطيرك. ونظر هو قوانغ إلى الإمبراطور بدهشة وسأل، كيف عرفت جلالتكم ذلك؟

قال الإمبراطور بهدوء، إن الأمر بديهي للغاية، حيث أجريتَ الجولة التفقدية بالقرب من مدينة تشانغآن، بينما أن أمير مقاطعة يان يسكن في أقصى شمال البلاد، وكيف عرف تحركاتك خلال وقت قصير جداً؟ علاوة على ذلك، تستغرق عملية إيصال التقرير من الشمال إلى هنا بضعة أيام على الأقل. وبالإضافة إلى ذلك، إذا أراد الجنرال العام التمرد، فلا جدوى في تعبئة عقيد واحد. لذلك أعتقد أن هناك أشخاصاً يريدون تأطيرك.

سرعان ما اقتنع الوزراء بكلام الإمبراطور وأعجبوا بحكمته، ولم يتم تجريم هو قوانغ طبيعة الحال. وأمر الإمبراطور جاو بالكشف عن الشخص الذي رفع التقرير المزور، وكان

شانغقوان جي مذنباً بالضمير فحاول إقناع الإمبراطور بعدم مواصلة التحقق، غير أن الإمبراطور عزم في التحقق حتى النهاية.

لم يكن لدى شانغقوان جي أي خيار سوى مواصلة قول أشياء سيئة حول هو قوانغ أمام الإمبراطور، وقال الإمبراطور غاضباً، إن ولاء الجنرال العام واضح أمام الشمس والقمر، وإن كل من يقول الأشياء السيئة عنه سوف يواجه عقوبة شديدة.

ومنذ ذلك الحين، لم يجرؤ شانغقوان جي على فعل ذلك، غير أنه لم يتخل عن طموحه وطلب من الأميرة قايتشانغ لاستضافة مأدبة على شرف هو قوانغ من أجل قتله، من شأنه الإطاحة بالإمبراطور جاو. غير أن هو قوانغ عرف محاولته وأخبر الإمبراطور، الذي أمر على الفور بإعدام عصابة شانغقوان جي.

في السنة الثالثة عشرة من مساعدة هو قوانغ على الحكم، توفي الإمبراطور جاو الشاب، ولم يكن له أي نجل، فناقش هو قوانغ مع والدة الإمبراطور الراحل لتسليم العرش لليو خه أمير مقاطعة تشانغيي، لكن الأخير خيب أملهما، حيث غرق في المتعة طوال اليوم بعد وصوله إلى سدة الحكم، وفعل الكثير من الأشياء السخيفة خلال العشرين يوماً الأولى من حكمه.

لذلك رفع هو قوانغ وغيره من المسؤولين تقريرا مشتركاً إلى والدة الإمبراطور الراحل للإطاحة بليو خه، وتسليم العرش لليو شون ابن حفيد الإمبراطور وو الراحل، ليكون هو الإمبراطور شوان. وبعد ذلك، بدأ هو قوانغ مساعدة الإمبراطور شوان الذي كان عمره ثماني عشرة عاما فقط على الحكم. وفي عام 68 قبل الميلاد، توفي هو قوانغ، حيث أقام الإمبراطور شوان جنازة كبيرة له.

61

إعلان وانغ مانغ عن نفسه إمبراطوراً

كانت هناك محادثة مشهورة في أحد الكهوف بمدينة يانآن في عام 1945.

جرت تلك المحادثة بين ماو تسيتونغ وهوانغ يانبي، حيث طرح الأخير قانون الدورة التاريخية وقال، خلال حياتي لأكثر من ستين عاما، قد شاهدت التناوب المستمر بين النهوض والتراجع ويتطابق هذا القانون مع كل فرد وعائلة وجماعة وفي أي مكان وأي دولة بدون استثناء.

لنتعرف باختصار على قانون الدورة التاريخية.

قد اعتدنا أن نرى تناوب الربيع والخريف وتفتح الزهور وذبولها وتناوب البدر والهلال، وقد طور هوانغ يانبي هذا القانون لتطبيقه على الأسر الصينية القديمة، التي تناوبت بين النهوض والتراجع والارتفاع والسقوط باستمرار. وهذا هو قانون الدورة التاريخية.

وقد تحدثنا بالفعل عن العديد من الأمثلة التي تتطابق مع هذا القانون في الفصول السابقة مثل النهوض والتراجع لمملكة تشو وأسرة تشين، حيث تتسلق كل أسرة الجبل من سفحه حتى قمته، ثم تنزل حتى سفحه من جديد بغض النظر عن النية الذاتية، ولا مفر لتدهور جميع الأسر القديمة في التاريخ مهما كان ازدهارها.

فكيف يمكننا الهروب من قانون الدورة التاريخية؟

هذه مسألة تستحق الدراسة، وإذا كنت مهتما بها، يمكنك البحث عن الإجابة. ودعونا نعُد الآن إلى أسرة هان الغربية التي لم تنجح في الهروب من هذا القانون أيضاً، حيث تأسست الأسرة بقيادة الإمبراطور قاوزو وصعدت في عهد حكم الإمبراطور وي والإمبراطور جينغ، وبلغت ذروة

الازدهار في عهد حكم الإمبراطور وو، ثم تراجعت وأشرفت على النهاية أخيرا بعد أكثر من مائتي عام.

يمكن القول إن أسرة هان الغربية انهارت في يد شخص واحد وهو وانغ مانغ، وما كانت قصته؟

بعد وفاة الإمبراطور شوان، تسلم ابنه ليو بي أي الإمبراطور يوان العرش، ثم ليو آو الإمبراطور تشنغ، غير أن الأخير انغمس في المتعة ولم يتقيد بالقواعد وآداب السلوك ولم يهتم بشؤون البلاد، وسرعان ما سقطت السلطة في يد الأقرباء، ويشير الأقرباء عادة إلى أفراد عائلة والدة أو زوجة الإمبراطور، حيث تم تعيين وانغ فنغ خال الإمبراطور تشنغ الأكبر رئيساً للوزراء وجنرالا عاما للجيش، وتعيين أخواله الآخرين رؤساء للمحافظات.

ازدادت عائلة وانغ تغطرساً بعد استيلاء وانغ فنغ على السلطة ما عدا وانغ مانغ الابن الثاني للخال الثاني أكبر للإمبراطور تشنغ، وهو رجل لطيف ولائق وغير متعجرف، وفقد والده منذ الطفولة فعاش مع خاله وانغ فنغ واحترمه كثيراً، وحتى اعتنى به وراعاه عندما أصبح الأخير مريضا. لذلك، قرر وانغ فنغ قبل وفاته تسليم وانغ مانغ إلى الإمبراطور تشنغ ووالدته لرعاية وانغ مانغ.

بعد بضع سنوات، تولى وانغ مانغ منصب رئيس الوزراء وسيطر على السلطة، حيث اهتم بتجنيد أصحاب الكفاءة، وقبِل جميعهم وعيّنهم حسب مستوى الكفاءة، لذلك التفّ حوله العديد من أصحاب الكفاءة والقدرة المعروفين لمساعدته.

من أجل الاستحباب أمام الجمهور، أخرج وانغ مانغ ممتلكاته من العائلة وقدمها للضيوف، لكنه عاش بنفسه بطريقة نزيهة وبسيطة للغاية. وذات مرة أصبحت والدته مريضة، وزارها كافة الوزراء واندهشوا بتواضع بيت وانغ مانغ، ومنذ ذلك الحين انتشرت سمعة نزاهة وانغ مانغ بين الناس.

في عام 7 قبل الميلاد، اعتلى ليو شين أي الإمبراطور آي العرش بعد وفاة الإمبراطور تشنغ، وتوفي بعد ست سنوات فقط منذ وصوله إلى سدة الحكم، ثم تسلم ليو كان شقيق الإمبراطور

آي الراحل العرش ليكون الإمبراطور بينغ، وكان عمره تسع سنوات فقط، حيث ما زالت السلطة في يد وانغ مانغ.

في عام 2 بعد الميلاد، حدثت كوارث الجفاف والجراد في السهول الوسطى، ومُنيت المحاصيل الزراعية بالكوارث الطبيعية، فضلاً عن الاستغلال الاستبدادي من قبل النبلاء. وأخرج وانغ مانغ مليون وحدة من العملة آنذاك وستين هكتارا من الأراضي لمساعدة المنكوبين، حيث اضطر العديد من الوزراء إلى مساعدة المزارعين بأراضيهم وأموالهم.

كانت جدة الإمبراطور سعيدة للغاية، وأمرت بمكافأة وانغ مانغ بأكثر من 20 ألف هكتار من الأراضي في منطقة شينيه، ورفض الأخير رفضا قاطعا، ثم انتشرت نزاهته وتواضعه في كل الأماكن، حيث تقدم العديد من المسؤولين والنبلاء بتقارير إلى القصر الملكي للإشادة بـ «فضائل» وانغ مانغ لعدم قبول الأراضي، حتى كتب بعض الناس مجموعة متنوعة من القصائد للإشادة به، وأصبحت سمعة وانغ مانغ بارزة للغاية.

بالإضافة إلى ذلك، زوج وانغ مانغ الإمبراطور بينغ بابنته، مما أصبحت مكانته أبرز.

بعد أن نشأ الإمبراطور بينغ تدريجياً، أصبح على بينة من طموح وانغ مانغ، وأدرك أنه ليس على استعداد دائم لشغل منصب مسؤوله. وكان الإمبراطور خائفا وفي الوقت نفسه منزعجاً جداً من وانغ مانغ، لأن الأخير قتل بعض أخواله. لكن الإمبراطور غير الحذر كشف عن فكرته الحقيقية ذات مرة، التي انتشرت لاحقاً إلى وانغ مانغ.

لذلك، قتل وانغ مانغ الإمبراطور بالخمر السام، وادعى أن الإمبراطور بينغ توفي بسبب المرض. ومن أجل التستر على الأجندة الخاصة، اختار وانغ مانغ رضيعا بسنتين من العمر من عائلة ليو ليكون ولياً للعهد، وأعلن نفسه «إمبراطوراً بالنيابة».

لاحظ بعض وزراء المحاولة الانقلابية لوانغ مانغ قبل مدة، ومن أجل حماية أنفسهم بدأوا إقناع وانغ مانغ بأن يكون الإمبراطور، بما يتطابق مع إرادته الحقيقية، فأمر وانغ مانغ بعض الناس ببث الشائعة التي تقول إن وانغ مانغ هو ابن السماء الحقيقي، بمن فيهم رجل يدعى آي تشانغ وهو من أهل مدينة زيتونغ، وإنه رجل غير مستقيم ودرس في مدينة تشانغآن، وصنع صندوقا نحاسياً

منقوشا عليه نص «الإمبراطور قاوزو ليوبانغ سلّم الختم الإمبراطوري لوانغ مانغ، وإن وانغ مانغ ابن السماء الحقيقي».

في وقت لاحق، ارتدى آي تشانغ معطفا أصفر وأرسل الصندوق إلى معبد الإمبراطور قاوزو، وتم إيصال هذا الصندوق إلى وانغ مانغ في النهاية، حيث برزت أجندته الخاصة، وذهب إلى جدة الإمبراطور لطلب الختم الإمبراطوري مباشرة، واضطرت الأخيرة إلى تسليم الختم لأن الأوان قد فاتها. وهي رمت الختم على الأرض، وفقد الختم زاوية، ثم تم شحذه بالذهب.

في عام 8، قرر وانغ مانغ الذي حصل على الختم الإمبراطوري الإطاحة بولي العهد وأعلن نفسه إمبراطوراً بشكل رسمي، وغير أسرة هان إلى أسرة شين، مما أنهى أسرة هان الغربية التي أسسها ليوبانغ الإمبراطور قاوزو، واتخذ وانغ مانغ سياسيات رجعية بحجة الإصلاح، وكانت أهم تلك السياسات تحويل ملكية الأراضي في البلاد إلى ملكية عائلة وانغ، وتحويل الخادمات إلى الملكية الخاصة، ومنع شراء أو بيع الأراضي والخادمات، فضلاً عن تقييم الأسعار وإصلاح العملة.

كانت فكرة وانغ مانغ جيدة في رأيه، غير أن النتائج ليست متفائلة.

في ظل المعارضة القوية للنبلاء، كان لا يمكن تنفيذ أول سياسة على الإطلاق، أما سياسات تقييم الأسعار وإصلاح العملة فقد أتت بإزعاج كبير للناس، حيث عارضت كل البلاد سياسات الإصلاح قيادة وقاعدة.

أمام الاحتجاجات المتصاعدة، اضطر وانغ مانغ إلى إلغاء سياسة منع شراء أو بيع الأراضي والخادمات بعد ثلاث سنوات. وبالإضافة إلى ذلك، قد أثار تدبيره الآخر مشكلة أكبر، حيث أمر بتدمير معابد عائلة ليو وإقالة جميع أمراء عائلة ليو، مما أثار مقاومة أشد وحتى فوضى في كل البلاد تدريجياً.

أمام الصراعات الداخلية المتكررة، أراد وانغ مانغ التخفيف من حدة التوتر عبر شن الحروب الخارجية. غير أنه تعرض لمقاومة قبائل الهون ودول المناطق الغربية وأهل شينان، فضلاً عن مقاومة الشعب. وفي إطار سلسلة القرارات الخاطئة من وانغ مانغ، أشرفت أسرة شين الجديدة الإنشاء على الانهيار.

62
انتفاضة جيش الغابة الخضراء
وجيش حاجب العين الأحمر

إذا قرأت رواية «هامش الماء»، فأنت تعرف أن وو سونغ ولي كوي ولو جيشن هم يعرفون باسم أبطال الغابة الخضراء.

إن مصطلح «رجل الغابة الخضراء» في القاموس الصيني عبارة عن الرجل الذي يقاوم الطبقة الحاكمة في الجبال والغابات، إذن أين تقع الغابة الخضراء بالضبط؟ ولماذا يسمى أولئك أبطال الغابة الخضراء؟

لنبحث عن الإجابة في القصة التالية.

جلبت الإصلاحات غير المناسبة لوانغ مانغ والكوارث الطبيعية معاناة كبيرة للشعب، الذي عاش في حالة من الجوع والفقر. وبسبب نقص الغذاء، اضطر الناس إلى قطف الخضروات البرية في الجبال والمستنقعات، لكن الخضروات البرية تقللت باستمرار وحتى أثارت النزاع بين الناس، واضطر البعض الآخر إلى حمل السيوف والأرماح ضد الطبقة الحاكمة وبدء انتفاضة واسعة النطاق.

هكذا حان العصر المضطرب.

يبرز الأبطال في الأوقات العصيبة، حيث ينتهز العديد من الأبطال الفرصة للوقوف على مسرح التاريخ. وفي عام 17، وقعت حادثة قتل في محافظة هايشتو التي هي الآن محافظة ريجاو بمقاطعة شاندونغ، مما أثار انتفاضة الفلاحين. والمحافظ أمر بإعدام المسؤول لو يو بسبب خطئه البسيط، واعتقدت والدة لو يو أن ابنها تعرض للمعاملة غير العادلة، ومن أجل الانتقام، قامت

بتحريض الناس واخترقت مقر الحكومة المحلية وقتلت المحافظ، ثم توالى إلى المحافظة العديد من الفلاحين، وتوسع جيش المتمردين بسرعة.

في نفس العام حدثت مجاعة كبيرة في مدينة جينغتشو في جنوب البلاد التي هي الآن منطقة هوبي وهونان، حيث برز جيش من المتمردين.

وكان زعماء جيش المتمردين وانغ قوانغ ووانغ فنغ وهما أهالي مدينة شينشي، وكان الرجلان يحبان مساعدة الناس ولقيا إقبالهم، وانتهزا الفرصة لتحريض الناس إلى الانتفاض ضد النظام الاستبدادي وحكم وانغ مانغ، وأتى الناس من كافة الاتجاهات لتلبية الدعوة. وتمركز الناس في جبل الغابة الخضراء وهاجموا القرى البعيدة نسبياً عن المدن بين حين وآخر، وتجاوز عدد المتمردين 10 آلاف شخص في غضون بضعة أشهر فقط.

سُمي جيش المتمردين «جيش الغابة الخضراء» لأن جبل الغابة الخضراء كان قاعدته.

قد عرفنا من أين جاء مصطلح أبطال الغابة الخضراء، أما جبل الغابة الخضراء فهو واقع في شمال محافظة جينغشان بمقاطعة هوبي.

حسنا، لنواصل قصة أبطال الغابة الخضراء. وبعد أن سمع وانغ مانغ عن انتفاضة الفلاحين في منطقة هوبي، أرسل الجيش على الفور لقمع ومحاصرة المتمردين، لكن جيشه فشل تماماً أمام المتمردين الأقوياء، وانتهز جيش الغابة الخضراء الفرصة للسيطرة على بعض المدن وفتح مستودعات الحبوب، ووزّع بعضها على الفقراء، ونقل الباقي إلى جبل الغابة الخضراء. وفي وقت لاحق، ارتفع عدد الجنود في جيش الغابة الخضراء إلى 50 ألف.

عندما كانت الانتفاضة تجري على قدم وساق، اندلع الوبأ في جبل الغابة الخضراء، ومات نصف الجنود ، واضطر الآخرون إلى النزوح إلى مناطق شينشي وبينغلين وشياجيانغ ضمن ثلاثة فرق.

في عام 18، تشكل جيش آخر من المتمردين في منطقة دونغفانغ بقيادة فان تشونغ، واحتل الجيش جبل تايشان وقام بمحاربة المسؤولين المستبدين في مناطق تشينغتشو وشوتشو. وكان فان

تشونغ فلاحا بسيطا، وأطلق الانتفاضة من أجل توفير حياة أفضل للشعب، فأمر بإعدام جميع الناس الذين يقتلون جماهير الشعب، ومعاقبة جميع الناس الذين يضرون بجماهير الشعب.

ونتيجة لذلك، أصبح جيشه أقوى فأقوى، وأمر فان تشونغ جميع الجنود بصبغ حاجب العين باللون الأحمر كعلامة، لذلك سمي جيشه جيش حاجب العين الأحمر. وفي عام 22، أمر وانغ مانغ الجنرال وانغ كوانغ بقيادة 100 ألف جندي لقمع جيش حاجب العين الأحمر، وفشل جيش وانغ كوانغ فشلا كبيرا وأصيب وانغ كوانغ طعنا وهرب في خوف.

انتشر خبر نجاح جيش الغابة الخضراء وجيش حاجب العين الأحمر في جميع أنحاء البلاد، وبرز مزيد من المزارعين لمقاومة السلطة، ولكن كان من أعاد استقرار البلاد وحكم أسرة هان ليس من الأبطال الذين برزوا في جيش الانتفاضة مثل وانغ غوانغ ووانغ فنغ وفان تشونغ، بل هو أحد النبلاء المتراجعين واسمه ليو شيو.

63
حرب كونيانغ

لم يكن في حسبان ليو شيو أنه سيصبح إمبراطوراً.

وكان حلمه في الواقع هو أن يكون مسؤولا حكومياً مثل جي جينيو، وأن يتزوج من زوجة مثل ين ليهوا. وعندما كان يدرس في مدينة تشانغآن، رأى ليو شيو في يوم من الأيام قائد حراس المدينة جي جينيو الذي ارتدى الدرع المتألق وحمل الرمح الحاد، والتفت حوله حشود. وقد ترك هذا المشهد تأثيرا عميقا في ذهن ليو شيو، وأصبح جي جيني نموذجاً يحتذى به لديه في الحياة. أما ين ليهوا فهي امرأة جميلة في جنوب البلاد، وسمع ليو شيو أنها جميلة جداً، وازداد أمله بأن يتزوج من امرأة جميلة مثل ين ليهوا.

غير أن المستوى الذي بلغه ليو شيو في النهاية أعلى بكثير من حلمه.

لنر الآن كيف صعد ليو شيو إلى عرش الإمبراطور في موجة العصر.

بعد أن غلب جيش الغابة الخضراء وجيش حاجب العين الأحمر على جيش وانغ مانغ، توالت انتفاضات في كل البلاد، وانتهز عدد من النبلاء المتراجعين الفرصة لتشكيل القوات بمن فيهم ليو شيو وشقيقه ليو يان.

قام ليو شيو وليو يان بتعبئة 7 آلاف نبيل لتشكيل جيش تشونلينغ، ورفع راية إعادة أسرة هان عالياً من أجل مقاومة أسرة شين بقيادة وانغ مانغ.

وفي وقت لاحق، تعاون جيش تشونلينغ مع جيش الغابة الخضراء، وتغلب على عدد من الجنرالات لوانغ مانغ.

تعززت قوة جيش الغابة الخضراء، لكن جنوده كانوا منتشرين في مختلف الأماكن، بحيث يجب اختيار زعيم لقيادة الجيش، ورأى الجميع أنه ينبغي أن يكون الزعيم أحد أفراد عائلة ليو، واختاروا أحد النبلاء ليو شوان في نهاية المطاف.

في عام 23 بعد الميلاد، أعلن ليو شوان نفسه إمبراطوراً بشكل رسمي، وهو عرف اسم الإمبراطور قنغشي، كما عرف جيش الغابة الخضراء جيش هان.

عيّن ليو شوان وانغ قوانغ ووانغ فنغ مستشارا له، وليو يان رئيساً للوزراء، وليو شيو جنرالا عاما للجيش، وبعث وانغ قوانغ ووانغ فنغ للسيطرة على مناطق كونيانغ ودينغلينغ ويانتشنغ.

أصبح وانغ مانغ خائفا جداً من التطور السريع لجيش الغابة الخضراء، وأمر الجنرال وانغ شو والجنرال وانغ داو في عام 23 بقيادة 120 ألف جندي للتقدم نحو الجنوب لقمع المتمردين، وحاصر هذا الجيش الكبير مدينة كونيانغ أولا.

كان جيش وانغ مانغ ضخما وعالي المعنوية للغاية، غير أنه كان هناك أقل من 9 ألاف جندي فقط لجيش الغابة الخضراء داخل مدينة كونيانغ، مما أثار قلقا شديداً في الجيش.

حيث قال البعض، إن عدد الأعداء أكثر بكثير منا، فلنتخل عن المدينة.

غير أن الجنرال العام ليو شيو قال، إذا توحّدنا وبذلنا جهودا متضافرة، لا يزال هناك فرصة للفوز، ولكن إذا تناثرنا في القتال وتخلينا عن مدينة كونيانغ، فسنهزم قريبا.

اتفق الجميع مع ليو شيو وقرر مواجهة الأعداء سويا.

لكن جيش وانغ مانغ كان قوياً جداً، فقرر ليو شوان بعد المناقشة مع المسؤولين بعث وانغ فنغ ووانغ تشانغ للدفاع عن مدينة كونينغ، وبعث ليو شيو لقيادة جنود الخيول للخروج من البوابة الجنوبية للمدينة لتعبئة قوات الإنقاذ، حيث قاد ليو شيو 12 ضابطا وجندياً في تلك الليلة واخترق حصار جيش وانغ مانغ.

عرف وانغ مانغ أن ليو شيو يريد البحث عن قوات الإنقاذ، فأمر بمحاصرته، لكن ليو شيو كرس نفسه في القتال بشجاعة كبرى ونجح في الاختراق في النهاية.

كان لدى وانغ مانغ جنود كثيرون وأسلحة متقدمة، فلم يتعامل مع مدينة كونيانغ بجدية، واعتقد أنه يمكن السيطرة عليها بكل سهولة، ولكن وجد أن سور المدينة صلب ودفاع جيش هان قوي للغاية، الذي نجح في مقاومة مهاجمة جيشه مرارا.

وفي هذا الوقت، قد جاء ليو شيو إلى مدينة دينغلينغ لتعبئة قوات الإنقاذ، غير أن هناك العديد من الضباط والجنود ترددوا في الذهاب معه، وأصبح ليو شيو غاضباً جداً وقال لهم، وقعت مدينة كونيانغ في الحصار، فلا بد لنا من الإنقاذ، ولن ننجز مهام عظيمة إلاّ بعد أن نتغلب على جيش وانغ مانغ، وفي حال فقدان مدينة كونيانغ، إن جيشه سوف يأتي إلى هنا لمحاربتكم في وقت قصير.

اقتنع الضباط وبدأوا تنظيم وتعبئة القوات على الفور، وقاد ليو شيو جيش النخبة للعودة إلى مدينة كونيانغ قبل الآخرين. ولاحظ وانغ مانغ أن ليو شيو عاد بحوالي ألف جندي فقط، فاسترخى في اليقظة، وبعث بضعة آلاف جندي فقط للقتال مع ليو شيو. غير أن الأخير وجه الضربة الاستباقية ضد جيش وانغ مانغ الذي كان لم يستعد للمحاربة بعد.

تزامنا مع القتال الشرس بين الجانبين، وصل عدد كبير من قوات الإنقاذ لجيش هان، وحقق انتصارات متتالية وحتى اقترب من معسكر وانغ مانغ، فاضطر الأخير إلى التراجع، حيث واصل ليو شيو قيادة 3 آلاف جندي قوي لمهاجمة القوات الرئيسية لجيش وانغ مانغ، وكان الجنرال وانغ داو لجيش وانغ مانغ له 10 آلاف جندي، لكنه لم يتمكن من التصدي للهجومات العنيفة، وقتل جنرال آخر وانغ شون في القتال أيضاً.

أما الجنرالات وانغ فنغ ووانغ تشانغ الذين رابطوا داخل مدينة كونيانغ فدقوا طبول الحرب، وخرجوا من المدينة بهتافات لمحاربة الأعداء مع قوات الإنقاذ، حيث قد أصبح جيش وانغ مانغ متشتتا، وفر الجنرال العام وانغ يي ببعض جنود النخبة، وفي ظل فرار أو مقتل الجنرالات، فر الجنود المتبقين لجيش وانغ مانغ واستسلم بعضهم بشكل مباشر.

وفي هذه اللحظة اجتاحت الناس عاصفة رعدية ورياح شديدة وأمطار هاطلة، وما زال جيش هان يطارد بقايا وفلول جيش وانغ مانغ وألحقه بخسائر فادحة، حيث غرق الكثير من عناصره وحتى سدوا قناة صرف المياه.

بعد تجربة مصاعب ومخاطر كبرى، عاد الجنرال العام وانغ يي بفلول جيشه إلى مدينة لويانغ، حيث لم يبق سوى بضعة آلاف جندي فقط وكان إجمالي عددهم 420 ألف. وتمت مصادرة جميع الأسلحة والعربات العسكرية والإمدادات الغذائية التي تركها جيش وانغ مانغ في ساحة المعركة من قبل جيش هان.

تم القضاء على القوة الرئيسية لجيش وانغ مانغ في حرب كونيانغ. ونتيجة لذلك، انتهز ليو شوان الإمبراطور قنغشي الفرصة لإرسال الجنرال شين توجيان والجنرال لي سونغ لمهاجمة مدينة تشانغآن. واستعجل وانغ مانغ في إطلاق سراح السجناء لتشكيل جيش من أجل مقاومة جيش هان. وبالطبع فشل هذا الجيش وسيطر جيش هان على مدينة تشانغآن وقتل وانغ مانغ.

انتهت أسرة شين بشكل تام بعد 15 سنة منذ تأسيسها على يدي وانغ مانغ، أما حرب كونيانغ فأصبحت حرباً مشهورة في تاريخ الصين فتغلب القليل على الكثير وانتصر الطرف الضعيف على الطريق القوي.

64
تأسيس أسرة هان الشرقية على يدي ليو شيو

أتت حرب كونيانغ بسمعة بارزة لليو يان وليو شيو، وبحسد في آن واحد.

يمكن القول إن الطريق المؤدي إلى عرش الإمبراطور هو طريق ضيق مليء بالأشواك والمطبات، فضلاً عن ظلال السيوف والسهام وإرادة الناس غير المتوقعة. وكان ليو شيو يسلك هذا الطريق خطوة بخطوة بكل حذر ويقظة. ومن أجل الوصول إلى النهاية المجيدة، لم يكف له تحقيق الانتصار في ساحة المعركة وتوسيع الأراضي فقط، بل أيضاً ممارسة ضبط النفس والتوافق مع الناس.

نجح ليو شيو لحسن الحظ.

بعد حرب كونيانغ، سيطر ليو يان مدينة ونتشينغ التي هي الآن مدينة نانيانغ بمقاطعة خهنان، واختار الإمبراطور قنغشي مدينة ونتشينغ كعاصمة مؤقتة. وهو خشي من تعاظم نفوذ ليو يان، لذلك قتله بحجة ما. وكان ليو شيو حزينا للغاية بعد معرفة خبر وفاة شقيقه، ولكن ما زالت قوته غير قوية بما فيه الكفاية، فاضطر إلى ابتلاع هذا الخبر المرّ وجاء إلى مدينة ونتشينغ للاعتذار إلى الإمبراطور وطلب العفو منه.

كان على ما يبدو أن ليو شيو غير حزين من وفاة شقيقه، ولم يقم جنازة له، ولم يتحدث سرا مع المسؤولين التابعين لشقيقه، ولم يذكر مساهمته في حرب كونيانغ، حيث شعر الإمبراطور بالارتياح والطمئنينة. ولكن عندما جلسليو شيو مع نفسه، بكى بنفسه وعزم الانتقام لشقيقه.

يمكننا أن نلاحظ ما يتميز به ليو شيو من ضبط النفس، حيث اختار البقاء صامتا رغم الكراهية والحزن الشديد.

ومع ذلك إن ضبط النفس لم يكن كافياً لتحقيق النجاح، بل يجب تجمع القوة لتحقيق النقلة النوعية. وبعد ذلك بوقت قصير، جاءت ليو شيو الفرصة. ومن أجل تهدئته، عينه الإمبراطور جنرالا عاما للجيش. وبعد ذلك قرر الإمبراطور نقل العاصمة إلى مدينة لويانغ، وبعث ليو شيو للذهاب إلى مقاطعة خبى للتوسع. وكان ليو شيو سعيداً جداً، لأنه لم يتخلص من القتل من قبل الإمبراطور فحسب، بل أيضاً يفسح المجال لتطوير قوته الخاصة أيضاً.

في أكتوبر عام 23، انطلق ليو شيو من مدينة لويانغ إلى خبى.

كان الطقس في ذلك اليوم الشتوي بارداً وقاسياً جداً، وتوقف ليو شيو على ضفة النهر الأصفر وشاهد موجات المياه المتدفقة والعدد غير الكثير من الأتباع، وهو كان هادئاً جداً في قلبه، حيث سوف يتخلص من أصعب الأوقات قريبا، ويمكنه خلع قناع المنافقة الذي يرتديه سبب وفاة شقيقه، وسوف تكون قيود الإمبراطور عليه أضعف.

جاء الإقلاع بعد الصمت، وعزم ليو شيو على تحقيق إنجازات في خبي.

جاء ليو شيو إلى خبى وألغى المراسيم القاسية والمتهورة لأسرة شين، وأطلق سراح السجناء واستحوذ على قوات المتمردين، مما ازدادت قوته وتعززت مكانته تدريجياً في خبي.

أصدر الإمبراطور قنغشي مرسوماً حيث طلب من ليو شيو حل جيشه والرجوع إلى العاصمة، لكن الأخير رفض المرسوم بحجة عدم استقرار خبي، حينما بدأ ليو شيو أن يستبعد عن الإمبراطور. ومن أجل توسيع نفوذه الخاصة، احتل ليو شيو أراضي جيش حاجب العين الأحمر، وهاجم منطقة بينغتشو التي هي الآن مقاطعة شانشي، وسيطر على جزء كبير من منطقة السهول الوسطى الغنية بالموارد والمنتجات تدريجياً.

نتيجة لذلك، نصحه العديد من الأشخاص الموالين له بأن يكون إمبراطوراً.

كان ليو شيو مترددا، وقال الضابط قنغ تشون له، إن أصحاب الكفاءة غادروا بيوتهم وشاركوك في ساحة المعركة، آملين الصعود مع التنين والحصول على مناصب سامية في المستقبل، وإذا عارضتَ توافق الناس ورفضت أن تكون إمبراطوراً، أخشى أنهم سيصابون بخيبة أمل، الأمر الذي يؤدي إلى فقدان صبرهم حتى مغادرتهم، حينما سيكون من الصعب تعبئتهم.

لقد تأثر ليو شيو كثيراً بالكلام الصادق لقنغ تشون وقال له، حسنا، لأفكر في الأمر.

في عام 25، أعلن ليو شيو نفسه إمبراطوراً بشكل رسمي بين هتافات حارّة في مدينة خاوتشنغ التي هي الآن محافظة بوشيانغ بمقاطعة خبى، وهو عرف باسم الإمبراطور قوانغ وو.

يمكننا أن نلاحظ ما يتميز به ليو شيو من التوافق مع الناس.

تزامنا مع نيل ليو شيو توافق الناس، فقد ليو شوان توافق الناس ببطء، وهو كان كسولاً وانغمس في الخمر والمتعة بعد نقل العاصمة إلى مدينة تشانغآن، وهو لم يهتم بشؤون البلاد، وعيّن المسؤولين بشكل عشوائي، مما أثار استياء شديداً في صفوف الوزراء.

بعد أن علم جيش حاجب العين الأحمر لتصرفات الإمبراطور قنغشي، قرر شن هجوم على مدينة تشانغآن، حيث قاد الجنرال فان تشونغ 200 ألف جندي للتقدم نحو المدينة، وبات جيش الإمبراطور بالفشل المستمر، وكان ما زاد الطين بلة هو انضمام بعض ضباط جيش الغابة الخضراء إلى جيش حاجب العين الأحمر، ونجح الأخير في السيطرة على منطقة هانقوقوان ثم مدينة تشانغآن.

فرّ الإمبراطور قنغشي، ثم عين جيش حاجب العين الأحمر ليو بنزي البالغ خامسة عشرة العمر إمبراطوراً، وأجبر الإمبراطور قنغشي الفار على الاستسلام وتسليم الختم الإمبراطوري. ورغم إقبال وترحيب السكان في مدينة تشانغآن، قام الأثرياء باكتناز المحاصيل والحبوب، ولم يكن لدى جيش المتمردين أي إمدادات غذائية، حينما جاءت قوات ليو شيو لمهاجمة المدينة.

لذلك اضطر فان تشونغ إلى مغادرة مدينة تشانغآن مع قواته في يأس للتقدم نحو منطقة تيانشوي، ولكن تم إيقافه من قبل المليشيات المحلية في منتصف الطريق، فاضطر إلى تغيير الاتجاه والذهاب إلى الشرق في المنفى. حيث قد عرف ليو شيو الإمبراطور قوانغ وو تحركاته قبل مدة، وأمر بنصب كمين بحوالي 200 ألف جندي في المنطقة التي سيمر بها جيش حاجب العين الأحمر.

أمر ليو شيو الجنرال فنغ يي بالقتال مع فان تشونغ، واتخذ الجنرال تكتيكاً شاطراً حيث أمر الجنود بارتداء نفس أزياء جنود جيش حاجب العين الأحمر، وصاح جنوده في ساحة المعركة

بهتافات «لنستسلم، لنستسلم». مما ألقى بظلال سالبة على معنوية الأعداء بشكل ملحوظ. ولا شك أن جيش حاجب العين الأحمر بات بالفشل الكبير في النهاية.

ثم قاد فان تشونغ القوات المتبقية إلى الفرار إلى منطقة ييانغ.

وقاد ليو شيو نفسه القوات لاعتراض فان تشونغ، ودخل الأخير إلى طريق مسدود ولم يكن لديه أي خيار سوى الاستسلام، ورجع ليو شيو به إلى مدينة لويانغ. وسرعان ما لاحظ أن فان تشونغ حاول التمرد، فقتله بتهمة التمرد. وفي وقت لاحق، اختار ليو شيو مدينة لويانغ كعاصمة لأسرة هان. وتقع مدينة لويانغ في شرق مدينة تشانغآن، فسميت أسرة هان التي أسسها ليو شيو أسرة هان الشرقية، كما سميت أيضاً باسم أسرة هان اللاحقة.

وفي ذلك الوقت، قد مضت سنين عديدة على أن يحلم ليو شيو أن يكون مسؤولا مثل جي جينيو، وأن يتزوج من زوجة مثل ين ليهوا، وهو الآن بصفته إمبراطوراً، لم يعد جي جينيو يستحق الذكر بالنسبة إليه، أما ين ليهوا فهي قد دخلت قصره الإمبراطوري منذ مدة. وبالنظر إلى الأشياء القديمة في الماضي، ماذا خطر في بال ليو شيو؟